

الجانب الإشاري

في تفسير روح البيان لإسماعيل حشقي

(دراسة وتقويم)

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العلوم الإسلامية

إشراف :

الدكتور علي أصغر حشقي

صبيح

الباحث :

ولي زار

رقم التسجيل :

بكالوريوس اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية - غزة

03-NPR-0488

الجامعة الإسلامية
بغزة

كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية

جامعة العلامة إقبال المفتوحة - إسلام آباد

العام الجامعي 2009/2008م

الجانب الإشاري
في تفسير روح البيان لإسماعيل هشي
(دراسة وتقرير)

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العلوم الإسلامية

الإشراف :
الدكتور علي أصغر جشتي

معيد

الباحث :

ولي زار

رقم التسجيل :

كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية
جامعة العلامة إقبال المفتوحة - إسلام آباد

03-NPR-0488

الجامعة المفتوحة

كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية

جامعة العلامة إقبال المفتوحة - إسلام آباد

العام الجامعي 2009/2008م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أهدى

أهدى هذا العمل المتواضع :

لمني حاجي منگل حسن الذي كان يشجعني على تكميل هذه
الرسالة، ويساعدني ماوياً ومعنوياً.

ولزوجتي التي كانت نعم العون لي ، وللمعتكفين عنها
الوالد في بنارس ، وصديق علي في بغيري عنها وعن الوالد ما
يقارب سن سنوات عندما كنت طالباً في إسلام آباد .

ولي زار بن شاه ز الدين

٢٠٠٨/٤/١٠ م

شكر وتقدير

أحمدك اللهم حمداً كثيراً ، كما تحب وترضى ، وأشكرك شكراً كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، وأبرأ لك من الحول والقوة ، ابتداءً وانتهاءً .

وبعد أن استوت هذه الرسالة بحثاً بفضلته تعالى ومنتته ، أتقدم بالشكر الجزيل لكل من كان سنداً وعوناً لي ، منذ كان العمل فكرة ومشروعاً ، إلى أن اكتمل واستوى على سوقه .

وشكر خاص أتقدم به إلى أستاذي المشفق الدكتور علي أصغر چشتي حفظه الله وأطال الله في عمره لخدمة الإسلام ، الذي تشرف بقبول لإشراف على بحثي هذا والذي منحني من أغلى أوقاته لتصحيح رسالتي فقابلي دائماً بسعة الصدر والسرور ورحب بي في كل وقت وحين ، فاستفدت منه علماً وأخلاقاً ، فجزاه الله تعالى عني خير الجزاء ، سائلاً المولى سبحانه وتعالى أن يجعل ما بذله في ميزان حسناته يوم القيامة .

واسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقني لما يحبه ويرضاه إنه سميع قريب مجيب .

الطالب :

ولي زار بن شاه زالدين

٢٠٠٨/٤/١٠ م

فهرس الموضوعات

الصفحة	الرقم
ب	٠١ الإهداء
ت	٠٢ شكر وتقدفم
ث-ش	٠٣ الفهرس
١٢-١	٠٤ المقدمة
٢٤-١٣	٠٥ التمهفد : وفشتمل على حياة الشفخ إسماعفل حقف :
١٤	٠٦ ١- اسمه ونسبه
١٥	٠٧ ٢- مولده
١٦-١٥	٠٨ ٣- نشأته
٢٠-١٧	٠٩ ٤- رحلته
٢٠-١٩	٠١٠ ٥- الشفخ إسماعفل حقف بعد استقراره فف "بروسه"
٢٠-١٩	٠١١ من أعماله فف "بروسه"
٢١-٢٠	٠١٢ ٧- ثناء العلماء عليه .
٢٢-٢١	٠١٣ ٨- شفوخه .
٢٤-٢٢	٠١٤ ٩- مؤلفاته .
٢٠٤-٢٥	٠١٥ الباب الأول - مدخل إلى دراسة منهج إسماعفل حقف فف التفسفر الإشارف
١٧٤-٢٦	٠١٦ الفصل الأول - مفهوم التفسفر الإشارف وأنواعه
٤٧-٢٧	٠١٧ المبحث الأول - التعرفف بالتفسفر الإشارف
٣٦-٢٨	٠١٨ المطلب الأول - تعرفف التفسفر والتأوفل والفرق بفنهما
٢٨	٠١٩ أولاً - تعرفف التفسفر

٢٩-٢٨	(أ) - التفسير في اللغة	.٢٠
٣٠-٢٩	(ب) - تعريف التفسير في الإصطلاح	.٢١
٣١-٣٠	ثانياً - تعريف التأويل	.٢٢
٣١-٣٠	(أ) - في اللغة	.٢٣
٣٣-٣٢	(ب) - تعريف التأويل في الاصطلاح	.٢٤
٣٦-٣٣	ثالثاً - الفرق بين التفسير والتأويل والنسبة بينهما	.٢٥
٣٩-٣٧	المطلب الثاني - التصوف ، ومدى أثره على التفسير الإشاري	.٢٦
٣٩-٣٧	أولاً - أصل كلمة التصوف	.٢٧
٤٢-٤٠	ثانياً - تعريف التصوف ، ونشأته وتطوره	.٢٨
٤٢-٤٠	(أ) - تعريف التصوف	.٢٩
٤٧-٤٢	(ب) - نشأة التصوف وتطوره في الفكر الإسلامي	.٣٠
٤٨-٤٧	ثالثاً - أقسام التصوف	.٣١
٦٨-٤٨	المبحث الثاني - التفسير الصوفي النظري	.٣٢
٤٩	المطلب الأول - تعريفه	.٣٣
٤٩	المطلب الثاني - تأصيله	.٣٤
٥٦-٥٠	المطلب الثالث - ابن عربي وموقف العلماء منه	.٣٥
٥٨-٥٦	المطلب الرابع - ابن عربي رائد التفسير الصوفي النظري ، ومدى تأثيره بالنظريات الفلسفية وأمثله	.٣٦
٦٢-٥٨	المطلب الخامس - وحدة الوجود و ابن عربي	.٣٧
٦٦-٦٣	المطلب السادس - تأثير ابن عربي في تفسيره بنظرية وحدة الوجود ونماذج ذلك	.٣٨
٦٨-٦٦	المطلب السابع - قياسه الغائب على الشاهد	.٣٩
٦٨	المطلب الثامن - إخضاع ابن عربي قواعد النحو لنظرياته الصوفية	.٤٠

٧٧-٦٩	المبحث الثالث - التفسير الصوفي النظري في الميزان	.٤١
٨٣-٧٨	المبحث الرابع - التفسير الصوفي الإشاري أو الفيضي	.٤٢
٨٠-٧٩	المطلب الأول - تعريف الإشارة و أنواعها	.٤٣
٧٩	(أ) - في اللغة :	.٤٤
٨٠	(ب) - والإشارة في الإصطلاح	.٤٥
٨٠	(ج) - أنواع الإشارة	.٤٦
٨٣-٨٠	المطلب الثاني - تعريف التفسير الإشاري	.٤٧
٩٩-٨٤	المبحث الخامس - آراء العلماء في التفسير الإشاري	.٤٨
٨٧-٨٥	المطلب الأول - آراء المانعين	.٤٩
٩٤-٨٧	المطلب الثاني - آراء القائلين بالتفسير الإشاري وأدلتهم	.٥٠
٨٧	الدليل الأول - إشارة القرآن إلى التفسير الإشاري	.٥١
٨٨	الدليل الثاني - من السنة النبوية	.٥٢
٩٥	الدليل الثالث - أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - و أحوالهم	.٥٣
-١٠٠ ١٠٩	المبحث السادس - شروط قبول التفسير الإشاري	.٥٤
-١١٠ ١٤٢	المبحث السابع - التفسير الإشاري في ضوء شروط القبول والرد	.٥٥
١١١	المطلب الأول - التفسير الإشاري المرود ونماذجه	.٥٦
١٢٤	المطلب الثاني - التفسير الإشاري المقبول ونماذجه	.٥٧
-١٤٣ ١٤٧	المبحث الثامن - الفرق بين التفسير الإشاري والباطني والنظري	.٥٨
١٤٤	المطلب الأول - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني	.٥٩
١٤٧	المطلب الثاني - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير النظري	.٦٠

١٤٨-	المبحث التاسع - أهم كتب التفسير الإشاري	.٦١
١٧٤		
١٧٥-	الفصل الثاني : نظرة في مناهج المفسرين و وصف مجمل لـ	.٦٢
٢٠٤	"روح البيان"	
١٧٦	المبحث الأول - نظرة في مناهج المفسرين	.٦٣
١٨٣	المطلب الأول - التفسير بالمأثور	.٦٤
١٨٤	المطلب الثاني - التفسير بالرأى	.٦٥
١٨٦	١- المنهج اللغوي	.٦٦
١٨٨	٢- المنهج العقدي	.٦٧
١٩٠	٣- المنهج الفقهي	.٦٨
١٩١	٤- المنهج الباطني	.٦٩
١٩٢	٥- المنهج الفلسفي	.٧٠
١٩٣	٦- المنهج العلمي	.٧١
١٩٥	٧- منهج اللون الأدبي الاجتماعي	.٧٢
١٩٧-	المبحث الثاني - وصف مجمل لـ "روح البيان"	.٧٣
٢٠٤		
١٩٨	المطلب الأول - سبب تأليفه	.٧٤
٢٠٠	المطلب الثاني - منهج روح البيان العام	.٧٥
٢٠٥-	الباب الثاني منهج إسماعيل حقي في التفسير الإشاري	.٧٦
٢٦٨		
٢٠٦	الفصل الأول - التفسير الإشاري عند إسماعيل حقي	.٧٧
٢٠٧	التمهيد - تعريف إسماعيل حقي للتفسير الإشاري	.٧٨
٢٠٨-	المبحث الأول - مسائل لم يلتزم فيها بضوابط قبول التفسير	.٧٩

٢٣٢	الإشاري	
٢٠٩	المطلب الأول - تحميله الآيات القرآنية لما لا تحتمله .	.٨٠
٢١٣	المطلب الثاني - مسألة الظاهر والباطن .	.٨١
٢١٤	المطلب الثالث - مسألة الشريعة والطريقة والحقيقة .	.٨٢
٢١٥	المطلب الرابع - مسألة تقسيم المؤمنين إلى عوام ، وخواص ، وخواص الخواص .	.٨٣
٢١٦	المطلب الخامس - معالجته لفواتح السور .	.٨٤
٢١٩	المطلب السادس - إشاراته الخاصة لما يتعلق بالقصص القرآني .	.٨٥
٢٢٣	المطلب السابع - قدحه في العلماء . "أهل الظاهر" .	.٨٦
٢٢٥	المطلب الثامن - استخدامه للمصطلحات الأجنبية الدخيلة ذات البعد الديني .	.٨٧
٢٢٧	المطلب التاسع - التأثيرات الفلسفية المنحرفة .	.٨٨
٢٢٩	المطلب العاشر - توجيه إسماعيل حقي لبعض الروايات الإسرائيلية توجيهها إشاريا	.٨٩
-٢٣٣	المبحث الثاني - ما التزم فيه بضوابط قبول التفسير الإشاري	.٩٠
٢٣٩		
٢٣٤	المطلب الأول - استدلاله بالمأثور	.٩١
		.٩٢
٢٣٥	المطلب الثاني - استدلاله بالرأي	.٩٣
-٢٤٠	الفصل الثاني - موقف إسماعيل حقي من المنهج العملي	.٩٤
٣٠٠	الصوفي في تفسيره	
-٢٤٠	المبحث الأول - الصحبة ، الشيخ والمرید وموقف حقي منها	.٩٥
٢٥٥		

٢٤٠	المطلب الأول : الصحبة	٩٦.
٢٤٢	أهميتها وفائدتها وآثارها وموقف حقي منها	٩٧.
٢٤٥	الدليل على أهمية الصحبة من كتاب الله تعالى	٩٨.
٢٤٦	الدليل على أهميتها من الأحاديث الشريفة	٩٩.
٢٤٨	المطلب الثاني - الشيخ والمريد	١٠٠.
٢٥٣	المطلب الثالث - موقف إسماعيل حقي من مسألة الشيخ والمريد	١٠١.
-٢٥٦	المبحث الثاني - الذكر وموقف إسماعيل حقي منه	١٠٢.
٢٧١		
٢٥٧	المطلب الأول - تمهيد ، ومعاني كلمة الذكر ، ومكانته	١٠٣.
٢٦٠	المطلب الثاني - أقسام الذكر عند إسماعيل حقي	١٠٤.
٢٦٧	المطلب الثالث - ألفاظ الذكر وصيغه	١٠٥.
٢٦٧	المطلب الرابع - حكم الذكر بالاسم المفرد [الله] وكلمة "هو"	١٠٦.
-٢٧١	المبحث الثالث : المقامات وموقف حقي منها	١٠٧.
٢٩٢		
٢٧٢	المطلب الأول - تعريف المقام لغة واصطلاحاً	١٠٨.
٢٧٥	المطلب الثاني - موقف إسماعيل حقي منها	١٠٩.
-٢٩٣	المبحث الرابع - موقف إسماعيل حقي من الخلوة	١١٠.
٣٠٠		
	المطلب الأول - تعريفها وطريقتها	١١١.
٢٩٦	المطلب الثاني - مشروعيتها بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية	١١٢.
٢٩٨	المطلب الثالث - أقوال العلماء في أهمية الخلوة وفوائدها	١١٣.

٢٩٩	المطلب الرابع - موقف إسماعيل منها	١١٤
-٣٠١	الفصل الثالث : موقف إسماعيل حقي من بعض القضايا الصوفية	١١٥
٤٤٧	الهامة الأخرى	
-٣٠٢	المبحث الأول - موقف حقي (رحمه الله) من الأولياء ، والأقطاب ،	١١٦
٣٣٣	وكراماتهم	
٣٠٣	التمهيد	١١٧
٣٠٣	المطلب الأول - الولاية والكرامة	١١٨
-٣٠٣	١- تعريف الولاية والولي في اللغة والاصطلاح	١١٩
٣٠٥		
٣٠٥	٢- كرامات الأولياء	١٢٠
٣٠٦	٣- الفرق بين الكرامة والاستدراج	١٢١
٣٠٦	٤- الفرق بين الكرامة والمعجزة	١٢٢
٣٠٦	المطلب الثاني - الولاية عند الشيعة وغلاة الصوفية	١٢٣
٣٠٧	المطلب الثالث - تعريف إسماعيل حقي للولي والكرامة	١٢٤
٣٠٧	أولاً - تعريف إسماعيل حقي للولي	١٢٥
٣٠٩	ثانياً - تعريف إسماعيل حقي للكرامة	١٢٦
٣١١	المطلب الرابع - موقف إسماعيل حقي من الأولياء والأقطاب	١٢٧
٣١١	تمهيد	١٢٨
٣١١	الأولى - تقسيم إسماعيل حقي للولاية	١٢٩
٣١٢	الثانية - صفات الولي	١٣٠
٣١٣	الثالثة - تطور الولي وتواجده بأماكن مختلفة في آن واحد	١٣١

٣١٥	الرابعة - اعتقاد حقي - عليه الرحمة - بأن الأولياء محفوظون ونتائج ذلك	١٣٢
٣١٥	المسلك الأول - التصريح بعصمة الأولياء	١٣٣
٣١٥	المسلك الثاني - التكني بعصمة الأولياء تسميتها حفظاً	١٣٤
٣١٨	المطلب الخامس - الأقطاب : أنواعهم ، عددهم ، بعض صفاتهم ، ووظائفهم في الفكر الصوفي وموقف حقي منهم	١٣٥
٣١٨	الأولى - تعريف القطب لغة واصطلاحاً	١٣٦
٣١٩	الثانية - أنواع الأقطاب	١٣٧
٣٢٠	الثالثة - حفظ العالم بالقطب	١٣٨
٣٢١	الرابعة - عدد الأقطاب	١٣٩
٣٢٢	الخامسة - أدلة حقي - رحمه الله - ومناقشته في ذلك	١٤٠
٣٣٠	السادسة - بعض مواصفات القطب وأعوانه	١٤١
٣٣١	السابعة - بعض وظائف الأقطاب في الفكر الصوفي	١٤٢
٣٣٤ -	المبحث الثاني - موقف حقي من اعتقاد مقابلة النبي (صلى الله عليه وسلم) وغيره من الأنبياء (عليه السلام) والأولياء (رضي الله عنه) يقظة بعد رحلتهم	١٤٣
٣٥٧		
٣٣٥	المطلب الأول - تعريف الرجعة لغة واصطلاحاً	١٤٤
٣٣٩	المطلب الثاني - الشيطان لا يتمثل بصورة الكمل من الأولياء	١٤٥
٣٣٩	المطلب الثالث - اعتقاد إسماعيل حقي في النبي (صلى الله عليه وسلم) ، بأنه ما زال يعطي بعض المعارف والتشريعات لمن يشاء من عباده	١٤٦
٣٥٧	المطلب الرابع - أحيائه (صلى الله عليه وسلم) أبويه وعمه وإيمانهم به (صلى الله عليه وسلم) .	١٤٧

١٤٨	المبحث الثالث - الحقيقة المحمدية وموقف إسماعيل حقي منها	٣٥٨ -
		٣٩٠
١٤٩	التمهيد : فكرة الشخصية في التصوف	٣٥٩
١٥٠	المطلب الأول - الحقيقة المحمدية عند المتصوفة	٣٦٠
١٥١	(١) الحقيقة المحمدية عند الحلاج	٣٦٠
١٥٢	(٢) الحقيقة المحمدية عند ابن عربي	٣٦١
١٥٣	(٣) القطب أو الحقيقة المحمدية عند ابن الفارض	٣٦٣
١٥٤	المطلب الثاني - موقف حقي من الحقيقة المحمدية	٣٦٥
١٥٥	التمهيد	٣٦٥
١٥٦	الأولى - اعتقاده بأن الرسول أول مخلوق ، وأنه خلق من نور ، وأدلته في ذلك والرد عليه	٣٦٥
١٥٧	الثانية - اعتقاده بأن الكون خلق من نور محمد ويقي ببقائه - صلى الله عليه وسلم - والرد عليه	٣٧٥
١٥٨	الثالثة - اعتقاده بأن الكون ومن فيه خلق من أجل محمد (صلى الله عليه وسلم) وأن ظاهره خلق وباطنه حق ، وهو مظهر الصفات الإلهية ، والرد عليه	٣٨٧
١٥٩	المبحث الرابع - عقيدة الحلول ، ووحدة الوجود ، والاتحاد ، والفناء ، ووحدة الشهود ، وموقف إسماعيل حقي منها	٣٩١
١٦٠	المطلب الأول - تعريف الحلول ، ووحدة الوجود ، والاتحاد لغة واصطلاحاً	٣٩٢
١٦١	المطلب الثاني - الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية	٣٩٤
١٦٢	المطلب الثالث - نظرية الاتحاد عند الصوفية	٣٩٩

٤٠٣	المطلب الرابع - نظرية الفناء عند الصوفية	١٦٣
٤٠٣	أ) تعريف الفناء لغة واصطلاحاً	١٦٤
٤٠٥	ب) الفناء عند الصوفية	١٦٥
٤١١	المطلب الخامس - وحدة الشهود عند الصوفية	١٦٦
٤١٤	المطلب السادس - موقف إسماعيل حقي من الحلول ، ووحدة الوجود والاتحاد والفناء ، ووحدة الشهود	١٦٧
٤١٤	الأولى - الحلول	١٦٨
٤١٤	الثانية - وحدة الوجود	١٦٩
٤١٧	الثالثة - الاتحاد ، والفناء ، ووحدة الشهود	١٧٠
٤١٨ -	المطلب السابع - موقفنا من عقيدة الحلول ، ووحدة الوجود ، والاتحاد ، والفناء ووحدة الشهود	١٧١
٤٢٤		
٤٢٥ -	المبحث الخامس - الكشف وحقيقته وموقف إسماعيل حقي منه	١٧٢
٤٣٦		
٤٢٦	تمهيد - تعريف الكشف لغة واصطلاحاً	١٧٣
٤٢٧	المطلب الأول - حقيقة الكشف	١٧٤
٤٣٠	المطلب الثاني - منهج الصوفية في الكشف	١٧٥
٤٣٣	المطلب الثالث - موقف إسماعيل حقي من الكشف	١٧٦
٤٣٧ -	المبحث السادس - الإلهام ؛ وموقف إسماعيل منه	١٧٧
٤٤٧		
٤٣٨	المطلب الأول - تعريف الإلهام	١٧٨
٤٣٩	المطلب الثاني - الإلهام عند الصوفية	١٧٩

٤٤٠	المطلب الثالث - موقف إسماعيل حقي من الإلهام	١٨٠
٤٤٢	المطلب الرابع - موقف العلماء من الإلهام	١٨١
٤٤٦	المبحث السابع - موقف إسماعيل حقي (رحمه الله) من التوحيد	١٨٢
٤٤٨ -	الفصل الرابع - تقويم "الجانب الإشاري في تفسير روح البيان"	١٨٣
٤٦٩	لإسماعيل حقي	
٤٤٩	تمهيد	١٨٤
٤٤٩	المبحث الأول - الجوانب الإيجابية في تفسيره الإشاري	١٨٥
٤٥١	المبحث الثاني - الجوانب السلبية	١٨٦
٤٥٥	المبحث الثالث - أهم مصادر إسماعيل حقي في تفسيره الإشاري	١٨٧
٤٦٩ -	الخاتمة	١٨٨
٤٧٧		
٤٧٨	الفهارس	١٨٩
٤٧٩	أولاً - فهرس الآي القرآنية	١٩٠
٥٠٤	ثانياً - فهرس الأحاديث النبوية	١٩١
٥٠٩	ثالثاً - فهرس الأعلام المترجم لهم	١٩٢
٥١٢	رابعاً - فهرس الأبيات الشعرية	١٩٣
٥١٣	خامساً - فهرس البلدان والأماكن	١٩٤
٥١٣	سادساً - فهرس الفرق والطوائف	١٩٥
٥١٤	سابعاً - فهرس المفردات والمصطلحات الغامضة	١٩٦
٥١٦	ثامناً - فهرس المصادر والمراجع	١٩٧

مقدمة البحث

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

❖ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)

❖ ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

وَوَسَّاتُ بَيْنَهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله - عزوجل - وخير الهدي هدي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار^(٣).

أولاً - أسباب اختيار الموضوع وأهميته

وكان اختياري لهذا الموضوع - الجانب الإشاري في تفسير روح البيان

لإسماعيل حقي - يرجع لأسباب ؛ منها :

١ . مكانة الكتاب بين كتب التفسير الإشاري ؛ وسعة علم صاحبه ، فقد وفقه

الله تعالى للجمع بين علوم الرواية والدراية وإضافة إلى احتوائه على

نصوص كثيرة من تفسير نجم الدين الداية .

٢ . دفاعه عن أهل السنة والجماعة ، مستميتاً .

(١) - سورة آل عمران ، الآية : (١٠٢) .

(٢) - سورة النساء ، الآية : (١) .

(٣) - هذه الخطبة معروفة بخطبة الحاجة ، رواها الأربعة ، وأحمد ، والدارمي ، وحسنه الترمذي ، وصححه الألباني . أبو

داود : كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح ، والترمذي : في النكاح ، والنسائي : في الجمعة باب كيفية الخطبة ، وفي

النكاح وابن ماجه : في النكاح ، باب خطبة النكاح ، وأحمد (٣٩٢/١ - ٣٩٣) ، وسنن الدارمي (١٤٢/٢) .

٣. استخدام المؤلف (رحمه الله) أساليب عديدة في مجال التربية والتزكية ،
التي نحن بحاجة ماسة إليها .

٤. إن التفسير ، لا سيما الجانب الإشاري منه لم يعطه الباحثون حقه ؛ فهو
كتر مدفون يحتاج إلى من يخرج به حتى يستفيد منه المسلمون عامة وشباب
الصحة المباركة خاصة . لأن التجارب الأخيرة تثبت أنه ليس من الممكن
أن تنجح أية صحة إسلامية دون أن تحتوي ضمن نشاطاتها على علوم
تطهير النفس وقيادة مصبوغة بخوف عميق من الله .

٥. ويستهدف هذا البحث إلى إثبات التصوف المقبول في القرآن الكريم من
المعارف الإلهية ، ورياضة النفوس ، وتنوير القلوب ، وتطهيرها باكتساب
الأخلاق الحميدة ، واجتناب الأخلاق الذميمة .

٦. ويعالج البحث كذلك موضوعاً هاماً هو : تفسير القرآن الكريم على طريقة
أرباب المجاهدات والأحوال ، وهو منهج نادر وجديد تحتاج إليه المكتبة
العربية والإسلامية ، مقارناً بغيره من المناهج والاتجاهات التفسيرية .

٧. ويزيل هذا البحث ما التبس على البعض من أن مذاقات الصوفية في القرآن
نزعة باطنية ، ويثبت الفرق بين هذين الأمرين ؛ معلناً أن الصوفية الصافية
بريئون منها. ويتضح ذلك من أنهم يأخذون بالباطن بعد الأخذ بالظاهر ،
ويقرون الحقيقة بعد الأخذ بالشرعية . ويرون أن الحقيقة نفسها أساسها
الشرعية ، فالفرق بينهما - إذن - كبير ، والبون بينهما شاسع جدا .

٨. لا شك أن مذهب التصوف من المذاهب المنتشرة في عالمنا الإسلامي
الواسع ، وقد دونت كتب كثيرة فيه ، وأن أثره على التفسير أمرٌ ثابت ،
لأننا نجد عدداً كبيراً من التفاسير كتبت متأثرة بهذا المذهب . وقد تنوعت
وتضاربت آراء العلماء في تقويم التفسير الإشاري أخذاً ورداً ، ومن هنا
ظهر لي أن أدرس هذه القضية غير محايد إلى هؤلاء وأولئك .

٩. وأخيراً ، إن هذا الموضوع جزء من تراث الأمة الإسلامية ، فيجب على أبنائها أن يهتموا بإحيائه لأن أسلافهم أفنوا فيه أعمارهم .

ثانياً — منهجي في البحث :

الاعتماد على المنهج العقلي حيث لا أملك الذوق الصوفي ، مراعيًا في ذلك قواعد البحث العلمي ، وهو منهج وصفي واستقرائي قائم على تتبع النصوص ، ويمكن إبراز هذا المنهج في النقاط التالية :

(١) — لقد بذلت في البداية ما كان في وسعي من الجهد في البحث والتقصي

والاستقراء والاطلاع على الكتب المهمة بالتصوف قديمة وحديثة .

(٢) — قمت بالاطلاع على كتب التراجم التاريخية الصوفية ومصنفاتهم القديمة

والحديثة ما أمكن .

(٣) — قمت بتقرير المسائل الصوفية من مؤلفاتهم وأقوال أعلامهم .

(٤) — قمت بتوثيق ما أنقله من كلام العلماء غالباً ؛ وذلك بعزوه إلى مواضعه

في مصنفاتهم إن وجدت ، أو من الكتب المعتمدة التي تهتم بنقل آثارهم .

(٥) — عزوت الآيات القرآنية في البحث إلى مواضعها من القرآن بذكر اسم

السورة ورقم الآية .

(٦) — خرّجت الأحاديث النبوية بذكر الكتاب والباب .

(٧) — حاولت شرح الكلمات الغامضة .

(٨) — عرّفت غالباً الفرق والطوائف والأسماء والأماكن المجهولة الواردة في

البحث .

(٩) — ترجمت للأعلام الواردة في ثنايا البحث ترجمة موجزة ما أمكن ذلك .

(١٠) — نظّمت عدداً من الفهارس التي رأيت إليها حاجة ماسة تسهيلاً على

القارئ ؛ وهي :

أ — فهرس الآي القرآنية مرتباً حسب ترتيب سور القرآن .

ب — فهرس الأحاديث النبوية مرتباً حسب الحروف الهجائية من طرف الحديث.

ت — فهرس الأعلام المترجم لهم مرتباً حسب الحروف الهجائية .

ث — فهرس الآيات الشعرية مرتباً حسب الحروف الهجائية .

ج — فهرس البلدان والأماكن مرتباً حسب الحروف الهجائية .

ح — فهرس الفرق والطوائف مرتباً حسب الحروف الهجائية .

خ — فهرس المفردات والمصطلحات الغامضة مرتباً حسب الحروف الهجائية.

د — فهرس المصادر والمراجع مرتباً حسب الحروف الهجائية لاسم المؤلف .

ذ — وأخيراً فهرس الموضوعات .

ثالثاً — الدراسات السابقة للموضوع :

لقد عثرت على جملة من الكتب والبحوث التي لها علاقة ، ولو من بعيد بموضوع بحثي فأحببت أن أشير إليها :

١ — اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري للدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي ، والكتاب ضخيم ، ويقع في ثلاثة مجلدات من القطع الكبير .

٢ — التفسير والمفسرون : للدكتور محمد حسين الذهبي ويقع في المجلدين الكبيرين ، وهو من أهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع ولكن في التفاسير الإشارية الأخرى غير هذا التفسير .

٣ — مقدمة تفسير "لطائف الإشارات" : للقشيري ، تحقيق وتعليق : الدكتور إبراهيم بسيوني .

رابعاً — أهم المصادر التي اعتمدت عليها

اعتمدت في كتابة هذا البحث على "التفسير والمفسرون" : للدكتور الذهبي، وكتب التصوف قديماً وحديثاً "كقوت القلوب" لأبي طالب المكي، و "اللمع" : للسراج الطوسي، و"التعرف لمذهب أهل التصوف" للكلابازي ، و"الرسالة القشيرية" و"عوارف المعارف" للسهروردي ، و"إحياء العلوم" للإمام الغزالي ، و"تلبيس إبليس" لجمال الدين أبو الفرج ، و"الفتوحات المكية" لابن عربي ، و"التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق" لذكي المبارك، و"حقيقة التصوف" للشيخ عبدالحليم محمود ، و"فصول في التصوف" للدكتور حسن الشافعي ، و"الإعتصام" للشاطبي ، ومقدمة ابن خلدون ، و"هدية العارفين" لإسماعيل باشا وغيرها .

خامساً — خطة البحث

قسمت هذا البحث إلى مقدمة ، وتمهيد ، وباين ، وخاتمة .

أما المقدمة فتشتمل على ما يلي :

أولاً — أسباب اختيار الموضوع وأهميته

ثانياً — منهجي في البحث

ثالثاً — الدراسات السابقة للموضوع

رابعاً — أهم المصادر التي اعتمدت عليها

وأما التمهيد فيشتمل على الآتي :

حياة الشيخ إسماعيل حقي

١ . اسمه ونسبه .

٢ . مولده .

٣ . نشأته .

٤ . رحلاته .

٥ . الشيخ إسماعيل حقي بعد استقراره في البروسه .

٦ . ثناء العلماء عليه .

٧ . شيوخه .

٨ . مؤلفاته .

وأما الباب الأول -- مدخل إلى دراسة منهج الشيخ إسماعيل حقي في التفسير
الإشاري ؛

وفيه فصلان :

الفصل الأول - مفهوم التفسير الإشاري وأنواعه ؛ وفيه تسعة مباحث :

المبحث الأول - التعريف بالتفسير الإشاري ؛ وفيه مطلبان :

المطلب الأول - تعريف التفسير والتأويل والفرق بينهما

المطلب الثاني - التصوف ومدى أثره على التفسير الإشاري

المبحث الثاني - التفسير الصوفي النظري ؛ وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول - تعريفه

المطلب الثاني - تأصيله

المطلب الثالث - ابن عربي وموقف العلماء منه

المطلب الرابع - ابن عربي رائد التفسير الصوفي النظري ، ومدى تأثيره بالنظريات

الفلسفية وأمثله

المطلب الخامس - وحدة الوجود وابن عربي

المطلب السادس - تأثير ابن عربي في تفسيره بنظرية وحدة الوجود ونماذج ذلك

المطلب السابع - قياسه الغائب على الشاهد

المطلب الثامن - إخضاع ابن عربي قواعد النحو لنظرياته الصوفية

المبحث الثالث - التفسير الصوفي النظري في الميزان

المبحث الرابع - التفسير الصوفي الإشاري أو الفيضي وفيه مطلبان :

المطلب الأول - تعريف الإشارة و أنواعها

المطلب الثاني - تعريف التفسير الإشاري

المبحث الخامس - آراء العلماء في التفسير الإشاري ؛ وفيه مطلبان :

المطلب الأول - آراء المانعين

المطلب الثاني - آراء القائلين بالتفسير الإشاري وأدلتهم

الدليل الأول : إشارة القرآن إلى التفسير الإشاري

الدليل الثاني - من السنة النبوية

الدليل الثالث - أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - وأحوالهم

المبحث السادس - شروط قبول التفسير الإشاري

المبحث السابع - التفسير الإشاري في ضوء شروط القبول والرد ؛ وفيه مطلبان :

المطلب الأول - التفسير الإشاري المرذود ونماذجه

المطلب الثاني - التفسير الإشاري المقبول ونماذجه

المبحث الثامن - الفرق بين التفسير الإشاري والباطني والنظري ؛ وفيه مطلبان :

المطلب الأول - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني

المطلب الثاني - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الصوفي النظري

المبحث التاسع - أهم كتب التفاسير الإشاري

الفصل الثاني - نظرة في مناهج المفسرين ووصف مجمل لـ "روح البيان" ؛ وفيه

مبحثان:

المبحث الأول - نظرة في مناهج المفسرين ؛ وفيه :

المطلب الأول - التفسير بالمأثور

المطلب الثاني - التفسير بالرأي ؛ وفيه :

(١) - المنهج اللغوي

(٢) - المنهج العقدي

(٣) - المنهج الفقهي

(٤) - المنهج الباطني

(٥) - المنهج الفلسفي

(٦) - المنهج العلمي

(٧) - منهج اللون الأدبي الاجتماعي

المبحث الثاني - وصف مجمل لـ "روح البيان" ؛ وفيه مطلبان :

المطلب الأول - سبب تأليفه

المطلب الثاني - منهج روح البيان العام

الباب الثاني - منهج إسماعيل حقي في التفسير الإشاري ؛ وفيه أربعة فصول على

النحو التالي :

الفصل الأول - التفسير الإشاري عند إسماعيل حقي ؛ وفيه تمهيد ومبحثان :

التمهيد : تعريف إسماعيل حقي للتفسير الإشاري

المبحث الأول - مسائل لم يلتزم فيها بضوابط قبول التفسير الإشاري ؛ وفيه هذه

المطالب :

المطلب الأول - تحميلة الآيات القرآنية لما لا تحتمله .

المطلب الثاني - مسألة الظاهر والباطن .

المطلب الثالث - مسألة الشريعة والطريقة والحقيقة .

المطلب الرابع - مسألة تقسيم المؤمنين إلى عوام ، وخواص ، وخواص الخواص .

المطلب الخامس - معالجته لفواتح السور .

المطلب السادس - إشاراته الخاصة لما يتعلق بالقصص القرآني .

المطلب السابع - قدحه في العلماء "أهل الظاهر" .

المطلب الثامن - استخدامه للمصطلحات الأجنبية الدخيلة ذات البعد الديني .

المطلب التاسع - التأثيرات الفلسفية المنحرفة .

المطلب العاشر - توجيه إسماعيل حقي لبعض الروايات الإسرائيلية توجيهها إشارياً

المبحث الثاني : مسائل التزام فيها بضوابط قبول التفسير الإشاري ؛ وفيه هذه المطالب :

المطلب الأول - الإستدلال بالقرآن الكريم .

المطلب الثاني - الإستدلال بالسنة النبوية .

المطلب الثالث - الإستدلال بأقوال الصحابة .

المطلب الرابع - الإستعانة ببعض القواعد اللغوية .

الفصل الثاني - موقف إسماعيل حقي من المنهج العملي الصوفي في تفسيره ؛ وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول - الصحبة، الشيخ، والمريد وموقف حقي منها ؛ وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول - الصحبة ؛ وفيه مسائل تالية :

المطلب الثاني - الشيخ والمريد

المطلب الثالث - موقف إسماعيل حقي من مسألة الشيخ والمريد

المبحث الثاني - الذكر وموقف إسماعيل حقي منه ؛ وفيه مطالب آتية :

المطلب الأول : التمهيد ، ومعاني كلمة الذكر ، ومكانته

المطلب الثاني - أقسام الذكر عند إسماعيل حقي

المطلب الثالث - ألفاظ الذكر وصيغته

المطلب الرابع - حكم الذكر بالاسم المفرد [الله] وكلمة "هو"

المبحث الثالث - المقامات وموقف إسماعيل حقي منها ؛ وفيه مطلبان :

المطلب الأول - تعريف المقام لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني - موقف إسماعيل حقي منها

المبحث الرابع - موقف إسماعيل من الخلوة ؛ وفيه المطالب الأربعة الآتية :

المطلب الأول - تعريفها وطريققتها

المطلب الثاني - مشروعيتها بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية

المطلب الثالث - أقوال العلماء في الخلوة وفوائدها

المطلب الرابع - موقف إسماعيل حقي منها

الفصل الثالث - موقف إسماعيل حقي من بعض القضايا الصوفية الهامة الأخرى ؛

وفيه المباحث السبعة التالية :

المبحث الأول - موقف إسماعيل حقي من الأولياء ، والأقطاب ، وكراماتهم ؛ وفيه

تمهيد والمطالب الخمسة التالية:

المطلب الأول - الولاية والكرامة ؛ وفيه مسائل

المطلب الثاني - الولاية عند الشيعة وغلاة الصوفية

المطلب الثالث - تعريف إسماعيل حقي للولي وللكرامة

المطلب الرابع - موقف إسماعيل حقي من الأولياء والأقطاب

المطلب الخامس - الأقطاب : أنواعهم ، عددهم ، بعض صفاتهم ، و وظائفهم في

الفكر الصوفي وموقف حقي منهم

المبحث الثاني - موقف إسماعيل حقي من اعتقاد مقابلة النبي - صلى الله عليه

وسلم - وغيره من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - والأولياء - رضي الله عنهم -

يقظة بعد رحلتهم ؛ وفيه المطالب الأربعة التالية :

المطلب الأول - التمهيد ؛ تعريف الرجعة لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني - الشيطان لا يتمثل بصور الكمل من الأولياء

المطلب الثالث - اعتقاد إسماعيل حقي في النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه ما زال

يعطي بعض المعارف والتشريعات لمن يشاء من عباده

المطلب الرابع - أحيائه - صلى الله عليه وسلم - أبويه وعمه وإيمانهم به

المبحث الثالث - الحقيقة المحمدية وموقف إسماعيل حقي منها ؛ وفيه تمهيد والثلاثة
المطالب القادمة :

التمهيد : فكرة الشخصية في التصوف

المطلب الأول - الحقيقة المحمدية عند المتصوفة

١ - الحقيقة المحمدية عند الحلّاج

٢ - الحقيقة المحمدية عند ابن عربي والرد عليه

٣ - القطب أو الحقيقة المحمدية عند ابن الفارض

المطلب الثاني - موقف إسماعيل حقي عن الحقيقة المحمدية ؛ وفيه تمهيد والمسائل
التالية :

(الأولى) - اعتقاده بأن الرسول أول مخلوق ، وأنه خلق من نور ،
وأدلته في ذلك والرد عليه :

(الثانية) - اعتقاده بأن الكون خلق من نور محمد - صلى الله عليه وسلم -
ويبقى بقاءه والرد على ذلك

(الثالثة) - اعتقاده بأن الكون ومن فيه خلق من أجل محمد - صلى الله عليه
وسلم- ، وأن ظاهره خلق وباطنه حق ، وهو مظهر الصفات الإلهية ، والرد عليه

المبحث الرابع - عقيدة الحلول ، و وحدة الوجود ، والاتحاد ، والفناء ، ووحدة
الشهود ، وموقف إسماعيل حقي منها ؛ وفيه تمهيد والمطالب السبعة التالية :

التمهيد :

المطلب الأول - تعريف الحلول ، و وحدة الوجود ، والاتحاد لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني - الحلول و وحدة الوجود عند الصوفية

المطلب الثالث - نظرية الإتحاد عند الصوفية

المطلب الرابع - نظرية الفناء عند الصوفية

المطلب الخامس - وحدة الشهود عند الصوفية

المطلب السادس - موقف إسماعيل حقي عن الحلول ، و وحدة الوجود والاتحاد
والفناء ، ووحدة الشهود

المطلب السابع - موقفنا من عقيدة الحلول ، و وحدة الوجود ، والاتحاد ، والفناء و
وحدة الشهود

المبحث الخامس - منهج الصوفية في الكشف وموقف إسماعيل حقي منه ؛ وفيه :

تمهيد : تعريف الكشف لغة واصطلاحاً

المطلب الأول - حقيقة الكشف

المطلب الثاني - منهج الصوفية في الكشف

المطلب الثالث - موقف إسماعيل حقي من الكشف

المبحث السادس - الإلهام ، موقف إسماعيل حقي منه ؛ وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول - تعريف الإلهام

المطلب الثاني - الإلهام عند الصوفية

المطلب الثالث - موقف إسماعيل حقي من الإلهام

المطلب الرابع - موقف العلماء من الإلهام

المبحث السابع - موقف إسماعيل حقي - عليه الرحمة - تجاه التوحيد

الفصل الرابع - تقويم "الجانب الإشاري في تفسير روح البيان" لإسماعيل حقي ؛

ويحتوي على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول - الجوانب الإيجابية في تفسيره الإشاري

المبحث الثاني - الجوانب السلبية

المبحث الثالث - أهم مصادر إسماعيل حقي في تفسيره الإشاري

وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ، وما بدا

لي من توصيات .

تمهيد

ويشتمل على :

حياة الشيخ إسماعيل حقي :

- (١) اسمه ونسبه .
- (٢) مولده .
- (٣) نشأته .
- (٤) رحلاته .
- (٥) الشيخ إسماعيل حقي بعد استقراره في بروسه .
- (٦) ثناء العلماء عليه .
- (٧) شيوخه .
- (٨) مؤلفاته .

١ - اسمه ونسبه :

هو الشيخ إسماعيل حقي بن الشيخ مصطفى أفندي بن بيروم بن شاه خدا بنده،
الجلوتي^(١) الحنفي^(٢) البروساوي^(٣) .

وأما نسبه فهو من سلالة صالحه وأسرة علماء مشهورين في مدينة آق صري .
ويتصل نسبه بالرسول (صلى الله عليه وسلم) كما أسنده هو في كتابه السلسلة^(٤) .

(١) أما هذه النسبة فهي نسبة إلى الطريقة التي ينتسب إليها الشيخ تلقاها سلسلة عن شيخه عثمان الفضلي الآبازاري ، وهو أخذها عن الشيخ عبدالله الواعظ المعروف بذاكر زاده ، وهو أخذها عن الشيخ أحمد الخطيب المعروف بيز دار زاده، وهو أخذها عن الشيخ محمود هدائي الجلوتي ، وهو أخذها عن الشيخ محمد محي الدين المعروف بأفتاده ... إلخ. وهي لغة عثمانية معناها في اللغة: ترك الوطن والمكان . والمراد هنا عابد أو سالك ينزل في زاوية وحده ويخلو بربه حتى يصل إلى درجة الفناء. لقد نقل الشيخ الكوثري هذه السلسلة وقال: إنها مأخوذة بسند معروف من الشيخ أبي النجيب السهروردي. وفي تطور هذه الطريقة قال الشيخ إسماعيل حقي : إن الطريقة الجلوتية من جهة النشر كانت هلالا في عهد إبراهيم الزاهد الكيلاني وقرماً في دور الشيخ أفتاده وبدراً في عهد الشيخ محمود هدائي . (انظر: مقالات الكوثري : للشيخ العلامة محمد زاهد الكوثري ، ص ٤٨٤ - ٤٨٦ ، الناشر: ايج - ام سعيد كمبني ادب منزل - باكستان چوك - كراتشي ، ط : (١) سنة ١٣٧٢هـ) ، وانظر : قاموس لغة عثمانية والتركية : لعبد الله ياغن ، ص ٧٩ ، نشر: وقف الخدمة - تركيا سنة (١٩٨٣م) .

(٢) فهو نسبة إلى مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى .

(٣) نسبة إلى مدينة البروسا التي كانت عاصمة للدولة العثمانية ، ومقراً للشيخ إسماعيل حقي إلى أن توفي (رحمه الله) فيها. والمدينة تقع في تركيا اليوم . أصبحت هذه المدينة مهمة في الإسلام بعد أن انتقل أرخان بن عثمان سنة (٧٢٦هـ) إليها وجعلها عاصمة للدولة العثمانية . انظر :

First Encyclopedia of Islam, E. J. Brill s , Volume ٢/٧٦٨, Leiden, Holland. ١٩٨٧.

(٤) انظر هذا ما أكده الشيخ إسماعيل حقي في مقدمة تفسيره قائلاً : (بيني وبين علي (رضي الله عنه) إحدى وثلاثون حلقة في سلسلة وأنا ثاني وثلاثون). (انظر مقدمة تفسير روح البيان : ٤٨/١). وهي مكتوبة باللغة التركية العثمانية في أربع صفحات، وقام بترجمتها الزميل الدكتور عبد الحميد بيريسيك الأستاذ المشارك في جامعة يلدرز (Uludarg University)، كلية الإلهيات - قسم التفسير وعلوم القرآن تركيا؛ وحالياً نائب عميد كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد - باكستان.

٢ - مولده :

ولد الشيخ إسماعيل حقي - رحمه الله - في مدينة "أيدوس" ^(١) بتركيا ، يوم الإثنين من شهر ذي القعدة سنة (١٠٦٣هـ) ، وهي مهجر أسرته حيث هاجر أبوه إليها من مدينة اصطنبول بعد احتراق بيته وأغراضه أثناء الحريق الذي كان في أسيرهان باصطنبول سنة (١٠٦١هـ) ^(٢) .

٣ - نشأته :

تعرف الشيخ - رحمه الله تعالى - منذ نعومة أظفاره إلى الطريقة الصوفية وترعرع في حضنها ، ولما بلغ إسماعيل حقي الثالثة من عمره أخذه والده إلى السيد عثمان فضلي أتبازاري ^(٣) الذي كان من كبار الطريقة الجلوتية . فقال له الشيخ عثمان حين قبل يده : أنت من طلابنا الخالص منذ ولادتك ^(٤) .

توفيت والدته وهو ابن سبع سنين ، ولما كان في العاشرة بدأ يتربى عند الشيخ عبد الباقي أفندي ^(٥) وهو خليفة الشيخ عثمان فضلي في مدينة أدرنه ، ومكث عنده سبع سنوات . وخلال هذه الفترة تلقى منه دروسا في النحو والصرف والمنطق والبيان والفقه وعلم الكلام والتفسير والحديث ^(٦) .

(١) أيدوس قرية قريبة من "أدرنه" وهي مدينة داخل تركيا اليوم . ولقد ذكر الشيخ الكوثري أن "أيدوس" من بلاد بلغاريا الآن ، ولكن بعد التحقيق وجدت أن أيدوس داخلية في تركيا .

(٢) EVLIYALAR ANSIKLOPEDISI, ٤٣١

(٣) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخ الشيخ إسماعيل حقي .

(٤) نشرات يا موت ، ص ١ (المترجم إلى اللغة العربية) PAMUK YAYAN LARI .

(٥) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخ الشيخ .

(٦) EVLIYALAR ANSIKLOPEDISI, ٣٤٠ - ٣٤١

وفي سنة (١٠٨٥هـ) رحل إلى اسطنبول ولازم الشيخ عثمان فضلي ، وأخذ منه علم التصوف وهذا بدعوة من الشيخ مع تزكية يحملها من الشيخ عبدالباقي^(١).

قام إسماعيل حقي مدة بقاءه في اسطنبول بخدمة شيخه وملازمته^(٢) .
ذات يوم دعاه شيخه عثمان فضلي وعينه أن يكون خليفة له إلى مدينة برسه ،
فقال له الشيخ : لقد آن وقت استعدادك ، ثم ذكر الشيخ اسم الله فقرأ سورة الفاتحة
ونفخ عليه وقال : إني عينتك خليفة لي إلى برسه^(٣) .

وفي هذا قال الشيخ إسماعيل حقي - رحمه الله- وهو يحكي عن نفسه ما نصه:
"عندما عينني شياخي خليفة له إلى بروسه ، كنت أدرس الكتاب المسمى
بـ"المطول"^(٤)، ولما نفخ عليّ شياخي سورة الفاتحة ظهر لي حال آخر ، وبعد دعاء
شياخي هذا فتح الله عليّ الفيض الإلهي والمعرفة الربانية ، ثم اشتغلت بتفسير وتأويل
الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة^(٥) .

(١) الشيخ عمر نصوحى بيلمن : طبقات المفسرين ، رئيس الشؤون الدينية ص ٧١٢ ، طبعة دار بيلمن ، فاتح
الإستانبول (١٩٧٤م).

(٢) قال الشيخ إسماعيل حقي عما حققه في خدمة شيخه : إن الله عزوجل أظهر لي الحكم وأسرار الشيخ ، قد خدم هذا
الفقير سنوات طويلة في مجلسه وحفظت كلمات عالية للشيخ أفنادة ، وقيدتها باللسان العربي (مقدمة تفسير روح
البيان ، ص ٤٦) .

(٣) EVLIYALAR ANSIKLOPEDI, ٣٤١

(٤) هو شرح لكتاب تلخيص المفتاح في المعاني والبيان ، للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، المتوفى سنة
(٧٩١هـ). شرح التفتازاني هذا الكتاب مرتين : الأول سماه بالمطول ، والثاني سماه بالمختصر. (انظر: كشف الظنون
عن أسامي الكتب والفنون ، للعلامة مصطفى عبدالله القسطنطيني المعروف بحاجي خليفة ١/٤٧٢-٤٧٣ ، دار
الفكر، بيروت ، سنة (١٤١٠هـ/١٩٩٠م) .

(٥) EVLIYALAR ANSIKLOPEDI, ٣٤١

٤ - رحلاته :

وتنقسم إلى قسمين :

(أ) - رحلته الدعوية .

انتقل الشيخ إسماعيل حقي إلى المرحلة الدعوية حينما أرسله شيخه عثمان فضلي إلى "أسكوب" مكدونيا^(١) ، فبدأ يعظ الناس وينصحهم ، ولما استلم رسالة من شيخه بدأ يقوم بتدريس الطلاب، ومضمون هذه الرسالة كالتالي:

"ابني إسماعيل حقي أفندي : أوص الناس أن يعملوا ما هو المعروف والمستحسن عقلا ودينا ، وانهم عن المنكرات ، وكن مستعداً لخطاب الآية الثامنة والأربعين من سورة القلم^(٢) ، كن صابراً وشاكراً، وعابداً بالليل وصائماً بالنهار ، وكن من يخشى الله ، واجتنب الذهاب إلى مواطن الشبهة والتهمة، ولو كنت مدعواً إلى هذه الأماكن، وادع الله إلى العلم والعمل حيث ما كنت ، درهم على العقيدة الصحيحة، واذكرهم بخير سواء كانوا عندك أو لم يكونوا"^(٣).

لقد بقي الشيخ إسماعيل حقي في أسكوب عشر سنوات ثم رجع إلى بروسه بأمر الشيخ عثمان فضلي وذلك في سنة (١٠٩٦هـ) .

(١) بلاد في شبه جزيرة البلقان نشأت فيها دولة مقدونية في القرن السادس ق. م. ، وكانت مختلفة عن المدن اليونانية في نظمها وحضارتها ... احتلتها الأتراك سنة (١٣٧١م) . تقاسمها بعد الحرب العالمية الأولى كل من بلغاريا ويوغسلافيا واليونان . (المنجد في الأعلام ، ص ٦٧٩ ، الطبعة الثانية عشر) .

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُكِنُّ كَصَاحِبِ الْهُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ سورة القلم: ٤٨ قال الشيخ في تفسير الآية : ولا تكن في التضجر والعجلة بعقوبة قومك ﴿كَصَاحِبِ الْهُوتِ﴾ أي يونس عليه السلام (انظر : تفسير روح البيان : ١٠/١٢٦) .

(٣) نشرات يا موت (ترجمة) ، ص ٢ .

وفي سنة (١١٠٧هـ) سافر إلى أدرناه^(١) بدعوة من السلطان مصطفى الثاني^(٢)، وشارك في الجهاد وحرص الناس عليه وبين أهمية الجهاد وعظيم ثوابه عند الله ، ورجع الجيش منتصراً ولكن الشيخ إسماعيل حقي صار مجروحاً ، ورجع إلى بروسه^(٣).

(ب) - رحلته العلمية :

مما سبق ظهر لنا أن الشيخ إسماعيل حقي تجول كثيراً في مدن الدولة العثمانية في طلب العلم والدعوة و كذلك سافر إلى بعض الدول الإسلامية منها:

(١) - الحجاز :

لم يذكر بالتفصيل رحلته إلى الحجاز إلا أنه سافر هناك لأداء مناسك الحج مرتين ، مرة في سنة (١١١١هـ) ومرة في سنة (١١٢١هـ) . وألف بعض الكتب في تلك الرحلة ، وقال الشيخ : كتاب أسرار الحج ألفته في الحج ، وألفت كتباً أخرى ؛ لكن فقدتها في نهبه العربان^(٤) .

(٢) - رحلته إلى الشام .

(١) هي مدينة في تركيا أوروبا ، كانت من مدن الأمبراطورية البيزنطية ، فتحها الأتراك سنة (١٣٦١م) ، فأصبحت مقراً لسلطينهم حتى سنة (١٤٣٥م) . (المنجد في الأعلام ، ص ٢٩) .

(٢) كان عاقلاً حكيماً مطلعاً على ما نكبت به الدولة من ضعف العصبية وفساد الحماية والتخاذل في مواطن الحروب ... تقلد سيف السلطان عثمان وسمت أمالة إلى إصلاح الخلل الطارئ وجمع الكلمة على حسن الحماية والتعاون (على قهر الأعداء وناهضهم ... تخلى عن الخلافة لأخيه السلطان أحمد الثالث سنة (١١١٥هـ / ١٧٠٤م) .

دائرة المعارف - قاموس عام لكل فن ومطلب، لبطرس البستاني : ٧٤١/٥ - ٧٤٢ ، دار المعرفة - بيروت ، بدون تاريخ) .

(٣) EVLIYALAR ANSIKLOPEDISI، ٣٤٣ .

(٤) انظر : مقدمة تفسير روح البيان ص ٤٦ .

بعد وفاة شيخه عثمان فضلي سافر إلى الشام ومكث هنالك ثلاث سنوات^(١) وأخذ عن الشيخ أبي المواهب محمد عبد الباقي الحنبلي^(٢) فاستجازه فأجازته واجتمع هناك مع الشيخ عبدالغني النابلسي^(٣) رحمه الله تعالى وجرى بينهما بعض المناقشات في قضايا التصوف^(٤).

(٣) - رحلته إلى مصر :

لم أعثر على دعوة لزيارة مصر في أي سنة كانت وتلقى العلم هناك من الشيخ إبراهيم البرعاوي الأزهري^(٥).

(٥) - الشيخ إسماعيل حقي وعمله بعد أن استقر في "بروسه" :

ولما رجع الشيخ إسماعيل حقي من الشام كان يمر بإسطنبول ومكث هناك مدة سنتين يقوم بالموعظة في مسجد أحمدية . وفي سنة (١١٣٥هـ) سافر إلى "بروسه" واستقر فيها إلى أن توفي رحمه الله تعالى هناك .

من أعماله في "بروسه" :

- ١ - بناء مسجد وهو أول ما قام به حينما وصل إلى "بروسه" وسماه مسجد محمدي .
- ٢ - إنشاء "دركاه" وهي زاوية واشتملت على مكان للتعليم وغرفة للضيافة.

٣ - وفي أواخر حياته انعزل عن الناس واشتغل بالتصنيف والتأليف .

(١) سافر إلى الشام مع أهله ولم يرجع حتى رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المنام وأمره أن يرجع إلى بلده، (انظر

عمر نصوحى : طبقات المفسرين ، ص ٧١٢) .

(٢) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخ الشيخ إسماعيل حقي .

(٣) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه .

(٤) انظر: مقالات الكوثري ص ٤٨٢ .

(٥) ولعله سافر إلى مصر وقت مروره ببلد الشام ، والله أعلم بالصواب . و ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه.

توفي رحمه الله تعالى سنة (١٣٧هـ) وهو ابن أربع وسبعين سنة ، ودفن خلف محراب جامع محمدي الذي عرف باسم "إسماعيل حقي تكسي" (١) .

٦ - ثناء العلماء عليه :

تبين مكانة الشيخ العلمية من أقوال العلماء وثنائهم عليه ، فمثال ذلك :

١- قال الكوثري (٢) عند ما كتب ترجمته في بداية حديثه عنه : "هو

العالم المفسر الأصولي المتكلم الصوفي الواعظ الشيخ إسماعيل حقي ... " (٣)

٢- قال أحد علماء تركيا : "كان مفسراً كبيراً وعالماً ومتصوفاً عالياً

جليلاً ، وذا عبارة طيبة" (٤) .

٣- ثناء الشيخ فضلي عليه حينما أعطاه تفسيراً له، فقال : " خذ هذا،

إنه حصيلتي منذ ثلاثين عاماً ، أرجو أن يمنحك الله أكثر من هذا" (٥) ، أي

أن الشيخ لا يدعو له بالمزيد إلا بعد أن توفرت له علامات طيبة من

شخصيته وتوفرت له الشروط كمفسر. والله أعلم .

(١) نشرات يا موت (ترجمة) ، ص ٣ - ٤ .

(٢) EVLIYALAR ANSIKLOPEDI, ٣٤٥ . ورسالة الشيخ محمود الطبطاس ، ص ٢ .

(٣) هو محمد زاهد بن حسن الكوثري ، ولد في ٢٧ من شوال سنة ١٢٩٦هـ في تركيا وتوفي في ١٩ من ذي الحجة

سنة ١٣٧١هـ . كان من كبار العلماء في الدولة العثمانية ؛ قال عنه أبو زهرة : لقد كان رضي الله عنه عالماً

يتحقق فيه القول المأثور : العلماء ورثة الأنبياء . قال أحد العلماء في مصر : إن أستاذنا الكوثري كان عالماً عالمياً قام

بواجبه في خدمة الإسلام وأدى رسالته العلمية على أكمل وجه. وفتح في مصر مدرسة علمية فكرية . (انظر :

ترجمته التي كتبها عدد من العلماء في مقدمة مقالات الكوثري) .

(٤) مقالات الكوثري ص ٤٨٢ .

(٥) عمر نصوحى : طبقات المفسرين ص ٧١٢ .

(٦) EVLIYALAR ANSIKLOPEDI, ٣٤٣ .

٤ — قال E Van Donzel : هو العالم التركي الصوفي الشاعر البروسوي أحد العلماء البارزين الذين لهم أيد فعالة في الدولة العثمانية ، يكتب بالعربية والتركية (١) .

٧ — شيوخه :

من شأن العلماء أن يتربوا على أيدي العلماء والشيوخ لا يشبعون من العلم ولا يرضون بقاء من هو أعلم منهم إلا أخذوا منه وكذا حال الشيخ إسماعيل حقي فإنه بعد أن نضج عمره زاد همه بأن يتلقى من كبار العلماء ، ومن أبرز شيوخه :

- ١ . الشيخ عبد الباقي أفندي (٢) .
- ٢ . الشيخ عثمان فضلي (٣) .
- ٣ . الشيخ إبراهيم البرماوي (٤) .

(١) ISLAMIC DESK REFERENCE, BY E, Van Donzel, ١٧٧, E. J. Briil, Leiden Holland

١٩٩٤

(٢) هو عبد الباقي بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الحليم ، الشهرزاده ، صنف كتابا : ميزان المدعين في إقامة البيتين . (كشف الظنون : ٤٩٧/٥) .

(٣) هو الشيخ عثمان بن فتح الله الشمني ، الرومي ، الملقب بفضلي ، والشهر بآت بازاري ، صوفي ، مشارك في بعض العلوم ، من مشايخ الجلوتية . توفي بجزيرة قبرص سنة ١١٠٢ هـ . ومن تصانيفه : مصباح القلب في شرح مفتاح الغيب ، ومراة أسرار العرفان ، وحاشية على شرح تلخيص المطول في المعاني والبيان ، وغيرها . (انظر : معجم المؤلفين - تراجم مصنفي الكتب العربية ، لعمر رضا كحالة : ٢٦٨/٦ ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، بدون التاريخ) . تلقى منه الشيخ إسماعيل حقي الطريقة الجلوتية .

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن شهاب الدين أحمد بن البرماوي الأنصاري برهان الدين الأزهرى الشافعي ، المتوفى سنة ١١٦٠ هـ . ومن مولفاته : حاشية على شرح الغاية لابن قاسم ، وحاشية على المنهاج للقاضي زكريا (في مجلدين) ، وحاشية على شرح السبط على الرحبية . (انظر : كشف الظنون : ٣٦/٥ ، وانظر : معجم المؤلفين : ٨/١) .

٤. الشيخ أبو المواهب ^(١) .
٥. الشيخ عبدالغني النابلسي ^(٢) .

٨ - مؤلفاته .

وكان له نصيب كبير في التصنيف والتأليف ، وقد ذكر بعض العلماء أن جميع مؤلفاته وصلت إلى مائة وستة كتب . ورغم ذلك لم أجد تلك المؤلفات سوى تفسيره "روح البيان" وبعضها ما زالت مخطوطة في مكتبته ولم يطبع بعد .
ومن أبرز تلك المصنفات :

- (١) شرح المثنوي (مجلدان) .
- (٢) فروق حقي .
- (٣) تفسير "روح البيان" .
- (٤) كتاب النتيجة .
- (٥) ديوان حقي / ديوان الحقائق .
- (٦) كتاب الخطاب .
- (٧) مقالات .
- (٨) شرح بند عطار .

(١) هو محمد بن عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر ، البجلي ، الدمشقي ، أبو المواهب ، محدث ، فقيه مقرئ ، مفسر ، أصله من بعلبك ، ولد بدمشق سنة ١٠٤٤هـ ، زار مصر ثم عاد إلى دمشق وتوفي هناك سنة ١١٢٦هـ . ومن آثاره : الكواكب الزاهرة في آثار الآخرة ، وفيض الودود بقراءة حفص عن عاصم بن أبي النجود وحنان الجناس . (انظر : معجم المؤلفين : ٣٨١/١ ، والأعلام - قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، لخير الدين الزركلي : ٥٥/٧ ، الطبعة الثانية ، بدون التاريخ والمطبعة) .

(٢) هو عبدالغني بن إسماعيل بن عبدالغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم النابلسي ، الدمشقي ، العارف بالله ، الحنفي ، الصوفي النقشبندي القادري ، ولد بدمشق سنة (١٠٥٠هـ) وتوفي بها سنة (١١٤٣هـ) . قال النابلسي : عالم ، أديب ، ناثر ، ناظم ، صوفي ، مشارك في أنواع من العلوم ، سافر إلى بلدان مختلفة منها : بغداد وفلسطين ولبنان ومصر والحجاز . (انظر : معجم المؤلفين : ٢٧١/٥ ، والأعلام : ١٥٨/٤ - ١٥٩) .

- (٩) شرح الكبار .
- (١٠) شرح الحمدي للياويجي (مجلدان) .
- (١١) شرح الأربعين النووية (مجلد واحد) .
- (١٢) كتاب النجاة في التصوف والتوحيد .
- (١٣) تمام الفيض .
- (١٤) شرح نخبة الفكر (مجلد كبير) .
- (١٥) شرح إجازة البرماوي .
- (١٦) شرح إجازة أبي المواهب الشامي .
- (١٧) شرح ملتقى الأبحر في الفقه الحنفي .
- (١٨) شرح المقدمة الكيدانية في الفقه .
- (١٩) شرح الأصول لتيسير الوصول .
- (٢٠) أسرار الحج .
- (٢١) الواردات الكبرى .
- (٢٢) شرح الأصول العشرة .
- (٢٣) شرح الصلاة المشيشية .
- (٢٤) تعليقات على تفسير الفاتحة للبيضاوي .
- (٢٥) تعليقات على تفسير سورة النبأ للبيضاوي .
- (٢٦) شرح شعب الإيمان .
- (٢٧) شرح الآداب .
- (٢٨) حياة البال .
- (٢٩) سلوك الملوك .
- (٣٠) كتاب الأنوار .
- (٣١) كتاب الحروف .
- (٣٢) الرسالة الجامعية للمسائل النافعة .
- (٣٣) السلسلة الجلوتية .

- (٣٤) الفروق اللغوية .
- (٣٥) كتاب الفضل .
- (٣٦) كتاب الكبير .
- (٣٧) كتاب النجاة .
- (٣٨) مجموعة الأبرار .
- (٣٩) مزيل الأحزان .
- (٤٠) نوادر الصوم^(١) .

(١) — انظر : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : للعلامة مصطفى عبدالله القسطنطيني المعروف بحاجي خليفة ، ٢١٩/٥ - ٢٢٠ ، دارالفكر ، عام (١٤١٠هـ/١٩٩٠م) بيروت - لبنان . ومقالات الكوثري للشيخ العلامة محمد زاهد الكوثري ص ٤٨٣ ، الناشر : ايج - ام سعيد كمبني ادب منزل - باكستان چوك - كراچي ، ط: ١ ، سنة (١٣٧٢هـ) . وهي مخطوطة ما عدا تفسيره .

الباب الأول :

مدخل إلى دراسة منهج الشيخ إسماعيل حقي في التفسير الإشاري؛

وفيه فصلان :

الفصل الأول :

مفهوم التفسير الإشاري وأنواعه

الفصل الثاني :

التعريف بتفسير "روح البيان" لحقي وبيان اتجاهاته العامة فيه

الفصل الأول :

مفهوم التفسير الإشاري وأنواعه ؛ وفيه تسعة مباحث :

المبحث الأول - التعريف بالتفسير الإشاري

المبحث الثاني - التفسير الصوفي النظري

المبحث الثالث - التفسير الصوفي النظري في الميزان

المبحث الرابع - التفسير الصوفي الإشاري أو الفيضي

المبحث الخامس - آراء العلماء في التفسير الإشاري

المبحث السادس - شروط قبول التفسير الإشاري

المبحث السابع - التفسير الإشاري في ضوء شروط القبول والرد

المبحث الثامن - الفرق بين التفسير الإشاري والباطني والنظري

المبحث التاسع - أهم كتب التفسير الإشاري

المبحث الأول

التعريف بالتفسير الإشاري ؛ وفيه مطلبان :

المطلب الأول - تعريف التفسير والتأويل والفرق بينهما

المطلب الثاني - التصوف ومدى أثره على التفسير الإشاري

المبحث الأول - التعريف بالتفسير الإشاري ؛ وفيه مطلبان

المطلب الأول : تعريف التفسير والتأويل والفرق بينهما

أولاً - تعريف التفسير :

(أ) - التفسير في اللغة : هو مصدر الفعل "فَسَّرَ" ، يقال : فَسَّرَ الشَّيْءَ فَسْرًا وتفسيراً . قال ابن فارس : الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان الشيء وإيضاحه، يقال: فَسَّرْتُ الشَّيْءَ وَفَسَّرْتَهُ . وَالْفَسْرُ ، وَالتَّفْسِيرُ : نَظَرُ الطَّيِّبِ إِلَى الْمَاءِ وَحُكْمُهُ فِيهِ^(١) .

قال الراغب الأصفهاني : الْفَسْرُ إِظْهَارُ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لَمَّا يَنْبِئُ عَنْهُ الْبَوْلُ : "تَفْسِيرُهُ"^(٢) .

وقال ابن منظور: "الْفَسْرُ" الْبَيَانُ ، فَسَّرَ الشَّيْءَ يَفْسِرُهُ - بِالْكَسْرِ - وَيَفْسُرُهُ - بِالضَّمِّ - : أَبَانَهُ . وَالتَّفْسِيرُ : مِثْلُهُ وَالْفَسْرُ : كَشْفُ الْمَغْطَى ، وَالتَّفْسِيرُ : كَشْفُ الْمَرَادِ عَنِ اللَّفْظِ الْمَشْكَلِ^(٣) .

ويقال: أسفر الصبح، أي: أضاء وانكشف، وفي قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾^(٤) إذا اتضح وأشرق واستبان. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٥) أي بياناً وتفصيلاً فنرى أن اشتقاق كلمة "فسر" تدل على

(١) - معجم مقاييس اللغة ، مادة "فسر" ٥٠٤/٤ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، ط : ١ ، سنة ١٤١١هـ - نشر دار الجليل ، بيروت - لبنان

(٢) - مفردات غريب القرآن مادة : "فسر" ص ٣٨٠ ، تحقيق : محمد كيلاني ، الطبعة الأخيرة سنة : ١٣٨١هـ ، مطبعة مصطفى البابي بحصر .

(٣) - لسان العرب مادة "فسر" ص ٥٥/٥ . ط : ١ ، عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر .

(٤) - سورة المدثر : ٣٤ .

(٥) - سورة الفرقان : ٣٣ .

البيان، والإيضاح، والإظهار، والكشف. فتفسير الكلام: بيانه، وإيضاحه وإظهاره والكشف عن المراد منه.

(ب) - تعريف التفسير في الإصطلاح :

تفاوتت تعاريفُ التفسير في الاصطلاح - بعد أن صار عِلْمًا على بيان معاني القرآن - ما بين بَسْطٍ واختصار ، ولكل عالم أسلوبه الذي درج عليه ، ونختار من ذلك أربعة تعاريف ، نبدأ بالمفصّل منها ، ثم المتوسط ، ثم المختصر ، وهي كالآتي :

١ - هو "علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصّها وعامّها ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسّرها ، وحلالها وحرامها ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها^(١). فهذا - كما ترى - تعريف مفصّل، تُنال جملة واسعة من علوم القرآن.

٢ - هو "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها الافرادية التركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتمّات لذلك"^(٢). ثم شرحه صاحبه^(٣). وهو تعريف متوسط بين البسط والايجاز . وقد اعترض عليه الدكتور محمد أبو شهبة (رحمه الله) فقال : وهذا التعريف غير جلي ولا واضح ، وكذلك لم يصرح بالعرضين الأهمين اللذين نزل لهما القرآن وهما :

الأول - كونه كتاب الهداية البينة التي هي أوضح الهدايات وأقومها، والتي لو اتبعها البشر لحققت لهم السعادتين : الدنيوية والأخروية .

(١) - جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٢/٣٨٣ ، ط : ٣ ، عام ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، دارالكتب العلمية، بيروت - لبنان .

(٢) - أبوحيان : البحر المحيط ١/١٣ ، دار الفكر بيروت . ط : ٢ ، (١٤٢٠هـ) .

(٣) - راجع نفس المرجع ١/١٤١

الثاني - والكتاب السماوي المعجز ؛ فهو المعجزة العظمى ، والآية الكبرى الباقية على وجه الدهر لنبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) .^(١)

٣- هو علم "يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"^(٢). وهذا التعريف يبين وواضح من التعريفين السابقين، ولا يرد عليه الاعتراض المتقدم لدلالته على الهداية والاعجاز .

٤- هو "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم ، من حيث دلالاته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية"^(٣) .

وهذا هو أوجز التعاريف ، واختاره الشيخ محمد سلامة - رحمه الله -^(٤) . وهو مع وجازته موفٍ بالغرض ، لملاحظته الغاية من نزول القرآن الكريم ، وللقيد "بقدر الطاقة البشرية" ، إذ هو لا بد منه في التعريف ، حيث لا يتأتى لأي إنسان مهما بلغ من العلم الوصول إلى القطع بذلك ، إلا للنبي المعصوم - عليه الصلاة والسلام - .

ثانياً - تعريف التأويل :

(أ) - في اللغة : أصل التأويل في اللغة مأخوذ من مادة "أول" وهو الرجوع إلى الأصل ؛ يقال : آل الشيء يؤول أولاً ومالاً : رجع .

(١) - انظر الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٢٦ ، ط : (٤) عام (١٤٠٨هـ) الناشر : مكتبة السنة ، القاهرة - بيروت .

(٢) - بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/١٠٤-١٠٥، تحقيق: د/يوسف عبدالرحمن المرعشلي والشيخ جمال حمدي الذهبي والشيخ إبراهيم عبدالله الكردي، ط: ١، عام (١٤١٥هـ/١٩٨٨م)، دار المعرفة بيروت - لبنان.

(٣) - محمد الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ٣/٢ ط عام (١٤٠٨هـ/١٩٩٤م) دار الفكر، بيروت - لبنان .

(٤) - انظر : منهج الفرقان ٦/٢ .

وأول الكلام و تأوله : دبره وقدره ، وأوله وتأوله : فسره ^(١) . والتأويل :
 عبارة الرؤيا وتفسيرها وتأويلها . وقيل : التأويل مأخوذ من الإيالة وهي السياسة ،
 كأن المؤول للكلام ساسه ووضع المعنى في موضعه ^(٢) .
 وهكذا المفسر لكلام الله تعالى ، فكأنه صرف الآية الكريمة إلى ما تحتمله من المعاني .
 يقال : أول الحكم إلى أهله أي : أرجعه و رده إليهم . وآل الرجل : أهل بيته ؛ لأنه
 إليه مآلهم وإليهم مآله ^(٣) .

وقال الراغب الأصفهاني: "التأويل من الأول، أي الرجوع إلى الأصل، ومنه :
 الموثل للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان
 أو فعلاً ، ففي العلم نحو : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ^(٤) . وفي
 الفعل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ ^(٥) . أي: بيانه الذي هو
 غايته المقصودة منه" ^(٦) .

فيلاحظ أن اشتقاقات مادة " أول " تأتي لعدة معان ؛ منها :

إرجاع الأمر إلى أصله ، ورد الشيء إلى الغاية المرادة منه ، وتدبير الكلام وتفسيره .
 فتأويل الكلام إذن : عاقبته وما يؤول إليه ، ورد الشيء إلى الغاية المرادة منه ، وتدبير
 الكلام وتقديره وتفسيره .

(١) - انظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة " أول " ٣٢/١١ .

(٢) - انظر: الزبيدي تاج العروس ، مادة: "أول" طبع في دار صادر، عام (١٣٨٦هـ) بيروت - لبنان ، والإمام
 السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ٣٨١/٢ - ٣٨٢ .

(٣) - انظر ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، مادة "أول" ج ١ ص ١٥٨ ، وما بعدها .

(٤) - سورة آل عمران : ٧ .

(٥) - سورة الأعراف : ٥٣ .

(٦) - مفردات غريب القرآن مادة : " أول " ص ٣٥

(ب) — تعريف التأويل في الاصطلاح :

أجمل ابن تيمية التأويل في اصطلاح المفسرين في معنيين حيث قال:

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما - (تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه. فيكون التفسير والتأويل عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا - والله أعلم - هو الذي قصده مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله . كما عناه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره : "القول في تأويل قوله كذا كذا" . "واختلف أهل التأويل في هذه الآية" ... ونحو ذلك ومراده : التفسير .

والمعنى الثاني — هو نفس المراد بالكلام ، فإن كان الكلام طلباً ، كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً ، كان تأويله نفس الشيء المخبر به) وبين ثم قال: وبين هذا المعنى والذي قبله فرق ظاهر : فإن الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام؛ كالتفسير والشرح والإيضاح ويكون وجود التأويل في القلب ، واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي. وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء أكانت ماضية أم مستقبلية اهـ^(١) .

وعرفه الأصفهاني بأنه "رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً"^(٢) .

ولعله يقصد : رد الكلام إلى حقيقته العلمية أو الفعلية .

فالعلمية : بأن يستخرج ما في النصوص من دلائل ومعان ، ويرد ما فيها من

غموض وإشكال إلى نصوص أخرى توضحها وتحمل عليها .

(١) - انظر كتابه الإكليل في التشابه والتأويل : ص ٢٥-٢٦ ، نشر : المطبعة السلفية بمصر سنة (١٣٩٤هـ) . وكذلك

مجموع الفتاوى ١٣/٢٨٨-٢٨٩ ، جمع وترتيب : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ، إدارة

المساحة العسكرية بالقاهرة سنة ١٤٠٤هـ .

(٢) - مفردات غريب القرآن ص ٣١ .

والفعلية أو العملية : هو رد الكلام إلى حقيقته الفعلية أو العملية ، بأن تتحقق فعلاً في عالم الواقع ، وبيان ما تؤول إليه سواء كانت ماضية أم مستقبلية .
والتأويل المراد عندما يوضع مقابل التفسير هو التأويل الأول ، أو التأويل العلمي، الذي يفيد إزالة ما في الآيات من غموض وإشكال وبيان ما فيها من معان ودلالات^(١) .

ثالثاً — الفرق بين التفسير والتأويل والنسبة بينهما

اختلف العلماء في بيان الفرق بين التفسير والتأويل ، وفي تحديد العلاقة بينهما، فمن العلماء من جعلهما بمعنى واحد ، ومنهم من فرق بينهما :
فقال طائفة : إنهما بمعنى واحد ، فلا فرق بينهما ؛ وعلى هذا درج المتقدمون منهم مجاهد^(٢) ، وأبو عبيدة^(٣) ، وأبو العباس "ثعلب"^(٤) وابن جرير الطبري^(٥) وغيرهم .

وقالت طائفة : إن بين التفسير والتأويل فرق ، إلا أنهم اختلفوا في تحديده :

١ — فذهب البعض^(٦) إلى أن الخلاف يعود إلى العموم والخصوص :

قال الراغب الأصفهاني : " والتفسير أعم من التأويل . وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ ، والتأويل : في المعاني كتأويل الرؤيا" . ثم قال : " والتأويل : يستعمل

(١) - انظر د/ علي بن سليمان العبيد: تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه ص ١٩-٢٠، ط ١، عام ١٤١٨هـ /

١٩٩٨م ، مكتبة التوبة ، شارع جرير ، الرياض — المملكة العربية السعودية .

(٢) - انظر قوله عند ابن جرير الطبري : تفسير "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" سورة آل عمران: ٧ ، ١٨٣/٣ ، ط

٣ : سنة (١٣٨٨هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة — مصر .

(٣) - هو أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ انظر كتابه مجاز القرآن ، سورة آل عمران : ٧ ، ج ١ ص ٣٣ ،

تحقيق : فؤاد سركين ، ط : ٢ سنة ١٤٠١هـ نشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت — لبنان .

(٤) - هو أبو العباس أحمد بن يحيى "ثعلب" المتوفى سنة ٢٩١هـ ، وقد ذكر ابن منظور قوله في لسان العرب ١/٣٣ .

(٥) - وقوله في تفسيره : "القول في تأويل قوله تعالى" ، وقوله : "وأما تأويل قوله تعالى" وقوله : " واختلف أهل التأويل

في هذه الآية" ، يقصد في كل ذلك : التفسير .

(٦) - كالشيخ أبي عمرو عثمان المازني ، انظر مقدمتان في علوم القرآن ص ١٧٣ نشر : آرثر جفري ، مطبعة مكتبة

الحاجي بالقاهرة ، سنة (١٣٩٢هـ) .

أكثره في الكتب الإلهية . والتفسير : يستعمل فيها وفي غيرها . والتفسير : أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ . والتأويل : يستعمل أكثره في الجمل" (١) .

وقال سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري المتوفى سنة (٧١٦هـ) : "وقيل : التأويل أعم لجريانه في الكلام وغيره ، يقال : تأويل الكلام كذا ، وتأويل الأمر كذا أي : ما يؤولان إليه ، بخلاف التفسير ؛ فإنه يخص الكلام ومدلوله ، يقال : الكلام كذا والقضية كذا ، ولهذا قال بعض المفسرين : التفسير : بيان موضوع اللفظ ، والتأويل : بيان المراد به" (٢) .

٢ — وذهب البعض إلى أن الخلاف من حيث قطعية الدلالة. فقال أبو منصور الماتريدي المتوفى (سنة ٣٣٣هـ) : "التفسير : هو القطع على أن المراد باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به على المراد ، يكون تفسيراً صحيحاً مستحسناً وإن قطع على المراد لا بدليل مقطوع ؛ فهو تفسير بالرأي وهو حرام ؛ لأنه شهادة على الله تعالى بما لا يأمن أن يكون كاذباً . فأما التأويل : فهو بيان عاقبة الاحتمال بالرأي دون القطع ؛ فيقال : يتوجه اللفظ إلى كذا و كذا وهذا الوجه أوجه لشهادة الأصول فلم يكن فيه شهادة على الله تعالى" (٣) .

٣ — وذهب البعض إلى أن الخلاف يعود إلى اللفظ من حيث ظاهر الكلام وباطنه. قال أبو طالب التغلي : (التفسير : هو بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً ، كتفسير الصراط بالطريق والصيب بالمطر والتأويل : هو تفسير باطن اللفظ ، مأخوذ من الأول وهو : الرجوع لعاقبة الأمر ، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد والتفسير إخبار عن دليل المراد ؛ لأن اللفظ يكشف عن المراد والكاشف دليل مثاله قوله تعالى : ﴿إِنَّ

(١) — مقدمة التفسير ص ٨ ، الناشر : قديمي كتب خانة — آرام باغ — كراچي — باكستان .

(٢) — الإكسير في علم التفسير ص ٢ . تحقيق : عبدالقادر حسين ، نشر : مكتبة الأدب بالقاهرة سنة (١٣٩٧هـ) .

(٣) — تأريلات أهل السنة "مقدمة المحقق" ، ص ٢٥ ، تحقيق : د/إبراهيم عوضين ، والسيد عوضين ، نشر : المجلس

الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩١هـ .

رَبِّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴿١﴾ . تفسيره : أنه من الرصد ، يقال : رصدته : رقبته ، وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة^(١).

٤- وذهب البعض إلى أن الفرق بينهما من حيث الرواية والدراية : فقال الحسين بن الفضل البجلي^(٢) : "التفسير يتعلق بالرواية ، والتأويل : يتعلق بالدراية"^(٣). وقال أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة (٥١٦هـ) : "فأما التأويل : وهو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها ، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط ، فقد رُخص فيه لأهل العلم . أما التفسير : وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها ، فلا يجوز إلا بالسمع بعد ثبوته من طريق النقل"^(٤). وبه قال القشيري^(٥) ، والخازن^(٦) وغيرهم .

القول الراجح :

والقول الراجح في هذه المسألة - والله أعلم - : أن هناك فرقاً بين التفسير والتأويل ، وأن التفسير ما كان على جهة القطع ، وذلك مقصور على صحة الرواية ، والتأويل ما كان عن اجتهاد وترجيح من غير قطع . وقد اشتهر هذا عند المتأخرين .

(١) - سورة الفجر : ١٤ .

(٢) - انظر جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٣٨١/٢ - ٣٨٢ .

(٣) - هو محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس البجلي الرازي المحدث الحافظ ولد على رأس المائتين ، وثقه عبدالرحمن بن أبي حاتم ، والخليلي وقال : "محدث ابن محدث" وله كتاب "فضائل القرآن" توفي ٢٩٤ هـ (انظر الداودي: طبقات المفسرين ١٠٥/٢) .

(٤) - الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٢٨٦/٢ .

(٥) - معالم التنزيل ٣٥/١ ، تحقيق : خالد العك ، مروان سوار ، ط : ١ سنة ١٤٠٦ هـ ، نشر : دار المعرفة ، بيروت .

(٦) - انظر الزركشي : البرهان في علم القرآن ٢٨٦/٢ ، و جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٣٨٢/٢ .

(٧) - انظر تفسير الخازن "باب التأويل" : للخازن ١٤/١ ، ط : ٢ ، سنة ١٣٧٥ هـ ، طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

قال الإمام الألوسي بعد استعراضه للآراء في هذا الموضوع ما نصه: "كل ما قيل مما ذكرنا وما لم نذكر مخالف للعرف اليوم. إذ قد تُعورَف عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل معانٍ قدسية، ومعارف ربانية، تنهلُّ من سحب الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير ذلك"^(١).

قال الدكتور محمد حسين الذهبي بعد أن ذكر أهم الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل: "والذي تميل إليه النفس من هذه الأقوال: هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية؛ والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية؛ لأن التفسير معناه الكشف والبيان، وذلك لا يُحرِّمُ به إلا إذا ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أو الصحابة الذين شهدوا الوحي. وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل. والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك"^(٢).

قال الزركشي: (وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط)^(٣).

(١) - انظر تفسير "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" ج ١، ص ٨-٩، تحقيق: الشيخ محمد أحمد الأمد والشيخ عمر عبد السلام السلامي، ط (١) عام (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

(٢) - انظر التفسير والمفسرون ٢٢/١ ط: (٢) عام (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).

(٣) - انظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٣١٢/٢.

المطلب الثاني - التصوف ، ومدى أثره على التفسير الإشاري

قبل أن ندخل في تعريف التفسير الإشاري وأقسامه ، أجدد بنا أن نتعرض لأصل كلمة التصوف ، ونشأته ، وتعريفه ، وأقسامه ، ومدى أثره على التفسير الإشاري ، وذلك للصلة المتينة بين التصوف والتفسير الإشاري .

أولاً - أصل كلمة التصوف

وقد اختلف العلماء في أصل كلمة التصوف ، وفي مصدر اشتقاقها ، ويمكن تلخيص أهم الآراء فيها فيما يلي :

١. الصوف: يذهب جمهور العلماء المتقدمين والمتأخرين إلى أن كلمة "صوفي" مشتقة من "الصوف" أو هي نسبة إليه. وهذا أرجح الأقوال الواردة في هذه المسألة، ومنهم: أبو نصر السراج الطوسي (ت: ٣٧٨هـ)^(١)، والكلاباذي (ت: ٣٨٠هـ)^(٢)، وأبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ)^(٣)، وأبو حفص عمر بن محمد السهروردي (ت ٦٣٢هـ)^(٤) وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)^(٥) وغيرهم.

(١) - انظر "اللُّمَع" ص ٤٠ - ٤١ ، حققه ، وقَدَّم له ، وخرَّج أحاديثه : الدكتور عبدالحليم محمود و طه عبدالباقي سرور ، لجنة نشر التراث الصوفي ، ملتزم الطبع والنشر : دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) مطبة السعادة .

(٢) - انظر "التعرف لمذهب أهل التصوف" ص ١٦ ، دار صادر، ط : ١ ، عام (١٤٤٢هـ/ ٢٠٠١م) ، ص. ب ١٠ ، بيروت - لبنان.

(٣) - انظر "قوت القلوب في معاملة المحبوب" ج ٢ ، ص ١٦٧ ، المطبعة المصرية (١٩٣٢م) - القاهرة .

(٤) - انظر «عوارف المعارف» ج ١ ص ٩٧ وما بعدها، تحقيق : أديب الكمداني، ومحمد محمود المصطفى وسيد المهدي أحمد. ط (١) عام (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) المكتبة المكية ، مكة المكرمة - السعودية .

(٥) - انظر «الصوفية والفقهاء» ضمن «مجموع الفتاوى» ج ١١ ص ١٦ و ١٩٥ جمع وترتيب : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم . ط الرئاسة العامة لشؤون الحرمين .

ومن المتأخرين: د/زكي مبارك^(١)، و د/ عبدالحليم محمود^(٢)، ومن المستشرقين عدد كبير أمثال: مرجليوس ونيكولسن، وماسنيون، ونولدكه^(٣) وغيرهم .

٢. صوفة : كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى عبادة الله عزوجل وقطنوا^(٤) الكعبة ؛ فمن تشبه بهم فهو صوفي^(٥) .

٣. الصُّفة: وهي فناء ملحق بمسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة، كان يأوي إليه بعض المهاجرين الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم ، فلم يكن لهم مال ولا منازل ولا عائلات^(٦) .

٤. الصفاء : ويذهب بعض العلماء إلى أن كلمة "صوفي" مشتقة من "الصفاء"، حيث إنَّ أخص صفات الصوفي تطهير قلبه من مشاغل الحياة الدنيا والصفاء مع الله^(٧) .

٥. الصف الأول : إنهم سموا صوفية، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عزوجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه^(٨) .

(١) — انظر "التصوف الإسلامي بين الأدب والأخلاق" ١ / ٥١ — ٥٢ ، دار الجيل (ب ت) - بيروت .

(٢) — انظر "قضية لتصوف المتقد من الضلال" ص ٣٤ — ٣٥ ط(٣) ، دار المعارف القاهرة - مصر .

(٣) — انظر "التصوف ، المنشأ والمصادر" ص ٣٤ .

(٤) — أقاموا بها . انظر معجم الوسيط : د/عبد إبراهيم أنيس وغيره ، ٧٤٧/٢ ، ط : (٢) ، مجمع اللغة العربية ، انتشارات ناصر خسرو ، طهران - إيران .

(٥) — انظر ابن تيمية «الصوفية والفقراء» ضمن «مجموع الفتاوى» ج ١١ ص ٦ ، وانظر المقدسي : صفوة التصوف ص ١٦٣ . و د/صابر طعيمة: «الصوفية معتقداً ومسلكاً» ص ٢١ ، ط ٢ ، عام (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ، دارالعالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض - المملكة العربية السعودية .

(٦) — انظر أبا العباس أحمد بن أحمد زرّوق : "قواعد التصوف" ص ٦ ، الناشر : المكتبة الأزهرية للتراث ، مصر (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م) ، و د/صابر طعيمة : «الصوفية معتقداً ومسلكاً» ص ٢١ .

(٧) — انظر الطوسي : "اللعم" ص ٤٦-٤٧ ، و«حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»: لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت : ٤٣٠هـ) ، ناشر : مكتبة الخانجي ، القاهرة - مصر ، و د/صابر طعيمة : «الصوفية معتقداً ومسلكاً» ص ٢١ وغيرهم .

(٨) — انظر السهرووردي (ت : ٦٣٢هـ) : "عوارف المعارف" ١ / ١٠٢ — ١٠٣ وغيره .

٦. السوفية اليونانية : لقد ذهب أبوريحان البيروني (ت: ٤٤٠هـ) إلى أن كلمة "صوفي" مأخوذة من "سوفية" اليونانية التي معناها الحكمة ، ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم وتحرفت (السين) إلى (الصاد)^(١). وقال بهذا القول أيضاً جماعة من الباحثين المستشرقين^(٢) وغيرهم.

٧. أنه جامد غير مشتق : وإليه ذهب جماعة من أئمة التصوف، وأنه بمثابة لقب أطلق عليهم، ومن قال بهذا الإمام القشيري^(٣)، وعلي بن عثمان الهجويري^(٤)، وابن خلدون^(٥).

وقد ذكرنا أن الوجه الأول أرجح الوجوه في هذا الباب ، والمكان لا يتسع للتفصيل ومن أراد الزيادة فليرجع للأدلة التي ترجحه على غيره من الآراء^(٦).

وبعد ما ذكرنا الآراء الواردة في اشتقاق لفظ التصوف ، وبيان الأرجح من بينها ، بقي أن نتحدث عن التعريفات التي جاءت في حد التصوف ، ثم تليها نشأة التصوف وتطوره في الفكر الإسلامي والنتائج المترتبة على ذلك .

(١) — انظر "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" ص ٢٤ - ٢٥ ،

❖ قال أستاذي - حفظه الله - أ. د. حسن الشافعي معلقاً على ما ذهب إليه أبو ريحان البيروني : "وهو رأي انفرد به فيما نعلم". فصول في التصوف ص ٢٥ ، نشره : مكتب القاهرة لآلات الكتابة ، عام (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

(٢) — ومنهم على سبيل المثال الأستاذ جوزيف فون هامر الذي أيد هذا الرأي و دافع عنه ، رغم ورود الاعتراضات القوية في الرد عليه وعلى هذا الرأي . انظر : أ.د. حسن الشافعي : فصول في التصوف ص ٢٦ - ٢٧ .

(٣) — انظر كتابه الرسالة القشيرية في علم التصوف ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، تحقيق : محمد عبدالرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت - لبنان . ط (١) ، عام (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م) .

(٤) — انظر كتابه : "كشف المحجوب" ص ٢٣٠ ، ترجمة : الدكتورة إسعاد قنديل . طبع في دار النهضة ، عام (١٩٨٠م) ، بيروت - لبنان .

(٥) — انظر كتابه : "شفاء السائل لتهديب المسائل" تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي . طبع في :

OSMAN YALSIN MATBAASI . ISTANBUL - ١٩٥٧.

(٦) — وقد مرّ ذكر بعض المراجع في صفحة () التي ترجح أن كلمة "صوفي" مشتقة من "الصوف" أو هي نسبة إليه ، وفيها الكفاية .

ثانياً — تعريف التصوف ، ونشأته وتطوره

(أ) — تعريف التصوف :

سُئل الشبلي (رحمه الله) ^(١) : لِمَ سُميت "الصوفية" بهذا الاسم ؟ فقال : هذا الاسم الذي أطلق عليهم ، اختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه ؛ ولم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد ^(٢) . فترتب على هذا الاختلاف ، اختلافهم في تعريف التصوف ، وقد بلغ تعريف التصوف إلى الألفين أو أكثر .

ومن الصعب وضع تعريف جامع مانع للتصوف ؛ لأنه يعود في جوهره إلى الوجدان والأذواق الخاصة ؛ فهو تجربة ذاتية تختلف باختلاف الأفراد ومقاماتهم وأحوالهم . ومع ذلك فلا بأس من أن نعرض لبعض تعريفات شيوخهم مما يتضح معه الطابع الخاص للتصوف .

١ — سئل الجنيد ^(٣) عن التصوف ؛ فقال : (هو حفظ الأوقات ، وأن لا يطالع العبد غير حده . ولا يوافق غير ربه ، ولا يقارن غير وقته) ^(٤) .

(١) — هو دلف بن جحدر . وقيل : ابن جعفر الشبلي (نسبة إلى قرية شبيلية وراء سمرقند) كنيته أوبكر . تصوف على يدي الجنيد . كان له شطحات . توفي سنة (٣٣٤هـ) انظر : "سير أعلام النبلاء" : للحافظ الذهبي (ت : ٤٧٨هـ) ج ١٥/ص ٣٦٧ . تحقيق : بشار عواد وغيره ، بيروت . مؤسسة الرسالة . و"طبقات الأولياء" : لأبي حفص عمر المعروف بابن الملقن (ت : ٨٠٤هـ) . تحقيق : نور الدين شريعة . ط ٢ ، عام (١٤٠٦هـ) . دار المعرفة ، بيروت — لبنان . و "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" : لعبد الحفي بن العماد الخبلي (ت : ١٠٨٩هـ) . دار المسيرة ط ٢ عام (١٣٩٩هـ) ، بيروت — لبنان .

(٢) — انظر الدكتور عبدالحليم محمود : قضية التصوف المنقذ من الضلال ص ٢٩ . الطبعة الثالثة ١٩٨٨م الناشر: دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع . رقم الإيداع: ١٩٨٨/٥٧٠١ . الترخيم الدولي : ١ - ١٩٠٩ - ٠١ - ٩٧٧ ISBN ١/٨٨/١٠٨

(٣) — هو الجنيد بن محمد النهاوندي أبو القاسم ، يعرف بشيخ الطائفة الصوفية ، توفي سنة (٢٩٧هـ) . انظر "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" : لأبي نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) . القاهرة - مكتبة الخانجي . والرسالة القشيرية ص ٦٥ - ٦٨ .

(٤) — انظر أبابكر محمد الكلاباري (ت ٣٨٠هـ) : "التعريف لمذهب أهل التصوف" ص ٦٣ .

- ٢ - وقال أيضاً : (هو أن يُميتك الحق عنك ، ويحييك به) ^(١) .
- ٣ - قال أبو محمد رويم (رحمه الله) ^(٢) : استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد ^(٣) .
- ٤ - قال ذو النون - رضي الله عنه - ^(٤) وقد سئل عن التصوف : هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء ؛ فأثرهم على كل شيء ^(٥) .
- ٥ - وقال معروف الكرخي ^(٦) : "التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق" ^(٧) .
- ٦ - وقال الشبلي : الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق ؛ كقوله تعالى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ^(٨) قطعه عن كل غير ؛ ثم قال ^(٩) : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ^(١٠) .

(١) - انظر أبا القاسم القشيري (ت ٤٦٥هـ) : الرسالة القشيرية ص ١٣٨ - ١٣٩ . وأبا محمد عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨هـ) : نشرُ المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ص ٣٧٤ . الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان . منشورات محمد علي بيضون . وضع حواشيه خليل عمران المنصور .

(٢) - هو أبو محمد رويم بن أحمد بغدادي من أجلة المشايخ . مات سنة ٣٠٣ . انظر الرسالة القشيرية ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) - انظر المرجعين السابقين : الرسالة القشيرية ص ١٣٩ ونشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ص ٣٧٤ .

(٤) - هو ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن إبراهيم توفي سنة ٢٤٥هـ . و أوجد وقته علماً ، و ورعاً ، وحالاً ، و أدباً . انظر الرسالة القشيرية ص ٣٣ - ٣٤ .

(٥) - انظر الرسالة القشيرية ص ١٣٩ ، ونشرُ المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ص ٣٧٥ .

(٦) - هو معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ . وُلد من أبوين نصرانيين . توفي سنة (٢٠٠هـ) . انظر الرسالة القشيرية ص ٣٦ - ٣٨ . وانظر أيضاً طبقات الأولياء : لأبي حفص عمر المعروف بابن الملقن (ت ٨٠٤هـ) . ص ٤٩٣ تحقيق: نور الدين شريعة . بيروت - دارالمعرفة . ط ٢ عام (١٤٠٦هـ) .

(٧) - أبو القاسم عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ) : الرسالة القشيرية ص ١٣٩ . وأبو محمد عبد الله اليافعي (ت ٧٦٨هـ) : نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ؛ ص ٣٧٤ .

(٨) - سورة طه ؛ رقم الآية : ٤١ .

(٩) - سورة الأعراف ؛ رقم الآية : ١٤٣ .

(١٠) - أبو القاسم عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ) : الرسالة القشيرية ص ١٣٩ .

قال يوسف السيد هاشم الرفاعي : وصلت تعاريف التصوف الألفين أحسنها وأشملها هذان التعريفان :

أ- قال ابن عجيبة (رحمه الله) : التصوف : (صدق التوجه إلى الله بما يرضاه ومن حيث يرضاه) .

ب- وقال أيضاً^(١) : (التصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، وتصفية البواطن من الرذائل وتحليلتها بأنواع الفضائل ؛ فأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة)^(٢) .

قال محمد الحسن بعد أن ذكر مجموعة من تعاريف التصوف : (وخلاصة هذه التعاريف : التصوف هو بذل الجهد في تهذيب النفس للارتقاء بها إلى مستوى أكمل)^(٣) .

(ب) نشأة التصوف وتطوره في الفكر الإسلامي

يكاد أن يتفق الباحثون والمؤرخون على نشأة التصوف وتطوره في الفكر الإسلامي؛ حول موضوعين :

الأول - (أن التصوف بدأ سلوكاً عملياً و تربية روحية مصدره العاطفة الدينية و حرارة الإيمان التي تفجرت في قلوب المسلمين ؛ وتمثل هذا السلوك في الزهد والتقشف بمعناه العادي والبسيط بالترفع عن الماديات طمعاً في رضى الله واستحقاق جناته .

(١) - انظر "معراج النشوف إلى حقائق التصوف" ص ٤ - ٥

(٢) - انظر الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة ص ٢١ ط ١ ، عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م) . المنصورية - الكويت.

(٣) - المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي ص ٢٥ . ط ١ ، نشر و توزيع: دار الثقافة . الدوحة- قطر عام ١٩٨٦م. رقم الايداع بدار الكتب القطرية.

وفي هذا الدور أخذت هذه النزعة طابعاً فردياً لا طائفيّاً ولا مذهبيّاً ؛ فلم تكن سوى تعبير شخصي عن اجتهاد المسلم بلوغ الكمال في تدينه وطاعته .

الثاني - أن التصوف الفلسفي ظهر متأخراً ذلك في أواخر القرن الثاني الهجري تقريباً ، واكتمل نموه في القرن الثالث وما بعده ، وهو وقت ازدهار حركة الترجمة واكتمال أثرها في الفكر الإسلامي، وفي هذا الدور أصبح التصوف مذهباً له نظرياته وكتبه وفرقه .

فالقرآن الكريم داخل الجزيرة العربية لم يلق تأويلاً فلسفياً ولا صوفياً ؛ ولكنه لما بلغ إلى شعوب أخرى من الفرس والروم والهند وغيرهم و أصبح سفراً مقدساً لهم تناولوه بالتفسير والتأويل ما شاءت لهم ثقافتهم وفلسفاتهم و عقائدهم الموروثة ، وجعلوا هذه التأويلات والتفسيرات بحوثاً نظرية ، حتى أصبح التصوف مذهباً تتميز به طائفة من الناس، لهم معتقداتهم الخاصة ، يؤلفون فيها ويدافعون عنها ويدعون إليها .

وهذا الدور يختلف تماماً عن الدور الأول الذي اتسم بالطابع العملي في السلوك على أساس من الكتاب والسنة ، مما يتعذر معه أن يطلق على أصحابه اسم معين أو ينظر إلى أصحابه كفرقة أو مذهب ؛ بل كان ظاهرة روحية أخلاقية فحسب^(١) .

والآن نعرض آراء الباحثين والمؤرخين ليتبين مدى اتفاقهم فيما ذكرناه :

١. عبدالقاهر بن طاهر البغدادي المتوفى (٢٤٩هـ) وهو من مؤرخي الفرق الإسلامية ، لا يذكر الصوفية كفرقة مستقلة ، وإنما يعتبر التصوف سلوكاً

(١) - انظر د/ حمدي عبد العال : " أثر التفلسف في الفكر الإسلامي " ص ٨٥ - ٨٦ . كلية الشريعة - جامعة الكويت .
دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م الكويت - شارع فهد السالم - عمارة الأوقاف .
مطبعة الفيصل .

أخلاقياً امتاز به أهل السنة والجماعة سواء أكانوا من الفقهاء أو المفسرين أو النحاة أو المتكلمين^(١).

٢. الطوسي المتوفى (٣٧٨هـ) يرى أن التصوف العملي يعتبر ظاهرة أخلاقية أساسها الدين ، ولهذا فهو يخرج أصحاب النظريات التي تتعارض مع الإسلام من زمرة الصوفية ؛ حيث يقول : "كل من ترسم برسوم هذه العصاة ، أو أشار إلى نفسه بأن له قدماً في هذه القصة ، أو أنه توهم أنه متمسك ببعض آداب هذه الطائفة ، ولم يكن أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع ولو مشى في الهواء ونطق بالحكمة أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة ؛ وهذه الأشياء الثلاثة :

أولها : اجتناب جميع المحارم كبيرها وصغيرها .

الثاني : أداء جميع الفرائض عسيرها ويسيرها .

الثالث : ترك الدنيا على أهل الدنيا قليلها وكثيرها إلا ما لا بد منه للمؤمن منها"^(٢).

٣. أما البيروني المتوفى (٤٤٠هـ)؛ فإنه حين ينظر إلى التصوف في دور التفلسف، فإنه يرجعه إلى مصادر أجنبية ويستبعد أن يكون له صلة بالإسلام^(٣).

٤. القشيري المتوفى (٤٦٥هـ) يقول : "إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق في وقتنا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، وحصلت الفترة في هذه الطريقة ، وزال الورع ، وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه ،

(١) - انظر الفرق بين الفرق ص ٣١٧ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .

(٢) - انظر "اللّمع" ص ٥١٦ ؛ حققه ، وقدم له ، وخرّج أحاديثه : الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، ملتزم الطبع والنشر : دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثني ببغداد (١٣٦٠هـ/١٩٦٠م) ، لجنة نشر التراث الصوفي .

(٣) - انظر : "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة" ص ٢٤ .

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وأهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه ، وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولوم ، وزالت عنهم أحكام البشرية... الخ" (١) .

٥. ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى (٥٤٨هـ) وهو من كبار المؤرخين للفرق ، لا يذكرهم إطلاقاً كفرقة من فرق الإسلام ، ولعل الإشارة الوحيدة إلى التصوف كسلوك عملي دون ذكره بالاسم ، جاءت في معرض تعريفه للإسلام والإيمان والإحسان حيث يقول : "فإذا كان الإسلام بمعنى التسليم والانقياد ظاهراً ، موضع الاشتراك ، فهو المبدأ ، ثم إذا كان الاخلاص معه ، بأن يصدق بالله وملائكته و... كان مؤمناً حقاً ، ثم إذا جمع بين الإسلام والتصديق ، وقرن المجاهدة بالمشاهدة ، وصار غيبه شهادة ، فهو الكمال ، فكان الإسلام مبدأه ، والإيمان وسطاً ، والإحسان كمالاً" (٢) .

٦. وابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ) ، بعد أن يستعرض نشأة التصوف متتبِعاً في ذلك تاريخ التسمية ؛ ينتهي إلى أن التصوف الفلسفي ليس إسلامي النشأة ، وأنه لم يعرف في الإسلام سوى الزهد كخلق له أصوله الإسلامية ، ويستدل على ذلك فيقول: "التصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ، ويدل على الفرق بينهما ، أن الزهد لم يذمه أحد ، وقد ذموا التصوف" (٣) .

٧. ونختم آراء الباحثين المسلمين برأي شيخ المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ) ، فإنه يعطينا تفصيلاً شاملاً عن نشأة التصوف وتطوره وسنلاحظ أنه بدوره يرفض أن يكون التصوف الفلسفي إسلامي

(١) - انظر الرسالة القشيرية ص ٢-٣ (بتصرف) . ط : ١ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م / ٨٧١ .

(٢) - الملل والنحل ٤٦/١ ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .

(٣) - تليس إبليس ص ٢١٢ - ٢١٣ ، تحقيق : هاني الحاج ، الناشر : المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر .

النشأة ؛ يقول : (هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ... وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشى الإقبال على الدنيا في القرن الثاني^(١) وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ... فلما كُتبت العلوم ودُوِّنت، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقتهم ...

ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب وفيما وراء الحسي الكلام في المدارك التي وراءه ، واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوي الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها ... فأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم . وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً . إذ هي من قبيل الوجدانات. ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة ، توغلوا في ذلك ، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة وملاؤوا الصحف منه ، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول ، وإهية الأئمة ... فأشرب كل منهم مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين ...

والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها مما هو معروف... فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن، وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك... ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله، لأنه رأس العارفين.

(١) - أي المهجري .

وأفردوه بذلك تشبيهاً للإمام في الظاهر، وسموه قطباً لمدار المعرفة عليه... فتأمل ذلك من كلام هؤلاء المتصوفة مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم^(١). هذا هو الرأي الذي ذهب إليه ابن خلدون في نشأة المتصوفة ونظرياتهم والعوامل التي أثرت في نشأة التصوف وتطوره؛ يمكن أن نستنبط منه النتائج التالية :

- ١ - التصوف كسلوك عملي إخلاقي بمعنى الزهد والتقشف على منهاج الكتاب والسنة وسيرة الصحابة ، يعتبر علماً إسلامي النشأة والمصدر .
- ٢ - أما التصوف النظري المتفلسف، فإنه لا يمت للإسلام ولا نهج الصحابة بصلة. وإنما بدعة محدثة في الفكر الإسلامي غذتها عوامل أجنبية.
- ٣- ظهر التصوف الفلسفي في العراق التي كانت مقراً للفلسفات، الهندية والفارسية واليونانية. وتلك الفلسفات كانت السبب في نشأة التصوف الفلسفي.

ثالثاً - أقسام التصوف

مما سبق يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين :

- (١) - تصوف نظري : وهو التصوف الذي يقوم على البحث والدراسة فقط.
- (٢) - وتصوف عملي : وهو التصوف الذي يقوم على التقشف والزهد والتفاني في طاعة الله . (وكل من القسمين كان له أثره في تفسير القرآن الكريم ، مما جعل التفسير الصوفي ينقسم كذلك إلى قسمين :

(أ) - تفسير صوفي نظري .

(ب) - وتفسير صوفي فيضي أو إشاري^(٢).

(١) - انظر مقدمة ابن خلدون ٢٢٩ - ٢٣١ ، الدار التونسية للنشر عام (١٩٨٤م) .

(٢) - انظر : الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ، ٣٦٨/٢ . ط: ١، عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، الناشر:

دار القلم ، بيروت - لبنان .

المبحث الثاني

التفسير الصوفي النظري ؛ وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول - تعريفه

المطلب الثاني - تأصيله

المطلب الثالث - ابن عربي وموقف العلماء منه

المطلب الرابع - ابن عربي رائد التفسير الصوفي النظري ، ومدى تأثيره

بالنظريات الفلسفية وأمثاله

المطلب الخامس - وحدة الوجود وابن عربي

المطلب السادس - تأثير ابن عربي في تفسيره بنظرية وحدة الوجود ونماذج

ذلك

المطلب السابع - قياسه الغائب على الشاهد

المطلب الثامن - إخضاع ابن عربي قواعد النحو لنظرياته الصوفية

المبحث الثاني - التفسير الصوفي النظري^(١)؛ وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول - تعريفه :

عرفه بعض العلماء بأنه : صرف آيات القرآن عن معانيها الظاهرة إلى تقرير ما وقر في نفس المفسر من فلسفات غريبة أو مذاهب في العقيدة يرفضها المسلمون .

المطلب الثاني - تأصيله :

إن نشأة الانحراف في المنهج الفلسفي الصوفي لتفسير القرآن الكريم - كما يراه بعض العلماء - ترجع إلى الاعتماد على الفكر الفلسفي اليوناني وطريقته في البحث والتفكير والفهم ، وبالتحديد : اعتماد أصحاب الفلسفة الصوفية في تفسيراتهم الرمزية الإشارية على منهج الفيثاغوريين والأفلاطونيين والرواقيين والغنوصيين الذين يسلكون منهج التفسير الرمزي الباطني لكثير من الظواهر الكونية والأفكار الميتافيزية "علم ما وراء الحياة"^(٢).

(١) - انظر محمد السيد جبريل : مدخل إلى مناهج المفسرين ص ٢١١ ، ط : مطابع الرسالة بالقاهرة .

(٢) - انظر خالد عبد الرحمن العك: أصول التفسير وقواعده ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ط : ٣ عام (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، دارالنفايس للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت- لبنان. وإن أبرز صور التأويل الرمزي الباطني الفلسفي تظهر في "رسائل إخوان الصفا"، فقد جاء في إحدى رسائلهم: "ينبغي لإخواننا أن يعلموا أن ظاهر الشريعة إنما يصلح للعامه، فهو دواء للنفس المريضة الضعيفة، أما العقول القوية، فغذاؤها الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة". ٤١/٤ ط: ١، مصر . ويزعمون فيها : " أن للكتب النبوية تأويلات وتفسيرات غير ما يدل عليها ظاهر ألفاظها ، يعرفها الراسخون في العلم". ٤٢/٤ . ويشير إخوان الصفا إلى مصادر علومهم ومعارفهم ، فيقولون : " إن علومنا مأخوذة من أربعة كتب، أحدها : الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة ... والآخر : الكتب المنزلة التي جاء بها الأنبياء ... والثالث : الكتب الطبيعية التي تشرح تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ... الرابع : الكتب الإلهية التي لا يَمَسُّها إلا المطهرون والملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بررة ، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها" ، ٤٢/٤ . ولذلك نجد إخوان الصفا يوصون بعدم معاداة جميع المذاهب والاتجاهات المبطله ، والكتب المزعومة على الله تبارك وتعالى ، فيقولون في رسالة "الآراء والديانات" : "ينبغي لإخواننا ألا يعادوا علماء من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا لمذهب من المذاهب ، لأن رأينا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها" ٤١/٤ ، فتأتي في رسائلهم من التفسيرات الرمزية الباطنية التي تصرف آيات القرآن عن مقاصدها الشرعية إلى ما لا يجوز ولا يصح من المعاني المتكلفة الباطلة ...

فقد سلك أصحاب الفلسفة الصوفية النظرية منهج التفسير الإشاري الرمزي
لآيات القرآن الكريم ، لينظروا إلى القرآن نظرة تتمشى مع نظرياتهم وتتفق مع
تعاليمهم.

(ولكن ليس من السهل أن يجد الصوفي في القرآن ما يتفق صراحة مع
تعاليمه، ولا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته التي يأتي بها ؛ لأن القرآن كتاب عربي
جاء لهداية البشرية لا لإثبات نظرية من النظريات .

غير أن الصوفي حرصاً منه على أن يسلم له تعاليمه ونظرياته ، يسعى أن يجد
في القرآن ما يشهد له أو يستند إليه ، فتراه من أجل هذا يتعسف في فهمه للآيات
القرآنية ، ويشرحها شرحاً يخرج بها عن ظاهرها الذي يؤيده الشرع ، وتشهد له
اللغة^(١) .

ويمثل العلماء لهذا النوع بتفسير القرآن الكريم المنسوب^(٢) والمزعوم إلى الصوفي
الكبير محي الدين بن عربي والمشهور باسمه ، وكذلك في الكتب التي تنسب إليه على
الحقيقة كالفوتوحات المكية ، والفصوص وغيرها .

وقبل أن نتعرض لنظرياته الصوفية الفلسفية التي طبقها على كثير من الآيات
القرآنية وأولها لأجلها ، نريد أن نعرف هذه الشخصية الهامة وموقف الأئمة منها :

المطلب الثالث - ابن عربي وموقف العلماء منه :

ترجمة ابن عربي

هو أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، الطائي،
الأندلسي، المعروف بابن عربي بدون أداة التعريف، كما اصطاح على ذلك أهل
المشرق، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي، صاحب أحكام القرآن. وكان
بالمغرب يعرف بابن العربي بالألف واللام، كما كان يعرف في الأندلس بابن سراقه.

(١) - انظر د/ الذهبي : التفسير والمفسرون ٣/٣٦٩ .

(٢) - سوف تأتي الأدلة التي تؤيد أنه من القاشاني وليس من محي الدين بن عربي .

ولد بِمَرَسِيَّة سنة ٥٦٠هـ (ستين وخمسمائة من الهجرة) ، ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨هـ (ثمان وستين وخمسمائة) من الهجرة ، وبقي فيها نحو ثلاثين عاما ، تلقى فيها العلم على كثير من الشيوخ حتى ظهر نجمه ، وعلا ذكره ، وفي سنة ٥٩٨هـ (ثمان وتسعين وخمسمائة) نرح إلى المشرق وطاف في كثير من البلاد ، فدخل الشام ، ومصر ، والموصل ، وآسيا صغرى ، ومكة ، وأخيراً ألقى عصاه واستقر به النوى في دمشق ، وتوفي بها في سنة ٦٣٨هـ (ثمان وثلاثين وستمائة) ، ودفن بها فرحمه الله رحمة واسعة (١) .

موقف العلماء منه

يمكن أن نقسم موقف العلماء منه إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول - قول من قال بولايته :

كان ابن عربي شيخ المتصوفة في وقته ، وكان له أتباع ومريدون ، يعجبون به إلى حد كبير ، حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر والعارف بالله .

١- قال جلال الدين السيوطي في مصنفه "تنبيه الغبي في تخطئة ابن عربي" : والقول الفيصل عندي في ابن عربي ... اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه ، فقد نقل عنه قوله حيث يقول: "نحن قوم يحرم النظر في كتبنا" .

قال السيوطي : وذلك أن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلاحوا عليها وأرادوا بها معانٍ في غير المعاني المتعارفة منها ؛ فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر : كَفَرَّ وكَفَّر ، نص على ذلك الغزالي في بعض كتبه وقال إنه تشبيه بالمتشابه من القرآن والسنة ، فمن حمله على ظاهره فقد كفر (٢) .

(١) - انظر : ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١٩٠/٥ - ١٩١ ، ط : القاهرة عام (١٣٥٠هـ).

وابن كثير : البداية والنهاية ١٣/١٥٦ ، ط : ١ ، عام (١٩٦٦م) ، مكتبة المعارف ، بيروت - لبنان . والذهبي

(محمد بن أحمد): ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣/١٨٧ ، عيسى البابي الحلبي ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٥هـ .

(٢) - ص ٢٠ - ٢١ ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة الآداب ومطبعها بالجماميز ، ت ٣٩١٩٣٧٧ ، ٤٢ ميدان الأوبرا .

٢- فمن المعجبين بابن عربي : قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط ، وقد كَتَبَ كتاباً يدافع فيه عنه ، رداً على رضي الدين بن الخياط الذي كَتَبَ عن عقيدة ابن عربي ورماه بالكفر (١) .

٣- وممن دافع عن الشيخ محي الدين ابن عربي دفاعاً طويلاً الإمام الشعراي (ت ٩٧٣هـ) الصوفي الشهير في كتابه "اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر" ؛ فقد قال ببراءة الشيخ ابن عربي مما جاء في الفتوحات المكية من عقيدة وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتفسيرات الرمزية الباطنية حيث قال: (وكان - رضي الله عنه - أي ابن عربي- متقيداً بالكتاب والسنة ويقول كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك وهذا اعتقاد الجماعة إلى يوم الساعة) .

ثم يقول عن الشيخ : (وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراقبه وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور؛ فهو مدسوس عليه كما أخبرني بذلك سيدي الشيخ أبوطاهر المغربي نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لي نسخة "الفتوحات" التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات) (٢) .

ثم تكلم الإمام الشعراي عن دس الزنادقة على الإمام أحمد ابن حنبل وعلى الفيروز آبادي وعلى الغزالي ما لم يقوله مما يخالف الشرع، وكيف دسوا عليه هو بالذات في حياته حتى كادت تسوء سمعته لو لا أن رد على تلك الإفتراءات بكتبه حتى أسكت الفتنة (٣) .

ثم تابع كلامه مدافعاً عن الشيخ ذاكراً ثناء العلماء عليه في كلام طويل (٤) .

(١) - انظر : الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٤٤٥/٢ .

(٢) - انظر ص ٢٢ - ٢٣ . ط إحياء التراث العربي - بيروت .

(٣) - انظر نفس المصدر ص ٢٣ .

(٤) - انظر نفس المصدر ص ٢٣ - ٣٠ .

٤- — وممن ذهب إلى تيرثة ابن عربي مما نسب إليه وأنه من الصالحين الإمام الحصكفي الفقيه الحنفي (ت ١٠٨٨هـ) المعروف صاحب الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، وتابعه العلامة ابن عابدين شارح الدر المختار يقول الحصكفي عن كتاب فصوص الحكم لابن عربي : فيه كلمات تباين الشريعة وتكلف بعض المتصنفين لإرجاعها إلى الشرع لكنا تيقنا أن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس سره فيجب الاحتياط بترك مطالعة تلك الكلمات وقد صدر أمر سلطاني - في عهد الخلافة العثمانية - بالنهي؛ فيجب الاجتناب من كل وجه (١).

ولابن عابدين عبارات طويلة في شرحه لكلام الحصكفي فليرجع إليها من أراد (٢).

ونكتفي بهذا القدر من كلام الفريق الأول من العلماء الذين أثنوا على الشيخ ابن عربي.

ثانياً — قول من طعن في الشيخ ابن عربي

وقد طعن في ابن عربي عدد كبير من العلماء ، عندما وجدوا كتبه تحتوي على أمور تخالف الشريعة الإسلامية بكل وضوح لا مجال فيها لشك أو تأويل منهم .

- ١- ذكر كاتب شذرات الذهب ناقلاً عن المناوي: وقد تفرق الناس في شأن ابن عربي شيعاً وسلوكوا في أمره طرائق قدداً فذهبت طائفة إلى أنه زنديق لا صديق الخ (٣).
- ٢- وأورد الذهبي عن شيخه العلامة ابن دقيق العيد أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٤) يقول عن ابن عربي : شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً (٥).

(١) — انظر ٤/٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) — انظر حاشية رد المختار على الدر المختار للعلامة محمد أمين الشهير بابن عابدين ٥٤/٢٥٧/٢٦٠ ، ط مصطفى الحلبي.

(٣) — انظر أبا الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١٩١/٥ .

(٤) — هو عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، عز الدين الملقب بسليمان العلماء ، ولد بدمشق سنة (٥٧٧هـ) وتوفي

بالقاهرة سنة (٦٦٠هـ)، انظر الأعلام : لخير الدين الزركلي . ط (٦) عام (١٩٨٤م) ، دارالعلم، بيروت - لبنان.

(٥) — انظر الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : سير أعلام النبلاء ٢٣/٤٨-٤٩ ، تحقيق: بشار وغيره. مؤسسة الرسالة،

بيروت- لبنان.

٣- ومن الذين حملوا عليه حملة شعواء الإمام ابن تيمية وقد كان يحسن الظن به في بادئ الأمر قال : وإنما كنت قديماً ممن يحسن الظن به ويعظمه ؛ ولكن عندما وجدت في كتبه كالفصوص ونحوه القول بوحدة الوجود أي : أن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبت موجودين خلق أحدهما الآخر ، بل يقول الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق ويقول : إن وجود الأصنام هو وجود الله وإن عباد الأصنام ما عبدوا شيئاً إلا الله . فلما تبين الأمر عرفنا ما يجب علينا^(١) .

٤- وممن طعن في الشيخ ابن عربي ملا علي القاري . قد كتب في الرد على كتابه "فصوص الحكم" رسالة في الرد على القائلين بوحدة الوجود أمثاله التي طبعت في إستانبول عام (١٢٨٤هـ) بعنوان "رسالة في وحدة الوجود" .

٥- أخيراً ، نكتفي بما ذهب إليه البقاعي^(٢) ، حيث قال :

(وقد تواترت نسبة ابن عربي وابن الفارض إلى الكفر تواتراً معنوياً وشاع ذلك على ألسنة المؤمنين الصادقين . وإذا كان الله سبحانه حكم بالكفر في كتابه الكريم على من قال: إن الله هو المسيح ، فلم لا يحكم المسلمون على قطبي مذهب الحلول والاتحاد وكل منهما يقول : الله عين كل شيء)^(٣) .

ثالثاً - قول من قال بالتوقف في شأن ابن عربي :

إذا كان فريق من العلماء قد قال بولاية الشيخ محي الدين ابن عربي ودافعوا عنه على نحو ما تقدم ، وقال فريق آخر بكفره وزندقته ؛ فإن فريقاً آخر من العلماء ممن لهم قدم راسخة في العلم آثروا السلامة ووقفوا موقف التوقف في شأنه ، وإليك بعض ما ورد في هذا المقام :

(١) - انظر مجموع الفتاوى ٤٦٤/٢ - ٤٦٥ - ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) - هو برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ، محدث ، مفسر ، فقيه ، مؤرخ . ولد سنة (٨٠٩هـ) ، وتوفي (٨٨٥هـ) بدمشق . انظر "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ابن العماد الحنبلي ، ٣٣٩/٧ .

(٣) - انظر مصرع التصرف ص ٢١٧ ، تحقيق وتعليق : عبدالرحمن الوكيل ، تحت إشراف : رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض - مكة العربية السعودية (١٤١٥هـ) .

١. قال المناوي: وعول جمع على التوقف والتسليم قائلين الاعتقاد صبغة والانتقاد حرمان، وإمام هذه الطائفة شيخ الإسلام النووي ، فإنه استفتى فيه فكتب ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾^(١). وتبعه على ذلك كثيرون سالكين سبيل السلامة^(٢).

٢. ومن هؤلاء الحافظ شمس الدين الذهبي: قال بعد أن حكى طعن العز ابن عبد السلام في ابن عربي بأنه شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يجرم فرجاً. قال الذهبي : قلت : إن كان محي الدين رجع عن مقالاته تلك قبل الموت فقد فاز وما ذلك على الله بعزيز^(٣).

٣. ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) حيث قال بعد أن ذكر اختلاف العلماء في الحكم على ابن عربي : (وقولي أنا فيه أنه يجوز أن يكون من أولياء الله الذين اجتذبهم الحق إلى جنبه عند الموت وختم له بالحسنى) . وذكر بعد كلام طويل هذه العبارة القيمة وختم بها حديثه قائلاً : فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سور من القرآن يصلي بها الصلوات ويؤمن بالله واليوم الآخر خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق ولو قرأ مائة كتاب أو عمل مائة خلوة^(٤).

والباحث يميل إلى التوقف في هذه المسألة ، لأن صاحب كل رأي معه أدلته ، ومن هنا لا يترجح عند الباحث رأي على آخر ، والله أعلم بحال ابن عربي وبما ختم له، ويخشى الباحث أن تعود كلمة التكفير إليه هو . يقول الإمام السيوطي : "والمتصدى لتكفير ابن عربي لم يخف من سوء الحساب ، وأن يقال له : هل ثبت

(١) — سورة البقرة ، الآية ١٣٤ .

(٢) — انظر ابن العماد الحنبلي : "شذرات الذهب" : ١٩٢/٥ .

(٣) — انظر سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣ - ٤٩ .

(٤) — انظر لسان الميزان ٣١٢/٥ ، ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت — لبنان .

عندك أنه كافر؟. فإن قال : كتبه تدل على كفره، أفأمن أن يقال له: هل ثبت عندك بالطريق المقبول في نقل الأخبار: أنه قال هذه الكلمة بعينها؟ وأنه قصد بها معناها المتعارف؟ ... وعلى تقدير ثبوت أصل الكتاب عنه، فلا بد من ثبوت كل كلمة كلمة، لاحتمال أن يدس في الكتاب ما ليس من كلامه، من عدو أو ملحد" (١).

قلت : وحدث ذلك مع خلق كثير .

المطلب الرابع :ابن عربي رائد التفسير الصوفي النظري ، ومدى تأثيره بالنظريات الفلسفية وأمثله

ونستطيع أن نعتبر الأستاذ الأكبر محي الدين بن عربي شيخ هذه الطريقة في التفسير ، وأكثر أصحابه معالجة للقرآن على طريقة التصوف النظري ، وإن كان له من التفسير الإشاري ما يجعله في زمرة المفسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضاً (٢) .

مدى تأثير ابن عربي بالنظريات الفلسفية :

عند قراءة كتب ابن عربي التي يشك في نسبتها إليه ، كالتفسير المشهور باسمه، وفي الكتب التي تنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية ، والفصوص ، فنراه يطبق كثيراً من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية .

وفيما يلي نلاحظ تفسيره لبعض الآيات القرآنية بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية:

١— فعند تفسيره لقوله تعالى في شأن إدريس عليه السلام : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (٣) يقول: (وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس ، وتحت سبعه أفلاك ، وفوقه سبعه أفلاك ، وهو

(١) — تنبيه الغبي في تخطئة ابن عربي ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) — انظر: الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون : ٣٦٩/٢ .

(٣) — سورة مريم : الآية (٥٧) .

الخامس عشر ...). ثم ذكر الأفلاك التي تحته ، والتي فوقه ؛ ثم قال: (وأما علو المكانة فهو لنا أعني المحمدين ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾^(١) في هذا العلو ، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة^(٢) .

٢— وعند قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) يقول : (... والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعال، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد ، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات ، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التي هي أعوانه ويسلمها إلى الله تعالى)^(٤) .

٣— وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾^(٥)؛ يقول ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ بحر الهيولي الجسمانية الذي هو الملح الأجاج، وبحر الروح المجرد الذي هو العذب الفرات ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في الوجود الإنساني ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا في كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مادياً ... سبحانه خالق الخلق القادر على ما يشاء) اهـ^(٦) .

(١) — في الآية (٣٥) من سورة محمد عليه السلام .

(٢) — انظر فصوص الحكم ٢٦/١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت — لبنان .

(٣) — سورة البقرة : الآية (٨٧) وما بعدها .

(٤) — انظر تفسير القرآن الكريم: لمحي الدين ابن عربي ٥١/١ ، تحقيق: د/مصطفى غالب، ط انتشارات خسرو ، طهران - إيران .

(٥) — سورة الرحمن : ١٩ - ٢٠ .

(٦) — انظر فصوص الحكم لابن عربي ٥٠/١ تحقيق : أبو العلا عفيفي وتعليقه عليه ، الناشر دار الكتاب العربي . بيروت

(دون تاريخ) . وانظر : الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون : ٣٦٩/٢ - ٣٧١ .

فهكذا يؤول ابن عربي الآي القرآنية ويخرج بها ويحولها عن هدفها الذي ترمي إليه هي إلى ما يقصده هو وبهذا جعل ابن عربي تفسيره بجمع الأفكار الفلسفية الغنوصية ، لكي يروج لنظرياتها تلك على حساب القرآن .

المطلب الخامس - وحدة الوجود وابن عربي

تمهيد : نظرية وحدة الوجود :

تعتبر هذه العقيدة عقيدة إلحادية قديمة ، كما تعتبر مذهباً فلسفياً من المذاهب التي اهتمت بها بعض المدارس ، ومذهب أخذت به المدارس الفلسفية والفكرية القديمة في محاولة منها وزعم لسير^(١) أغوار^(٢) هذا الوجود الإنساني الذي تعيش فيه ؛ ثم ولكي يتسنى لها من ثم معرفة الطريق السليم في نظرها للتعامل معه ضمن النواميس والقوانين التي تحكمه وفق ما ارتضته عقولهم ومما يجدر ذكره أن الوجود في اللغة مصدر خلاف العدم أما عند الصوفية فمعناه فقدان العبد بمحاق^(٣) أوصاف البشرية ووجود الحق ؛ لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة^(٤) .

مجل هذا المذهب :

ذكرنا في التمهيد بأن هذه النظرية قديمة ، واعتنقها بعض المذاهب والمدارس الفلسفية في القدم ، ونذكر هنا خلاصة لها :

"إن الكون صادر عن خالقه، وأن الموجودات ليست في ذاتها حقاً، إنما هي وهم باطل، والذي يعمل على وجودها هو الإدراك، وإذا انعدم الإدراك انعدم وجود الأشياء. فالأشياء لاوجود لها في الواقع، إنما وجودها رهين بوجود المدرك. أليست المدركات البصرية لاوجود لها عند فاقد البصر وهكذا المدركات السمعية؟... فإذا انعدمت الحاسة انعدم الوجود...، بل الموجودات المعقولة مشروطة بوجود الإدراك

(١) - أي قياس . انظر المعجم الوسيط : د . إبراهيم أنيس وغيره . مادة "سر" ٤١٣/١

(٢) - أي القعر والعمق . مادة : "غور" ٦٦٦/٢ يُقال : سر غوره أي : تبين حقيقته وسره . نفس المرجع ٦٦٦/٢ .

(٣) - النقص . انظر : المعجم الوسيط مادة : محق ، ٨٥٦/٢ .

(٤) - انظر : د /صابر طعيمة : الصوفية متعقداً ومسلماً ، ص : ٢٠٥ - ٢٠٦ (بتصرف يسير جداً) .

العقل، وقوى الإدراك هي التي تجعل من الأشياء وجوداً منفصل فيه ونحدد. فإذا انعدمت هذه القوى الإدراكية، انعدم تفصيل هذه الموجودات ولا يبقى إلا شئ واحد هي القوة الإلهية التي كان بها وجود هذه الأشياء وبغيرها لا وجود لها وهذه القوة تسري في كل موجود من الذرة إلى أسمى شئ في الوجود. فالله في كل شئ وهو كل شئ، وليس من شئ في الكون على هذا إلا ويستحق التقديس والإجلال، والكون على هذا وحدة منتظمة متناسقة بهذه القوة، وهذه القوة هي الحق الصراح، وهي الموجود الحق، وبها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها " (١).

ومما تجدر إليه الإشارة بأن زعيم هذه المدرسة ومؤسسها الحقيقي بشكله الكامل محي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ)، إذ أن جميع الذين سبقوه كانت لديهم اتجاهات متفرقة حول وحدة الوجود، وأن جميع الذين جاؤا بعده تأثروا به، أو نقلوا عنه ... (٢).

عقيدة وحدة الوجود عند ابن عربي

يقوم مذهب ابن عربي في وحدة الوجود، على أن الوجود كله واحد، وأن وجود المخلوقات عين وجود الخالق، ولا فرق بينهما من حيث الحقيقة. أما الفرق الظاهر بين الوجودين فلا يعدو كونه أمراً يقضي به الحس الظاهر، والعقل قاصر عن إدراك الحقيقة على ما هي عليه من "وحدة ذاتية" تجتمع فيها الأشياء جميعاً. وما في الوجود إلا الله، ونحن وإن كنا موجودين: فإنما كان وجودنا به، فمن كان وجوده بغيره، فهو في حكم العدم (٣).

(١) - أحمد توفيق عياد: التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ص ٢٧ - ٢٨. ملتزم الطبع والنشر: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة. المطبعة الفنية الحديثة ٢٠ شارع الأصبع بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١، ط سبتمبر ١٩٧٠م.

(٢) - انظر سميع عاطف الزين: الصوفية في نظر الإسلام (دراسة وتحليل) ص ٤٥٩. ط : ٤، ١٩٩٣م - ١٤١٣هـ - الشركة العالمية للكتاب - دار الكتاب العالمي - بيروت - لبنان .

(٣) - انظر سميع عاطف الزين: الصوفية في نظر الإسلام، ص ٤٦٠ - ٤٦٢ (بتصرف شديد) ط : ٤، ١٩٩٣م - ١٤١٣هـ - الشركة العالمية للكتاب - دار الكتاب العالمي - بيروت - لبنان .

وقد رد على هذه العقيدة الخطيرة التي تؤدي إلى القول بالحلول، ووحدة الأديان جمع من العلماء القدماء والمحدثين وأبطلوها بحجج دامغة مبينين الحق في ذلك^(١).

والآن نذكر بعضاً من أقواله التي جعلت أئمة الإسلام يقفون من ابن عربي هذ الموقف الشديد ، لتعلم أنهم ما قالوا هذه الكلمات عن هوى وعصبية ، وإنما قصدهم مناصرة الإسلام وقمع الباطل وتصفية العقائد من البدع .

ولتكن هذه الأمثلة من كتاب "الفصوص" الذي يبدو أن ابن عربي ألفه خصيصاً لتقرير عقيدة وحدة الوجود، وبه لقبته الصوفية الشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر، فصار إمام الطائفة القائلة بالوحدة ، ونكتفي بذكر ثلاثة أمثلة فقط ، لأن الكتاب كله في تقرير هذه العقيدة .

المثال الأول - في الفصل الإدريسي يوضح معنى الفرق والجمع، فيضرب

بالأعداد مثلاً، فإن كان وحدة عددية^(٢) يطلق عليها اسماً خاصاً يميزه عن غيره، وإذا نظرت إليها بعين الجمع وجدت أن الجميع يقع تحت اسم واحد^(٣)؛ ثم قال: "ومن عرف ما قررناه في الأعداد وأن نفيها عين إثباتها، علم أن الحق المتره هو الخلق المشبه، وإن كان قد تميز الخلق من الخالق ؛ فالأمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق الخالق، كل ذلك من عين واحد، لا، بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾^(٤). والولد عين أبيه، فما رأى من يذبح سوى نفسه. وفداه بذبح عظيم، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان، وظهر بصورة ولد-

(١) - انظر محمد أحمد لوح : تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ج ١ / ص ٥٣١ . دار ابن القيم للنشر والتوزيع هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ ، الدمام - مدينة العمال ، ودار ابن عفاان للنشر والتوزيع ، القاهرة - ١١ ش درب الأتراك والأزهر - خلف الجامع الأزهر - جمهورية مصر العربية ، ط : ١ ، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

(٢) - مثل : واحد ، اثنان ، ثلاثة ... إلى ما لا نهاية له .

(٣) - مثل : عشر ، مائة ، ألف ... الخ .

(٤) - سورة الصفات : ١٠٢ .

لا، بل بحكم ولد- من هو عين الوالد. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(١) فما نكح سوى نفسه
فمنه الصاحبة والولد والأمر واحد في العدد... فالعالم الطبيعة صورة في مرآة واحدة،
لا، بل صورة واحدة في مرآيا مختلفة، فما ثم إلا حيرة لتفرق النظر. ومن عرف ما
قلناه لم يحجر". وأضاف: "يتنوع الحق في المجلى فتتنوع الأحكام عليه، فيقبل كل
حكم وما يحكم عليه إلا عين ما تجلى فيه، وما ثم إلا هذا"، ثم ذكر الأبيات التالية :

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقاً بذاك الوجه فاذكروا
من يدر ما قلتُ لم تخذل بصيرته وليس يدر به إلا من له بصر
جمع وفرق فإن العين واحدة وهي الكثيرة لا تبقى ولا تندر^(٢)

أقوال : إن كل حرف في النص يدل على تمكن ابن عربي في تقرير عقيدته في واحة
الوجود .

المثال الثاني - يقول ابن عربي : "فكل ما ندركه فهو وجود الحق في أعيان
الممكنات . فمن حيث هوية^(٣) الحق هو وجوده ، ومن حيث اختلاف الصور فيه
هو أعيان الممكنات، فكما لا يزول (عن الظل) باختلاف الصور اسم الظل ، كذلك
لا يزول باختلاف الصور اسم العالم أو اسم سوى الحق ، فمن حيث أحدية كونه
ظلاً هو الحق ، لأنه الواحد الأحد. ومن حيث كثرة الصور هو العالم فتفطن وتحقق
ما أوضحت لك ، و إذا كان الأمر على ما ذكرته لك فالعالم متوهم ماله وجود
حقيقي ، وهذا معنى الخيال . أي خيال لك أنه أمر زائد قائم بنفسه خارج عن الحق
وليس كذلك في نفس الأمر"^(٤).

قلت : معنى العبارة بالإيجاز أن الله هو كل شيء ، والممكنات تعينات ومظاهر له.

(١) - سورة النساء : ١ .

(٢) - ص ٧٧ - ٧٩ .

(٣) - هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق . انظر : التعريفات : لعللي

بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ، دار الكتب العلمية سنة (١٤٠٣هـ) .

(٤) - فصوص الحكم : لابن عربي ص ١٠٣ ، تحقيق : أبي العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي (١٩٤٦م) .

المثال الثالث- يقول: "اعلم أن العلوم الإلهية الذوقية الحاصلة لأهل الله مختلفة باختلاف القوى الحاصلة منها مع كونها ترجع إلى عين واحدة. فإن الله تعالى يقول: "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يسعى بها"^(١). فذكر أن هويته هي عين الجوارح التي هي عين العبد، فالهوية واحدة والجوارح مختلفة"^(٢).

وهذا الحديث الذي استدل به ابن عربي وغيره من الصوفية لإثبات الحول والوحدة، إنما هو في الواقع حجة عليهم لا لهم، وذلك من وجوه؛ منها:

١. قوله: "من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة" فأثبت معادياً محارباً، وولياً غير المعادي.

٢- قوله: "وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه". فأثبت عبداً متقرباً إلى ربه، ورباً افترض عليه فرائضه.

٣- قوله: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه". فأثبت متقرباً ومتقرباً إليه ومحباً ومحبوباً غيره.

٤- قوله: "لئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه". فأثبت سائلاً ومستولاً غيره، ومستعيذاً ومستعاضاً به غيره، وهذا كله ينقض قولهم: الوجود واحد...

والحديث حق وعلى ظاهره؛ فإن ولياً الله لكمال طاعته لله ومحبتة لله، يبقى عمله لله، فما يسمعه مما يحبه الحق أحبه، وما يسمعه مما يبغضه الحق أبغضه، وما يراه مما يحبه الحق، وما يراه مما يبغضه الحق أبغضه، فيبقى محبوباً الحق محبوبه، ومكروه الحق مكروهه ومأمور الحق مأموره، وولي الحق وليه، وعدو الحق عدوه^(٣).

(١) - هو جزء من الحديث القدسي الذي رواه البخاري وغيره، انظر صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسننه وأيامه) كتاب الرقائق، باب التواضع.

(٢) - الفصوص ص: ١٠٧.

(٣) - انظر أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "مجموعة الرسائل والمسائل" ١/١١٦. دار الكتب العلمية عام (١٤٠٣هـ)،

بيروت - لبنان.

المطلب السادس - تأثر ابن عربي في تفسيره بنظرية وحدة الوجود ونماذج ذلك :

إن ابن عربي تأثر في تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود التي هي أهم النظريات التي بنى عليها تصوفه ، فنراه في كثير من الأحيان يشرح الآي على وفق هذه النظرية ويخرج بالآية عن مدلولها الذي أراده الله تعالى .

وهاك أمثلة لوحدة الوجود من التفسير المنسوب لابن عربي^(١) وكتبه الأخرى.

(١) — من الأمانة أن نقول بأن المحققين من العلماء قد ذهبوا إلى أن هذا التفسير الذي طبع باسم ابن عربي ليس له في الحقيقة ، وإنما هو للقاشاني الباطني وإليك كلامهم في ذلك :

أولاً — ممن يرى هذا الرأي الإمام الشيخ محمد عبده (رحمه الله) وتبعه في ذلك تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا حيث يقول في مقدمة تفسير المنار عن التفسير الإشاري : وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ومن ذلك التفسير الذي ينسونه للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير وفيه من الزعجات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز . (انظر تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ١/١٨ ، ط : ٢ ، دار المعرفة ، بيروت — لبنان) .

ثانياً — ومن ذهب إلى ذلك أيضاً الدكتور محمد حسين الذهبي (رحمه الله) ، غير أنه يذهب إلى أن القاشاني ليس من الباطنية . وأيد رأيه بأن التفسير للقاشاني بما يلي :

❖ أن جميع النسخ الخطية منسوبة للقاشاني والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى ؛ لأنها الأصل الذي أخذت عنه النسخ المطبوعة.

❖ ذكر مؤلف كشف الظنون : (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشاني ، هو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين أبي الغنائم عبدالرزاق جمال الدين الكاشي السمرقندي ، المتوفى سنة ٧٣٠هـ [في الأصل سنة ٨٨٧هـ وهو خطأ] أوله (الحمد لله الذي جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته ... الخ) . (انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب الفنون : للمولى مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجي خليفة ١/٣٣٦ ط دار الفكر عام (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، بيروت - لبنان. قال الدكتور الذهبي: وقد رجعنا إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربي فوجدناه أوله هذه العبارة المذكورة بنصها .) انظر تفسير القرآن الكريم للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ١/٣ ، تحقيق : د/مصطفى غالب، ط انتشارات ناصر خسرو، طهران - إيران).

❖ في تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى في الآية (٣٢) : ﴿وَاصْنُمِ إِلَيْكَ جَنَّاتِكِ مِنَ الرَّهْبِ﴾ يقول: (... وقد سمعت شيخنا نورالدين عبدالصمد قدس روحه العزيز في شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه ... الخ) . انظر (تفسير ابن عربي ٢/٢٢٨) . ثم يستطرد الذهبي (رحمه الله) قائلاً : (ونورالدين هذا هو نورالدين عبد الصمد بن علي النظري الأصفهاني ، والمتوفى في أواخر القرن السابع ، وكان شيخاً لعبدالرزاق القاشاني، المتوفى سنة (٧٣٠هـ) ، كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس في مناقب الأولياء ص ٥٣٤/٥٣٧ . وغير معقول أن يكون نورالدين عبدالصمد النظري المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري شيخاً لابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ . لهذا -

النموذج الأول من التفسير :

ورد في ثنايا هذا التفسير المنسوب لابن عربي كثيراً من العبارات التي تدل على وحدة الوجود . يقول الشيخ خالد عبدالرحمن العك : (سلك القاشاني^(١) في التفسير الذي نسبه إلى "ابن عربي"، منهج "وحدة الوجود" القائمة على اعتبار أن "كل العالم بظواهره ومظاهره ما هو إلا مجال لوجودالحق" - أي: "الله" تبارك وتعالى عما يصفون -^(٢) .

❖ فحين يفسر قوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ كَرَّمْنَا نَبِيَّكَ وَآتَيْنَاكِ الْكِتَابَ وَالْحَدِيثَ الْغَدِيرَ﴾ قال ما نصه: "واذكر ربك الذي هو أنت ، أي : اعرف نفسك واذكرها و لا تنسها فينسك الله، واجتهد لتحصيل كما لها بعد معرفة حقيقتها ... ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: الذي ظهر عليك نوره من أفق وجودك بإيجادك ، والمغرب: الذي اختفى بوجودك وغرب نوره فيك ، واحتجب بك"^(٤) اهـ

❖ وعند قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٥) يقول : ... ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ﴾ حق ﴿الْيَقِينُ﴾ فتنتهي عبادتك بانقضاء وجودك فيكون هو العابد والمعبود جميعاً لا غيره^(٦) .

- كله نستطيع أن نجزم أن هذا التفسير ليس لابن عربي ، وإنما هو لعبدالرزاق القاشاني الصوفي . انظر التفسير والمفسرون : الدكتور محمد حسين الذهبي ٤٣٦/٢ - ٤٣٩ .

قلت : وقد نسب هذا الكتاب إلى القاشاني - أو الكاشي - العلامة إسماعيل باشا البغدادي في كتابه "هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين" ٥٦٧/١ . ط دار الفكر عام (١٤٠٢هـ) ، بيروت - لبنان .

(١) - أو الكاشي .

(٢) - انظر أصول التفسير وقواعده ص ٢٤ .

(٣) - سورة المزمل الآيتان ٨ - ٩ .

(٤) - تفسير القرآن الكريم لابن عربي ٧٢٠/٢ - ٧٢١ ، تحقيق : د/ مصطفى غالب ط انتشارات ناصر خسرو، طهران - إيران . و انظر الشيخ خالد عبدالرحمن العك : أصول التفسير وقواعده ص ٢٤٠

(٥) - سورة الحجر : الآية ٩٩ .

(٦) - انظر تفسير القرآن الكريم لابن عربي ص ٦٧٠/١ .

وأكتفي بالمثالين المذكورين ، لأن الكتاب مليء بالخرافات ولا يستحق اسم تفسير القرآن بأي حال .

النموذج الثاني : فيما ورد مبثوثاً في ثنايا الكتب الأخرى لابن عربي كالفتوحات المكية وفصوص الحكم .

١ . في الفتوحات عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَالِهَكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا﴾^(١) . يقول ما نصه : " ... إن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين ، والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله ، فما عبدوا إلا الله ، فلما قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ؛ فأكدوا ذكر العلة ، فقال الله لنا : إن إلهكم ، والإله الذي يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذي أشرك به واحد ، كأنكم ما اختلفتم في أحديته .. " اهـ^(٢)

٢ . وردت عبارات كثيرة الدالة على وحدة الوجود في فصوص الحكم ، فاكثفي بمثالين فقط ، لأن الكتاب كما ذكرت^(٣) قبل ذلك كُتِبَ في تقرير هذه العقيدة الفاسدة .

► فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في أول سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الخ^(٤) نجده يقول : ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم ، واجعلوا ما بطن منكم - وهو ربكم - وقاية لكم ؛ فإن الأمر ذم وحمد ، فكونوا وقايته في الدم ، واجعلوه وقايتكم في الحمد تكونوا أدباء عالمين^(٥) .

► وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَاَدْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٦) ؛ يقول ابن عربي : (... وادخلي جنتي التي هي ستري ، وليست جنتي سواك ، فأنت

(١) - سورة البقرة : الآية ١٦٣

(٢) - ابن عربي : الفتوحات المكية ١٠٩/٤ ، ١٦٠ .

(٣) - راجع ص من هذا الكتاب

(٤) - الآية رقم (١) .

(٥) - فصوص الحكم مع شرحه مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم ج ١ ص ٢١٤

(٦) - سورة الفجر ٢٩ - ٣٠ .

تستري بذاتك الإنسانية فلا أعرف إلا بك ، كما أنك لا تكون إلا بي؛ فمن عرفك عرفني ، وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف ، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى ، غير المعرفة التي عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها . فتكون صاحب معرفتين : معرفة به من حيث أنت ، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت ، فأنت عبد رأيت رباً، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد ... الخ^(١). نلاحظ من خلال النصوص المذكورة بأن ابن عربي يعتقد عقيدة وحدة الوجود؛ وهي تظهر في هذه الشواهد التي نستخرجها من تلك النصوص :

➤ "أنت رب وأنت عبد " .

➤ و "فيكون هو العابد والمعبود جميعاً " .

➤ و "واذكر ربك الذي هو أنت " .

هكذا يصدق على هذا ما قاله الدكتور أبو العلاء عفيفي ملخصاً أسلوب ابن عربي : "أنه يحول القرآن بمنهجه الخطير في التأويل إلى قرآن جديد"^(٢) .

المطلب السابع - قياسه الغائب على الشاهد

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي : نجد ابن عربي يفهم بعض النصوص القرآنية فهماً خيالياً متزعماً من المشاهد المحسوس، على سبيل المثال عند ما يفسر قول الله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(٣) .

(١) - انظر فصوص الحكم ج ١ ص ٤٢٠ - ٤٢٣ ، وانظر التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٣٧١ - ٣٧٠ .

(٢) - ابن عربي في دراساتي : الكتاب التذكري ص ١٣ .

(٣) سورة الرحمن : ١ - ٩ .

يقول ما نصه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ على أي قلب نزل ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾
 فعين له الصنف المتزل عليه ، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي نزل له البيان فأبان عن المراد الذي
 في الغيب ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ميزان حركات الأفلاك ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ
 يَسْجُدَانِ﴾ لهذا الميزان أي من أجل هذا الميزان ، فمنه ذوساق وهو الشجر ومنه ما
 لا ساق له ، وهو النجم ، فاحتلفت السجدتان ، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ وهي قبة
 الميزان ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ليزن به الثقلان ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ بالإفراط
 والتفريط من أجل الخسران، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ مثل اعتدال نشأة الإنسان
 إذ الإنسان لسان الميزان ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تفرطوا بترجيح إحدى
 الكفتين إلا بالفضل ، وقال تعالى : ﴿وَوَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾^(١) ؛ فاعلم أنه ما
 من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكمٌ عليه علماً وعملاً فللمعاني
 ميزان بيد العقل يسمى المنطق ، يحتوي على كفتين تسمى المقدمتين ، وللكلام ميزان
 يسمى النحو يوزن به الألفاظ لتحقيق المعاني التي تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان ،
 ولكل ذي لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذي قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: ﴿وَمَا
 نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٢) ، ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾^(٣) وقد خلق جسد الإنسان
 على صورة الميزان ، وجعل كفتيه : يمينه وشماله ، وجعل لسانه : قائمة ذاته . فهو
 لأي جانب مال ، وقرن الله السعادة باليمين ، وقرن الشقاء بالشمال ، وجعل الميزان
 الذي يوزن بالأعمال على شكل القبان ، ولهذا وصف بالثقل والخفة ؛ ليجمع بين
 الميزان العددي وهو قوله تعالى: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ وبين ما يوزن بالرطل ، وذلك لا يكون
 إلا في القبان ، فلذلك لم يعين الكفتين ؛ بل قال : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٤) في

(١) سورة الأنبياء : الآية (٤٧) .

(٢) سورة الحجر : الآية ٢١ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٢٧ .

(٤) سورة الفارعة : الآية (٦) .

حق السعداء ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾^(١) في حق الأشقياء ، ولو كان ميزان الكفتين لقال : وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا ، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا . وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان ، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضاً إذا رجحت على الحسنات ، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القبان ... اهـ^(٢) .

ولا شك أن هذا التفسير الذي أقامه ابن عربي على تلك نظريات الفلاسفة في الطبيعة وما وراء الطبيعة لا يقبل بحال من الأحوال على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذي نزل القرآن لأجله .

المطلب الثامن - إخضاع ابن عربي قواعد النحو لنظرياته الصوفية

وكذلك ابن عربي في بعض الأحيان يلجأ إلى القواعد النحوية ويستعين بها في تفسيره الصوفي النظري وهكذا يؤول الآية ويخضعها لتدعيم آرائه وذوقه ، فنجده مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾^(٣) يقول : ... وقوله ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ العامل في هذا الظرف في طريقنا ؛ قوله : ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ﴾ أي من يعظمها عند ربه ، أي في ذلك الموطن ، فلتبحث في المواطن التي تكون فيها عند ربك ما هي ؟ ... كالصلاة مثلاً ، فإن المصلي يناجي ربه ، فإذا عظم حرمة الله في هذا الموطن كان خيراً له ... والمؤمن إذا نام على طهارة فروحه عند ربه ، فيعظم هناك حرمة الله ، فيكون الخير الذي له في مثل هذا الموطن المبشرة^(٤) التي تحصل له في نومه أو يراها له غيره ... والمواطن التي يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمت الله على الشهود ...^(٥) .

(١) سورة الفارعة : الآية (٨) .

(٢) انظر ابن عربي ، الفتوحات المكية ٦ / ٣ ، وكذلك محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون : ٣٧٣ / ٢ - ٣٧٤ .

(٣) سورة الحج : الآية ٣٠ .

(٤) — الفرج والسرور . انظر المعجم الوسيط ؛ مادة بشر ، ٨٥ / ١ .

(٥) — انظر الفتوحات المكية ٤ / ١١٥ ، و د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٣٧٤ / ٢ .

المبحث الثالث

التفسير الصوفي النظري في الميزان :

المبحث الثالث - التفسير الصوفي النظري في الميزان :

تبين من الأمثلة السابقة بأن التفسير الصوفي النظري تفسير يخرج بالقرآن - في الغالب - عن الهدف الذي أنزل لأجله القرآن .

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: يقصد القرآن هدفاً معيناً بنصوصه وآياته، وبقصد الصوفي هدفاً معيناً بأبحاثه ونظرياته. وقد يكون بين الهدفين تافر وتضاد. فيأبي الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده، إلى ما يقصده هو ويرمي إليه، وغرضه بهذا كله: أن يروح لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه عن أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته التصوفية ولم يعمل للقرآن شيئاً، اللهم إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله^(١).

رأينا ابن عربي كيف أنكر العالم الظاهر في مذهبه القائم على فكرة وحدة الوجود فجعله أمراً مبنياً على الوهم دون أن تكون له حقيقة ، وأنه لا فرق بين الخالق والمخلوق وأن الله يحوي في ذاته كل المخلوقات . ومن أجل هذا المذهب الفاسد حرّف ابن عربي الآي القرآنية لتوافق مذهبه ومعتقده .

وقد تصدى لهذا المذهب الضال العلماء قديماً وحديثاً بالنقد والتفنيد ، وكان ابن تيمية (رحمه الله تعالى) ، القائد الأول لحركة الطعن التي وجهت إليه سهام التكفير والتشنيع بعد ما درس الفلسفة والتصوف وقرأ بدقة كتابي (الفتوحات المكية وفصوص الحكم) وغيرهما من كتبه ودقق فيها النظر ؛ ثم نقدها بشدة وفحصها بميزان الشرع القويم . وهكذا انتقد ابن تيمية هذا المذهب الباطل انتقاداً مرأً في رسائله المتعددة ، كما ألف رسالة : "الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم" .

وقد سلط ابن تيمية الأضواء على مذهب ابن عربي ، وكشف النقاب عن الأصول التي اعتمد عليه ، وبيان ذلك أن مذهب ابن عربي يقوم على أصلين هما:

(١) (المعدوم شيء ثابت في العدم .

(١) - انظر التفسير والمفسرون ٢/٣٧٥ .

(٢) وجود الأعيان نفس وجود الحق .

أما الأصل الأول فقد نشأ عند ابن عربي من علم الله الأشياء قبل إيجادها، فابن عربي فهم من علم الله هذه الأشياء أنها لا بد أن تكون ثابتة في العدم، وإلا لما علمت، وتعلق بها العلم. وهذه شبهة واهية؛ لأن علم الله الشيء لا يستلزم ثبوته في العدم، فالإنسان يعلم الموجود، والمعدوم الممكن، والمعدوم المستحيل كما يعلم ما أخرج الله به عن أصحاب النار من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(١) و﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾^(٢) ونحو ذلك من الجمل الشرطية التي ينتقي فيها الشرط وجوابه .

فهذه أمور نتصورها نوع تصور ، ولا يكون لها ثبوت في الخارج ، فثبوت الشيء في العلم والتقدير ليس ثبوتاً لعينه في الخارج .

وإن تسمية المعدوم شيئاً غير صحيحة ، فالمعدوم لا يسمى شيئاً كما دل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾^(٣) . وقوله تعالى : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٤) ^(٥) .

وأما الأصل الثاني فباطل لتضمنه إنكار وجود الحق وإنكار خلقه لمخلوقاته ، فلا خلق ، ولا مخلوق ، ولا خالق ، ولا رب ، ولا مربوب ، إذ ليس إلا أعيان ثابتة، ووجود قائم بها، وليست الأعيان مخلوقة ، ولا الوجود مخلوقاً ، ومن البديهي أن قوله يناقض صريح القرآن والسنة الدالة على الخلق ، والربوبية في غاية البطلان^(٦) .

(١) - سورة الأنعام : الآية ٢٣ .

(٢) - سورة الأنفال : الآية ٢٨ .

(٣) - سورة مريم : الآية ٩ .

(٤) - سورة مريم : الآية ٦٧ .

(٥) - انظر ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ٤ / ٦ - ٧ - ٨ - ١٤ ، مطبعة المنار ، سنة (١٣٤٩هـ) ط: ١ .

(٦) - انظر مجموعة الرسائل والمسائل ٤ / ١٧ .

وقد رد على ابن عربي ومذهبه في وحدة الوجود عدد ضخم من المحدثين ؛
ونكتفي بما رد عليه الأستاذ الدكتور أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني شيخ الطريقة
الخلوتية في مصر، حيث يقول: (ابن عربي هو أول واضع لمذهب وحدة الوجود، وهو
مذهب يقوم على دعائم ذوقية أساساً ، وهو يقول معبراً عن مذهبه هذا باختصار:
"سبحان من خلق الأشياء وهو عينها" (١) .

وذلك أنه لا يؤمن بالخلق من العدم ، أي أن العالم وجد من العدم في زمان.
وهو ما يعرف عند غير أصحاب وحدة الوجود بخلق العالم .

ويؤمن ابن عربي في نظريته في الوجود بالفيض (Emanation) وهو يعني
بالفيض أن الله أبرز الأشياء من وجود علمي إلى وجود عيني . ويفسر ابن عربي وجود
الموجودات بـ "التجلي الإلهي الدائم الذي لم يزل ولا يزال وظهور الحق في كل آن
فيما لا يحصى عدده من الصور" (٢) . ثم يقول في نهاية كلامه : (خلاصة القول أن
وجود الممكنات في رأي ابن عربي هو عين وجود الله ، وليس تعدد الموجودات
وكثرتها إلا وليد الحواس الظاهرة ، والعقل الإنساني القاصر هو الذي يعجز عن إدراك
الوحدة الذاتية للأشياء، فالحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها، متكررة بصفات
وأسمائها لا تعدد فيها إلا بالإعتبارات والنسب والإضافات، إذا نظرت إليها من
حيث ذاتها، قلت هي الحق، وإذا نظرت إليها من حيث صفاتها قلت هي الخلق) (٣) .

وتترتب على هذا المذهب الفاسد نتائج خطيرة ، من أهمها :

١ - (نفي ألوهية الله سبحانه وتعالى وإثبات الكائنات وحدها...) (٤) .

(١) - انظر ابن عربي : الفتوحات المكية ٦٠٤/٢ .

(٢) - مقدمة الفصوص ص ٢٨ . وانظر د. أبو الوفاء التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٢٠٠ - ٢٠١ دار
الثقافة للنشر والتوزيع . ٢ شارع سيف الدين المهراي ، الفحالة . ت/ ٩٠٤٦٩٦ - القاهرة .

(٣) - انظر مقدمة الفصوص ص ٢٤ . وانظر د. أبو الوفاء التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٢٠٢ .

(٤) - انظر محمد الغزالي : ركائز الإيمان بين العقل والقلب ص ١٥٩ . الناشر : مكتبة الأمل . الكويت - السالمة ت

- ٢- القول بالجبر والحتمية والإحتجاج بالقدر على فعل المحذور .
- ٣- (عدم التفرقة بين الطاعة والمعصية ؛ لأنها تستلزم اثنيية وتعدداً ، وتستلزم مطيعاً ومطاعاً ، وعاصياً ومعصياً ، هذا عندهم محض الشرك والتوحيد المحض يأباه) ^(١) .
- وهو يعني إبطال التكليف والإنسلاخ من الأوامر والنواهي الشرعية ونفي الحساب والثواب والعقاب . لأن التكليف هو أوامر ونواه من الله للعبد ، وهذا لا يتصور عند من قال بوحدة الوجود، لأنه اعتبر العالم مظهراً لوجود الله ؛ فلا يمكن التكليف بناء على رأيه ، إذ لا يتصور أن يكلف الله نفسه .
- ٤- القول بوحدة الوجود ينافي ما هو مقرر في الدين الإسلامي من وجود قديم هو وجود الله ووجود حادث هو وجود العالم، وأن هذا الوجود الحادث من صنع الله.
- ٥- هذا المذهب يؤدي إلى نفي التغاير بين العبد والرب ويترتب على ذلك تعطيل العبودية وتعطيل الصفات، وأنكار الصانع وصفاته وعبوديته ^(٢) وكذلك يؤدي هذا إلى إسقاط صفة الربوبية ، إذ لا يتصور رب دون مربوب .
- ٦- (تترتب عليه نظرية الإنسان* الكامل أو الحقيقة المحمدية) ^(٣) .
- ٧- يؤدي القول بوحدة الوجود إلى وحدة الأديان . يقول الدكتور أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني : (ويذهب ابن عربي إلى القول بوحدة الأديان كنتيجة مترتبة على قوله بالإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية ، إذ مصدر الأديان عنده واحد هو الحقيقة المحمدية، فالدين كله واحد، وهو الله) ^(٤) .

(١) — انظر ابن قيم الجوزية : "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" ٨٣/١ .

(٢) — انظر ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١٤٥/١ .

* وسوف تأتي الدراسة الشاملة عنها في الباب الثاني إن شاء الله .

(٣) — انظر د. أبو الوفاء التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٢٠٣ .

(٤) — انظر : مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٢٠٣ .

وانظر هامش دائرة المعارف الإسلامية : M.TH.Houstma وغيره، أصدرها بالعربية : أحمد الششناوي ، وإبراهيم

زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس ٢٣٣/١ ، دار الفكر.

فيرى صاحب عقيدة وحدة الوجود أن الأديان سواء كانت سماوية أو وضعية
(وثنية) سواء ، فلا فضل لدين على آخر ، وبه قال من تبعه كابن فارض^(١)
وجلال الدين الرومي وعبد الكريم الجبلي^(٢) وغيرهم.
(ومن هنا صحح أمام هذه العقيدة ألوهية فرعون)^(٣) .

(١) — انظر ديوانه ص ١١٤ ، ١١٥ ، بيروت — لبنان عام (١٨٨٧م) .

(٢) — هو عبد الكريم بن إبراهيم الجبلي القادري صوفي كبير مقلس فكره وآراؤه عند الصوفية ، مات سنة (٨٣٢هـ) .
له تصانيف ؛ أشهرها : "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل" . انظر معجم المؤلفين : لعمر رضا كحالة ، ٥ /
٣١٣ ، دار إحياء التراث العربي ن بيروت لبنان . انظر "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل" ٤٢/٢ ، مكتبة
صبيح ، القاهرة ١٩٦٠ م . وانظر الدكتورة سهيلة عبد الباعث الترجمان : وحدة الوجود بين ابن عربي والجبلي
(دراسة تحليلية نقدية مقارنة) ص ٥٩١ وما بعدها ط: ١ عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ، بيروت — لبنان ، منشورات
مكتبة خزعل.

(٣) — انظر كتابه الفصوص ص ٢١٠ ، ٢١١ .

يقول ابن عربي :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقده^(١)

ويقول أيضا :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن^(٢)

وواضح كل الوضوح معالم الشرك البين في الآيات المذكورة ، كما أنه يحذر أتباعه أن يؤمنوا بدين خاص ، ويكفروا بما سواه ؛ فيقول : فإياك أن تتقيد بعقد [معتقد]^(٣) مخصوص ، وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير ؛ بل لا يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه ، فكن في نفسك "هيوبي"^(٤) لصور المعتقدات كلها ، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد مرَضِيٌّ عنه^(٥) .

يقول ابن عربي في كلمة جامعة واضحة : "والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه ، ولذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو انسان أو كوكب أو ملك"^(٦) .

(١) — انظر شرح الفصوص لعبدالرحمن جامي شرح الفص المهودي نقل عن كتاب (هذه هي الصوفية) : عبدالرحمن الوكيل ص ٩٣ دار الكتاب العلمية ، بيروت — لبنان — ط-٤ سنة ١٩٨٤ م

(٢) — ابن عربي : ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق ص ٩٣ . نقل عن (هذه هي الصوفية) لعبدالرحمن الوكيل ص ٩٣ و ((الصوفية معتقداً ومسلكاً)) د. صابر طعيمة ص ٢٤٣

(٣) — من الباحث .

(٤) — "هيوبي" لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة ، وفي الإصطلاح الفلسفي هي "مابه الشيء با لقوة ، أو جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال" . وقد استعملها ابن عربي هنا بمعنى القابل ، أي الذي تنطبع فيه صور المعتقدات كلها ، وينفعل بما ، وتصدر عنه أفعاله طبقاً لمعتقداته المتنوعة .

(٥) — فصوص الحكم بشرح بالي ص ١٩١ وما بعدها ؛ نقل عن : "هذه هي الصوفية" لعبدالرحمن الوكيل ص ٩٣ - ٩٤

(٦) — الفصوص ص ١٩٥

يعني أن أسماء المعبودات و إن اختلفت فإن حقيقة المعبود واحد وهو الله .
وهكذا تساوي عند أصحاب هذه العقيدة الفاسدة الكفرو الشرك والمجوسية و
اليهودية والمسيحية وكل ضروب الضلال مع الإسلام .
ثبت مما مضى بأن الإيمان بعقيدة وحدة الوجود يعتبر كفراً بواحاً وشركاً
صريحاً لا يحتاج إلى تبرير ولا إلى تأويل فقد كان من البداهة أن تكون المؤثرات في هذه
العقيدة غير إسلامية ومن ثم أن يكون مردها غير اسلامي . وهذه العقيدة جديدة
ومستوردة إلى الإسلام (من اليونان إغريقية والهندوسية والبوذية) ^(١) . وهو مذهب لا
ديني ، جوهره نفي الذات الإلهية ، حيث يوحد في الطبيعة بين الله تعالى وبين الطبيعة
والله سبحانه وتعالى منزّه عن الاتحاد بمخلوقاته أو الحلول فيها .

وختاماً أذكر ما قاله الدكتور محمد حسين الذهبي في تقويمه للتفسير الصوفي
النظري : (ورأى أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن
نقبله مهما كان قائله . وكذلك التفسير الذي أسس على نظريات الفلاسفة الذين
بحثوا في الطبيعة وماوراء الطبيعة ، والذي جرى عليه ابن عربي وغيره من المتصوفة في
تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية . لا نقبله على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى
ومقصوده الذي جاء القرآن من أجله ، وإن كنا نقبله - إن صح - على أنه مما تحتمله
الآية مادام لا يعارض القرآن ولا ينافيه ، على أن كل ما جاء من ذلك لا يعدو أن يكون
ظنياً ، وقد يظهر خطؤه في يوم من الأيام ، فكيف نحمل عليه القرآن الكريم الذي لا
يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ؟ .

وأما التفسير الذي يبني على قياس الغائب على الشاهد كتفسير ابن عربي لحقيقة
الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة ، فهذا أيضاً ضرب من التخمين ، والتخمين

(١) - انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة : إشراف وتخطيط ومراجعة د. مانع بن حماد الجهني
٧٩٣/٢ . الناشر دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الثالثة (٣) ، الرياض عام ١٤١٨ هـ .

لا يجوز أن يدخل في فهم الأشياء التي لا يتوصل إلى حقيقتها إلا من طريق السمع عن المعصوم (صلى الله عليه وسلم) .

و أما التفسير الذي يبني على قواعد نحوية أو بلاغية، فهذا إن ساعده السياق والسباق قبل، وإلاّ أعرضنا عنه و أخذنا بما يصححه النظر و يقويه الدليل .

هذا هو رأينا في التفسير الصوفي النظري ، و ليس لدينا من المعاذير ما نستطيع أن نلتمسه للقوم حتى نصحح لهم مثل هذا التفسير ، الذي يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه ^(١) .

(١) - انظر التفسير والمفسرون ج٢ ص ٣٨٠-٣٨١

المبحث الرابع

التفسير الصوفي الإشاري أو الفيضي وفيه مطلقان :

المطلب الأول - تعريف الإشارة و أنواعها :

المطلب الثاني - تعريف التفسير الإشاري :

المبحث الرابع - التفسير* الصوفي الإشاري أو الفيضي وفيه مطلبان :

المطلب الأول - تعريف الإشارة و أنواعها :

(أ) - في اللغة :

الإشارة في اللغة: الإيماء باليد . أشار الرجل : يشير إشارة إذا أوماً بيديه ويقال: شورت إليه بيدي وأشرت إليه أي لوححت إليه وألحت أيضاً. وأشار إليه باليد أوماً^(١). وجاء في المعجم الوسيط : الإشارة : تعيين الشيء باليد ونحوها ، والتلويح بشيء يفهم منه المراد^(٢) .

وفي مختار الصحاح : أشار إليه باليد ، أوماً وأشار عليه بالرأي^(٣). والإشارة - كما يقول الجاحظ - أبعد من الصوت... حُسْنُ الإشارة من تمام حُسْنِ الكلام...^(٤). ولما ذكر الجاحظ أصناف الدلالات، قال : "أولها : اللفظ ، ثم الإشارة ..."^(٥)، وقال : "والإشارة واللفظ شريكان ، ونِعَمَ العونُ هي له ، ونِعَمَ الترجمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغني عن الخط" ثم يقول : "فهل تَعُدُّو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على إختلافها في طبقاتها ودلالاتها"^(٦)؟ وقال : "ولو لا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ..."^(٧)

* وقد سبق تعريف التفسير لغة واصطلاحاً .

(١) - انظر ابن منظور : لسان العرب ٤/٤٣٧ .

(٢) - انظر ج ١ ص ٤٩٩ قام باخراجه هذه الطبعة د. ابراهيم وغيره من قبل الجمع اللغة العربية ، مصر .

(٣) - انظر ص ٣٥ ، مكتبة دار النهضة ، بغداد

(٤) - انظر البيان والتبيين ١/٧٩ تحقيق : عبدالسلام هارون ، ط الخانجي .

(٥) - نفس المصدر ١/٧٧ .

(٦) - نفس المصدر ١/٧٧ .

(٧) - انظر الجاحظ : البيان والتبيين ١/٧٧ وما بعدها .

(ب) - تعريف الإشارة في الإصطلاح :

"ما ثبت بنفس الصيغة من غير أن يُساق له الكلام .^(١) : وقال ولو لا الإشارة لم يفاهم الناس معنى خاص الخاص...^(٢)

(ج) - أنواع الإشارة : والإشارة قسمان : (حسية وذهنية .

١. أما الإشارة الحسية : فهي ما تكون في معاني أسماء الإشارة ...

٢. وأما الإشارة الذهنية : فهي ما يتضمنها الكلام في معانيه الكثيرة ، بحيث لو عبّر عنها لاحتاجت لألفاظ كثيرة ... وكذلك يقال لها الإشارة المعنوية :
والتفسير الإشاري من هذا القبيل ...^(٣) .

المطلب الثاني - تعريف التفسير الإشاري :

وقد عرفه بعض العلماء بقولهم : "هو تأويل القران بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضا"^(٤) .

وشرح الدكتور إبراهيم بسيوني هذا التعريف شرحاً موجزاً حيث قال : "إن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الالفاظ مفردة او مركبة دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية ، و إنما ينظر الى اللفظة القرانية على

(١) - السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات ص ١٣ ط دار السرور ، بيروت لبنان .

(٢) - انظر الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٧ وما بعدها .

(٣) - انظر الشيخ خالد عبدالرحمن العك : أصول التفسير وقواعده ص ٢٠٦ ، دار النقائس للطباعة والنشر والتوزيع
٣ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م . بيروت - لبنان .

(٤) - محمد عبدالعظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ص ٧٨ ، دار فكر للطباعة والنشر والتوزيع . وانظر محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٣٨١/٢ و / فهد بن عبدالرحمن الرومي : اتجاهات التفسير في القرآن ٣٦٧/١ الرياض - السعودية الايع عشر ومحمد علي الصابوني : التبيان في علوم القرآن ص ١٦٩ ، مكتبة الغزالي ، دمشق طبع في عام ١٩٨١م .

أها ذات جوهر يرق على الفهم العادي ، و أهل التجريد و حدهم هم الذين يتاح لهم
- بفضل الله - العلم الذي يكشفون به عن هذا الجوهر^(١).

وقد عرفه بعض الآخر :

١. هو تأويل آيات القرآن على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية ورموز
تظهر لأرباب السلوك^(٢).

٢. هو تصرف الفاظ القرآن عن ظواهرها إلى معان أخرى رمزية أو إشارية فعن طريق
الرمز والإشارة يراد من القرآن أشياء، لاتفهم من ظاهر اللفظ ، وإنما تؤخذ من باطنه،
وقد يطلق على هذا النوع من التفسير اسم القول بالباطن في تفسير القرآن الكريم^(٣).

وعند ما نقارن بين التعريفات يظهر أن التعريف الأول أجمع وأشمل من التعريف
الثاني ؛ لاشتماله على امر مهم ألا وهو إمعانية الجمع بين التفسير الإشاري و بين
الظاهر المراد .

عند تدقيق النظر في التعريفات المذكورة ؛ نستنبط ما يلي :

١. (أن تزكية النفس و الإرتقاء بها في مقامات العبودية ، تعتبر حجر الزاوية لهذا اللون
التفسيري ؛ فهو ليس من العلم "الكسبي" الذي ينال بالبحث و المذاكرة وإنما هو من
العلم "اللدني" أي الوهبي الذي هو أثر التقى و الإستقامة و الصلاح كما قال تعالى :
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^{(٤) . (٥)}

(١) - مقدمة تفسير (لطائف الإشارات) للإمام القشيري (ت ٤٦٥هـ) قدم له وحققه و علق عليه د/إبراهيم بسيوني
٢٢/١ ط في مركز تحقيق التراث ، عام ١٩٨١م مصر .

(٢) - ابن العربي المالكي الإشبيلي و تفسيره أحكام القرآن دراسة وتحليل : د/ مصطفى إبراهيم المشني ص ٣٦١ ،
"ومدرسة التفسير في الأندلس" ، للمؤلف نفسه ص ٦٣٩ ، ط (١) مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان .

(٣) - د/عبد الوهاب فايد: منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ١٨٦. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٩٧٣م.

(٤) - سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٥) - انظر محمد علي الصابوني : التبيان في علوم القرآن ص ١٧٠ .

١. أن العمل الصالح والمجاهدة المتواصلة بنجوم مشعة تسطع أنوارها على صفحات التفسير الإشاري وهذا ما ذكره الاستاذ ابراهيم بسيوني قائلاً : يمكنك أن تكون عالماً في أي فرع من فروع المعرفة دون أن يصحب ذلك العمل ، أما أن تقبل على القرآن الكريم لتستشف الجواهر من وراء الظواهر فهذه مسألة ينبغي أن تقترن بجهود مضيئة في تصفية النفس والقلب من كل العلائق ، ونخلتتهما عن كل الشواغل الدينية ، ونخلتتهما بكل الأوصاف السننية^(١).

٢. وقد يظن القارئ الكريم أن الإهتمام بهذا اللون التفسيري يعتبر ضرباً من ضروب الترف الفكري البطالة والخمول ، وإزالة هذا اللبس والغموض نورد ما ذكره شيخنا وأستاذنا الدكتور عبدالغفور محمود وهو بصدد تبيان أهمية هذا الاتجاه التفسيري بقوله : نظر في القرآن أرباب الإشارات و أصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوها أعلاماً اصطلاحاً عليها ؛ مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهية والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه . ولا شك أن مقاصدهم مقاصد دينية ، وأنها قمة الأخلاق الإلامية ؛ فالفناء فناء الأوصاف المذمومة وسقوطها والبقاء بقاء الفطرة المؤمنة السليمة التي فطر الله الناس عليها و ولدوا يوم أن ولدوا عليها وهو عكس الفناء ، وهو قيام الأوصاف المحمودة بالشخص . والحضور استيلاء ذكر الحق على القلب بأن يكون العبد حاضراً بقلبه بين يدي ربه الخ^(٢) .

٣. (لاشك أن للتفسير الإشاري فوائد كثيرة وإيجابيات متعددة ؛ ولكن تكمن الخطورة في تلك المحاولات التفسيرية الداخلية ، وأبرز معالمها عدم إنضباطها بالشروط اللغوية والقيود الشرعية ؛ وإنما هي عبارة عن وجدانيات ومشاعر

(١) — مقدمة تفسير لطائف الإشارات ٦٣/١ للقمي

(٢) — بحوث في علوم القرآن الكريم ص ١١٢ ط (١) يونية ١٩٨٥ م دار التوفيق النموذجية . رقم الإيداع بدار الكتب

٤٧٣٧/٨٥ القاهرة مصر .

تطوف بنفوس بعض المتصوفة فترجمهم في أضيلة وتصورات باطنة شاردة عن معاني النصوص وقيودها ودلالاتها المعروفة الثابتة ، فيشردون مع أضيلتهم وتصوراتهم تلك إلى حيث تسوقهم مشاعرهم ووجداناتهم الطليقة ، حتى إذا اصطدموا بأسوار النصوص لم يبالوا أن يحطموها بمعاول التأويل كما يحلو ويروق لهم ؛ مهما عارضتهم اللغة والقواعد المنهجية في ذلك^(١) .

(١) - انظر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : السلفية مرحلة زمانية مباركة وليس مذهباً إسلامياً ص ١١٦ ، دار الفكر سوريا ، ط . (١) عام ١٩٨٨ م .
ويجد القرئ تفاصيل الموضوع في هذا الكتاب .

المبحث الخامس

آراء العلماء في التفسير الإشاري ؛ وفيه ،

المطلب الأول - آراء المانعين :

المطلب الثاني - آراء القائلين بالتفسير الإشاري وأدلتهم :

الدليل الأول : إشارة القرآن إلى التفسير الإشاري

الدليل الثاني - من السنة النبوية

الدليل الثالث - أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - وأحوالهم

المبحث الخامس — آراء العلماء في التفسير الإشاري ؛ وفيه

اختلف العلماء في قبول التفسير الإشاري ومنعه ، فمنهم من منعه وجعله إلحاداً في أي القرآن الكريم وصرفاً لها عن المراد منها .

ومنهم من قبله واعتبره من المعاني التي أفاضها الله تعالى على قلوب بعض عباده ، ولكنهم وضعوا له شروطاً سوى شروط التفسير المعروفة^(١) ، وسوف نتناول هذه الشروط فيما بعد إن شاء الله .

المطلب الأول — آراء المانعين :

يمنع التفسير الإشاري إذا لم يستوفِ ضوابطه، ولم يكن له دليل شرعي يوافقه ، وخرج عن قواعد اللغة العربية في الاستنباط ، وكان من قبيل الخواطر، والتأويلات ، والإشارات وشطحات الخيال التي لا مؤيد لها من الشرع ، وتتنافى مع معاني القرآن ، وخرجت عن حدود الضبط ، والتقييد في التأويل ، واختلط فيها الخيال بالحقيقة ، والحق بالباطل ، وبالتالي أصبحت من الشبهات والمزالق^(٢) .

يقول الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي : وليس لنا أن نطلب لهذا التفسير دليلاً ذلكم أن الأصل عدم قبول هذا النوع من التفسير ؛ لأن تفسير القرآن لا يكون إلا بالقرآن أو السنة أو بالتبادر من عموم لغة العرب ، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين فلا يصح تفسيره بخلاف ظاهر اللفظ إلا بدليل يصرف المعنى المراد من ظاهر اللفظ إلى معنى آخر، أما من قال بهذا اللون من التفسير ومال إليه ، فهو مطالب بالدليل^(٣) .

(١) - انظر جلال الدين السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ١٨٠/٢ وما بعدها .

(٢) - انظر د.غازي عناية : هدى الفرقان في علوم القرآن ٩٠/٢ ، ط : عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت — لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

(٣) — اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر / ٣٦٨ ، طبع في الرياض — السعودية .

تبين مما سبق أن التفسير الإشاري القائم على شطحات الخيال ، والأوهام ، لا سند له في الشريعة الإسلامية ، ويؤدي إلى الإنزلاق في متاهات الجهالة ، والكفر . وفي هذا المعنى يتحدث حجة الإسلام أبو حامد الغزالي قائلاً:

"وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية :

أحدهما: الدعاوي العريضة الطويلة في العشق مع الله تعالى ، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة في الخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق ... وهذا فن عظيم ضرره على العموم ، حتى لقد ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوي ؛ فإن هذا الكلام ... يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات ، والأحوال، فلا تعجز الأغبياء من دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ، ومثله ، ثمّ قد استطار في البلاد شرره ، وعظم في العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة ... " .

"والصنف الثاني من الشطح - كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائلاً ، وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط في عقله ، وتشويش في خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام ، قرع سمعه، وهذا هو الأكثر ، وإما أن تكون مفهومة له ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها ، وإيرادها بعبارة تدل على خميرة ، لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن

المعاني بالألفاظ الرشيقة^(١)، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ،
ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يُحمل على أن يُفهم منه معان ما أريدت ،
ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه ، وطبعه ... وهذا فيما يفهمه صاحبه ، ولا
يلغيه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع،
فلا يحل ذكره ... اهـ" ^(٢).

المطلب الثاني - آراء القائلين بالتفسير الإشاري وأدلتهم :

هل للتفسير الإشاري أصل شرعي يقوم عليه ، أو هو أمر جديد بعد ظهور
الصوفية وذيوع طريقتهم ؟ وللجواب عن هذا السؤال نقول :

لم يكن التفسير الإشاري بالأمر الجديد في إبراز معاني القرآن الكريم ؛ بل هو أمر
معروف من لدن نزوله على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشار إليه القرآن ،
ونبه عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وعرفه الصحابة (رضوان الله عليهم
أجمعين) ، وقالوا به ^(٣) .

ومن ثم استدل المؤيدون للتفسير الإشاري بعدة أدلة شرعية على جوازه ؛ تتحلى
فيما يلي :

الدليل الأول : إشارة القرآن إلى التفسير الإشاري

استدل المؤيدون بالآيات التالية :

١- قول الله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ^(٤).

(١) — أي حسنة . انظر المعجم الوسيط : طبع وألف من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ٣٤٧ / ١ .

(٢) — انظر إحياء العلوم و محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان ، ٩٠ / ٢ - ٩١ دار الفكر عام (١٤٠٨هـ) /
١٩٨٨م ، بيروت - لبنان .

(٣) — انظر د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٢ / ٣٨٢ .

(٤) — سورة النساء : ٧٨ .

٢- وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١) .

٣- وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾^(٢) .

فهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وبطن ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً ويحضمهم على التدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفقهون نفس الكلام أو حضمهم على فهم ظاهره ؛ لأن القوم عرب ، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك ، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب وحضمهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم^(٣) .

الدليل الثاني — من السنة النبوية

ورد في السنة المطهرة ما يشير إلى أن آيات القرآن الكريم لها معاني ظاهرة تعرف من ظاهر النص الكريم ولها معاني باطنة تستفاد عند التأمل والتدبر في آيات القرآن لمن كان من أهل العلم والصلاح .

من ذلك هذا الحديث الشريف الذي أخرجه البزار وحسنه الحافظ ابن حجر العسقلاني والسيوطي والهيثمي وأخرجه ابن حبان وحسنه محققه وهاك نصه^(٤) :

(١) - سورة النساء : ٨٢ .

(٢) - سورة محمد : ٢٤ .

(٣) - انظر أبا إسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، تحقيق : الشيخ عبد الله دراز ، ٣ / ٣٨٢ - ٣٨٣ ، ط - دار المعرفة ، بيروت . وانظر د/محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٢ / ٣٨٢ - ٣٨٣ ، و د/مختار مرزوق : الدخيل في التفسير ١ / ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ط : ١ عام ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ، الناشر : دار النهضة العربية ، ٣٢ ش عبد الخالق ، ثروت ، القاهرة .

(٤) - أنظر شيخي وأستاذي د. مختار مرزوق عبد الرحيم : الدخيل في التفسير (دراسة وتطبيق) ١ / ٢٥٦ .

أخرج البزار بسنده إلى عبد الله بن مسعود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : "أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ، ونهى أن يستلقى الرجل - أحسبه قال في المسجد - ويضع إحدى رجله على الأخرى" ، وقال : لم يروه هكذا إلاّ الهجرى ولا روى ابن عجلان عن الهجرى غيره ولا نعلمه من طريق ابن عجلان إلا من هذا الوجه^(١).

وحسن إسناده الحافظ ابن حجر العسقلاني في مختصر زوائد البزار حيث قال : هذا إسناده حسن^(٢). وأخرجه ابن حبان في صحيحه في كتاب العلم باب ذكر العلة التي من أجلها قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه". ونصه بسنده إلى عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن"^(٣).

وأورده الحافظ السيوطي في الجامع الصغير وأشار إلى حسنه^(٤). ورواه البغوي في شرح السنة عن الحسن وابن مسعود مرفوعاً^(٥).

(١) - أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة : للهيتمي كتاب التفسير باب كم أنزل القرآن . تحقيق : أستاذي حبيب الرحمن الأعظمي ج ٣ ص ٨٩-٩٠ ط مؤسسة الرسالة .

(٢) - أنظر مختصر زوائد البزار على الكتب الستة لابن حجر العسقلاني . حققه صري بن عبد الخالق أبوذر ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ ط مؤسسة الكتب الثقافية بيروت .

(٣) - أنظر الاحسان في تقريب صحيح ابن حبان : تحقيق : شعيب الأرنؤوط وقال محققه : إسناده حسن إن كان أبو إسحاق هو الهمداني كما ذكر المؤلف وهو عمرو بن عبد الله السبيعي ، ولين إن كان إبراهيم بن مسلم الهجري كما روى الطبري في تفسيره (١١) وكلاهما يكتنأ أبو إسحاق وكل منهما قد روى عن أبي الأحوص عرف بن مالك الجشمي . وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٩٠) والبزار (٢٣١٢) من طريقين عن أبي إدريس عن سليمان بن بلال إلا أنّهما قالوا عن أبي إسحاق (الهمداني) اهـ . ج ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٤) - أنظر السيوطي : الجامع الصغير ج ٣ ص ٥٤ على هامش فيض القدير شرح الجامع الصغير ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٥) - أنظر العلامة عبد الرؤف المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٣ ص ٥٥ ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، وانظر كتاب العلم باب الخصومة في القرآن .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب التفسير باب القراءات وكم أنزل القرآن على سبعة أحرف بنفس لفظ البزار الذي صدرنا به الروايات وقال رواه البزار وأبو يعلى في الكبير وفي رواية عنده "لكل حرف منها ظهر وبطن" والطبراني في الأوسط باختصار آخره ورجال أحدهما ثقات^(١).

وأورده البغوي في مصابيح السنة وشرح السنة ونصه عنده "أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع"^(٢).

وهو في المعجم الكبير للطبراني بالسند المتصل إلى عبدالله بن مسعود قال : "إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا له حد ولكل حد مطلع"^(٣).

معنى "الظاهر" و "الباطن" و "الحد" و "المطلع"

(بعد أن عرضنا روايات الحديث السابق في كثير من كتب السنة لا بد من وقفة نذكر فيها أقوال العلماء في الظاهر والباطن ، والحد والمطلع ، لأن هذه المصطلحات تعتبر حجر الأساس في هذا الموضوع ، وبها يستدل الذين أيدوا التفسير الإشاري ؛ بل الذين قالوا بالتفسير الباطني الذي يصطدم مع النقل والعقل فنقول وبالله التوفيق)^(٤).

(١) — انظر الهيثمي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج ٧ ص ١٥٢ ، وانظر دكتور مختار مرزوق الدخيل في التفسير ج ١ ص ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) — مصابيح السنة كتاب العلم وعزاه المحقق لما ذكرنا سابقا من مصادر . أنظر مصابيح السنة للبغوي ، تحقيق : يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرين ج ١ ص ١٧٦ ط دار المعرفة بيروت . وأنظر شرح السنة للبغوي كتاب العلم ، باب الخصومة في القرآن وعزاه المحققان للطبري وابن حبان ومجمع الزوائد ، وأنظر شرح السنة تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط ج ١ ص ٢٦٣ ط المكتب الإسلامي بيروت . نقلا عن أستاذي د. مختار مرزوق : الدخيل في التفسير (دراسة وتطبيق) ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) — أنظر المعجم الكبير للطبراني تحقيق حمدي عبد الحميد السلفي وقال محققه : قال في المجمع- يعني الهيثمي - رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وهو ثقة وإمام ١هـ - ١٤٦/٩ ط مكتبة ابن تيمية بالقاهرة .

(٤) — أنظر د. مختار مرزوق : الدخيل في التفسير ٢٥٨/١ .

معنى "الظاهر" و "الباطن"

(القول الأول - قال ابن جرير الطبري : "ظهره : الظاهر في تلاوته وبطنه ما بطن من تأويله"^(١) .

وقال محمود شاكر في تحقيقه لتفسير ابن جرير الطبري : الظاهر هو ما تعرفه العرب من كلامها وما لا يعذر أحد بجهالته من حلال وحرام ، والباطن هو التفسير الذي يعلمه العلماء بالاستنباط والفقه ، ولم يرد الطبري ما تفعله طائفة الصوفية وأشباههم في التلعب بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - والعبث بدلالات ألفاظ القرآن ودعائهم أن لألفاظه (ظاهرا) هو الذي يعلمه علماء المسلمين (باطناً) يعلمه أهل الحقيقة فيما يزعمون^(٢) .

القول الثاني - قال البغدادي في شرح السنة : الظهر ما حدث فيه عن أقوام أنهم عصوا فعوقبوا وأهلكوا بمعاصيهم فهو في الظاهر خير ، وباطنه عظة وتحذير أن يفعل أحد مثل ما فعلوا فيحل به ما حل بهم .

القول الثالث - قال أيضا ؛ قيل : ظاهره التنزيل الذي يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به وما من آية إلا وتوجب الأمرين جميعاً ، لأن وجوه القرآن أمر ونهي ووعد ووعيد ومواعظ وأمثال وخبر ما كان وما يكون وكل وجه منها يجب الإيمان به ، والتصديق له ، والعمل به ، فالعمل بالأمر إتيانه وبالنهى الاجتناب عنه وبالوعد الرغبة فيه وبالوعيد الرهبة عنه وبالمواعظ الاتعاظ وبالأمثال الاعتبار .

القول الرابع - قيل معنى "الظهر" و "البطن" التلاوة والفهم كأنه يقول لكل آية ظاهر وهو أن يقرأها كما أنزلت، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾^(٣)،

(١) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٧٢/١ ، تحقيق : الشيخ محمود شاكر ، ط ، دار المعارف.

(٢) - انظر تحقيق الشيخ محمود شاكر لتفسير ابن جرير الطبري ٧٢/١ هامش الصحيفة .

(٣) - سورة المزمل الآية ٤ .

وباطن هو التدبير والتفكير. قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(١)، ثم التلاوة إنما تأتي بالتعلم والحفظ بالدرس والتفهم إنما يكون بصدق النية وتعظيم الحرمة وطيب الطعمة^(٢).

القول الخامس - قال الملا علي القاري: الظهر المعنى الجلي والبطن الخفي وهو سر بين الله وعباده المصطفين. عن أبي الدرداء: "لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها"^(٣). وعليه يحمل قول التفتازاني: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان^(٤).

وقريب من هذا ما رضيه الإمام الشاطبي في الموافقات بأن الظاهر هو ظاهر التلاوة والباطن هو الفهم عن الله لمراده تعالى من كلامه وخطابه ولا بد فيه من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى؛ لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب فلا يكون ظنياً^(٥). هذا والقول الخامس هو أقرب الأقوال إلى المؤيدين للتفسير الإشاري، وسيأتي في أقوال الصحابة ما يدل على أن بعضهم كعبد الله بن عباس الذي فهم من أسرار القرآن الكريم ما لم يفهمه الآخرون^(٦).

(١) - سورة ص الآية ٢٩ .

(٢) - انظر شرح السنة الحسين بن مسعود البغوي (٥٧٦ هـ) ١ / ٢٦٣ - ٢٦٤ ، تحقيق : زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط . ط المكتب الإسلامي - بيروت . وانظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١ / ٤٩ للعلامة الملا علي القاري . ط المكتبة التجارية مصطفى الباز - مكة . وانظر الدخيل في التفسير : د مختار مرزوق ١ / ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣) - مرقاة المفاتيح ج ١ ص ٤٩٨ بتصرف يسير جدا ، وانظر حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي ١ / ١٩١ ، ط المكتبة الإسلامية بديار بكر تركيا .

(٤) - وانظر قول التفتازاني في التبراس شرح شرح العقائد النسفية : للعلامة محمد عبدالعزيز الفرهادي ص ٣٣٨ . ط مكتبة حقاينة ملتان - باكستان . وانظر الدخيل في التفسير : د / مختار مرزوق ١ / ٢٦٠ .

(٥) - الموافقات في أصول الشريعة ٣ / ٣٨٢ - ٣٨٤ . (بتصرف) تحقيق : الشيخ عبد الله دراز ، ط دار المعرفة - بيروت .

(٦) - انظر د / مختار مرزوق : الدخيل في التفسير ١ / ٢٦٠ .

معنى "الحد" و "المطلع"

كما اختلف العلماء في المراد بالظاهر والباطن اختلفوا في المراد بـ "الحد" و "المطلع" وهاك أقوالهم:

القول الأول - "ولكل حرف حد ولكل حد مطلع" ، قال المناوي: "لكل حرف حد" أي : منتهى فيما أراد الله من معناه "ولكل حد" من الظهر والبطن "مطلع" بشدة الطاء وفتح اللام موضع اطلاع ، أي : مصعد ، وموضوع ، يطلع عليه بالترقي إليه فمطلع الظاهر التمرن في فنون العربية وتتبع أسباب التزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك، ومطلع الباطن تصفية النفس والرياضة والعمل بمقتضاه .

وقيل : المنع ، ومعناه : أن لكل آية حداً من حدود الله وهي منع عباده من تعديه موضع اطلاع من القرآن ، فمن وفق لارتقاء ذلك المرتقي اطلع على الحد الذي يتعلق بذلك المطلع ^(١) .

القول الثاني - قال الإمام البغوي : "لكل حرف حد" لكل حرف حد في التلاوة ينتهي إليه فلا يجاوزه وكذلك في التفسير، ففي التلاوة لا يجاوز المصحف الذي هو الإمام وفي التفسير لا يجاوز المسموع . قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : "أي أرض تقلني وأي سماء تظلني ، إذا قلت في القرآن برأي" ^(٢) .

وقوله "ولكل حد مطلع" المطلع المصعد أي لكل حد مصعد يصعد إليه من معرفة علمه ، ويقال : المطلع هو الفهم وقد يفتح الله تعالى على المتدبر والمتفكر فيه من التأويل والمعاني ما لا يفتح على غيره وفوق كل ذي علم عليم ^(٣) .

(١) - فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/٥٤ - ٥٥ ، ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٢) - قول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أخرج الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في شعب الإيمان باب في تعظيم القرآن فصل في ترك المحاورة في القرآن ، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسبوي زغلول ٢/٤٤٢ ط دار الكتب العلمية بيروت . وانظر هذا القول في شرح السنة للإمام البغوي كتاب العلم باب تبليغ حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحفظه ١/٢٤٤ ، تحقيق : زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط . ط المكتب الإسلامي - بيروت .

(٣) - شرح السنة : للبغوي ١/٢٦٤ - ٢٦٥ بتصرف .

القول الثالث - قال الشيخ محي الدين شيخ زاده "ولكل حد مطلع" أي : لكل طرف من الظهر والبطن موضع اطلاع فمطلع الظاهر تعلم العربية والتمرن فيها وتتبع ما يتوقف عليه معرفة الظاهر من إثبات النزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك .

ومطلع الباطن تصفية النفس والرياضة بإتباع الجوارح في إتباع الظاهر والعمل بمقتضاه، كما قال -صلى الله عليه وسلم- "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعمل"^(١).

هذا وما ذكره الشيخ المناوي أولاً هو أقرب المعاني إلى القائلين بالتفسير الإشاري فمن أراد مطلع الظاهر فعليه بالتمرن في فنون العربية وتتبع أسباب التزول والناسخ والمنسوخ وما إلى ذلك مما يحتاج إليه المفسر لظاهر النص الكريم .

ومن أراد مطلع الباطن وأن يفيض الله تعالى على قلبه من أسرار القرآن العظيم فعليه بتصفية النفس والرياضة والعمل بمقتضى القرآن الكريم كل ذلك مع المحافظة على ظاهر الشرع ، والله أعلم^(٢).

(١) - حاشية زادة على تفسير البيضاوي ١٩١/١ ، وانظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤٩٨/١ - ٤٩٩ ، وحديث "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعمل" رغم شهرته على السنة العامة إلا أنه حديث موضوع . قال الشيخ الألباني بعد إيراد في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : موضوع أخرجه أبو نعيم (١٠ / ١٤ - ١٥) من طريق أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس مرفوعاً ، ثم قال : " ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام على بعض التابعين عن عيسى بن مريم - عليه السلام - ، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه ، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل " . قلت : وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم ، فلا أدري من وضعه منهم ١هـ . انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة : للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٤٢٣ / ١ ط المكتب الإسلامي .

(٢) - انظر شيخني د . مختار مرزوق : الدخيل في التفسير ٢٦١/١ - ٢٦٢ .

الدليل الثالث - أقوال الصحابة - رضي الله عنهم -

إذا أمعن الباحث النظر في أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - وفي أحوالهم وجد أن فيهما ما يدل على أن القرآن ذو وجوه وأنه قد حوى علم الأولين والآخرين وأن الله قد يرزق من يشاء من عباده فهماً في أسرار القرآن الكريم لم يفهمه الآخرون وفي كل ذلك دليل للقائلين بأن في القرآن إشارات يطلع الله تعالى عليها من يشاء من عباده ، وستناول أولاً أقوالهم وثانياً أحوالهم^(١).

أولاً - الأقوال :

(١) - أخرج الطبراني في المعجم الكبير بسند صححه الهيثمي أن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور^(٢) القرآن^(٣)".

(٢) - أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي جحيفة - رضي الله عنه - ، قال : سألت علياً - رضي الله عنه - : هل عندكم شيء ليس في القرآن ؟

فقال : والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهماً يعطى رجل في كتابه وما في الصحيفة ، قلت : وما في الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر^(٤) .

والمراد من سؤال أبي جحيفة لعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ، هل عندكم شيء ليس في القرآن؟ أي عندكم يا أهل البيت - رضي الله عنهم - فأجابه علي -

(١) - انظر د. مختار مرزوق : الدخيل في التفسير ١/٢٦٢-٢٦٣.

(٢) - فليطلع . انظر المعجم الوسيط : ٥٨٣/٢ طبع من قبل مجمع اللغة العربية قام بإخراج هذه الطبعة د/ إبراهيم أنيس وغيره .

(٣) المعجم الكبير: للطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ١٤٦/٩ . ط: مكتبة ابن تيمية بالقاهرة . وانظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ، كتاب التفسير ، باب في فضل القرآن ومن قرأه وقال : رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح اهـ مجمع الزوائد ٧/١٦٥ . ط : دار الكتاب العربي .

(٤) - صحيح البخاري كتاب الديات ، باب العاقلة ٢٦/٧٣ . هامش فتح الباري ، ط : مكتبة الكليات الأزهرية .

كرم الله وجهه - بأنه ليس عندهم إلا ما في القرآن الكريم ، ثم استثنى فقال : "إلا فهماً يعطى رجل من كتابه" (١) .

قال الملا علي القاري : وفي رواية "إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن" استثناء منقطع أو استثناء مما بقي من استثناء الأول وخلاصته : أنه ليس عندنا غير القرآن إلا فهماً ... الخ (٢) .

هذا والخلاصة أن في قول عبد الله بن مسعود "أن القرآن قد حوى علم الأولين والآخريين" وفي قول علي كرم الله وجهه (إن الله تعالى قد يفتح على بعض عباده بفهم في معاني القرآن العظيم لم يمنحه للآخرين) . ولا حرج على فضل الله تعالى (٣) .

ثانياً - الأحوال :

ورد في أحوال الصحابة أن بعضهم ألهمه الله تعالى فهماً في كتابه لم يفهمه الآخرون ومن ذلك ما يلي :

١. أخرج البخاري في كتاب التفسير باب قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٤) بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعا ذات يوم فأدخله (٥) معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم.

٢. قال: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (٦). فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً .

(١) - انظر د. مختار مرزوق : الدخيل في التفسير ٢٦٣/١ .

(٢) - انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢١/٧ ، ط : المكتبة التجارية مصطفى الباز - مكة .

(٣) - انظر د/ مختار مرزوق : الدخيل في التفسير ٢٦٤/١ .

(٤) - سورة النصر الآية (٣) .

(٥) - أي أدخل عبدالله بن عباس معهم .

(٦) - سورة النصر الآية (١) .

قال لي : أكنذك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعلمه له قال ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وذلك علامة أجلك . ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ، فقال له عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول (١) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث عدة فوائد جاء في آخرها : وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات ، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم ، ولهذا قال علي - رضي الله عنه - : " أو فهما يؤتیه الله رجلاً في القرآن " (٢) .

ويقول الدكتور الذهبي : فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر ، أما ابن عباس وعمر فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر هو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة (٣) .

ويقول الشيخ الصابوني : هذا الفهم من ابن عباس لم يفهمه بقية الصحابة، وإنما فهمه عمر وفهمه ابن عباس وهو من التفسير الإشاري الذي يلهمه الله من شاء من خلقه ويطلع عليه بعض عباده، فالسورة الكريمة فيها نعي للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإشارة إلى دنو أجله (٤) .

(١) - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسننه وأيامه (صحيح البخاري) ١٨ /

٣٩٤ - ٣٩٦ ، هامش فتح الباري ط مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) - انظر ابن حجر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٩٦/١٨ ط مكتبة الكليات الأزهرية ، وقول علي - كرم

الله وجهه - رواه البخاري ومضى تخريجه والكلام عليه في أول الدليل ص ...

(٣) - التفسير والمفسرون ٣٨٥/٢ .

(٤) - انظر التبيان في علوم القرآن ص ١٧٣ . ط عالم الكتب - بيروت .

٢. ومما يدل على ذلك أيضاً ما ذكره الإمام الشاطبي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(١) الآية فرح الصحابة وبكى عمر وقال : ما بعد الكمال إلا نقصان. مستعشراً نعيه عليه الصلاة والسلام، فما عاش بعدها إلا أحداً وثمانين يوماً^(٢).

والملاحظ هنا كما قال د/الذهبي : "أن عمر رضي الله عنه أدرك المعنى الإشاري وهو نعي الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأقره النبي - صلى الله عليه وسلم - على فهمه هذا ، وأما باقي الصحابة فقد فرحوا بتزول الآية ، لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها"^(٣) .

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن له ظهر وبطن ، ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي ، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر ، غير أن المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة ، بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور ، ولقد فهم ابن مسعود أن في معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً فقال : "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن"^(٤) وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٥) . وقال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٦) .^(٧)

(١) - سورة المائدة الآية (٣) .

(٢) - انظر الموافقات في أصول الشريعة ٣/٣٨٤ تحقيق : الشيخ عبدالله دراز . ط دار المعرفة - بيروت . وقول عمر رضي الله عنه "وما بعد الكمال إلا النقصان" أورده بنحوه الإمام الطبري في تفسيره "تفسير سورة المائدة" ٤/٤٦٣ - ٤٦٤ ، ط دار الغد العربي .

(٣) - انظر التفسير والمفسرون ٢/٣٨٥ .

(٤) - أخرجه الطبراني بسند صحيح وقد مضى في أول الدليل ص

(٥) - سورة الأنعام الآية ٣٨ .

(٦) - سورة يوسف الآية ١١١ .

(٧) - انظر : الدكتور الذهبي : التفسير والمفسرون : ٢/٣٨٦ .

وانظر : د/ مختارمرزوق : الدخيل في التفسير ١/٢٦٦ - ٢٦٧ .

يقول شيخنا بعد سرده للأدلة :

هذا ونختم كلامنا على هذا الدليل قائلين : إن أفهام بعض الصحابة (رضي الله عنهم) لم تقصر على فهم بعض الإشارات في القرآن الكريم فقط ، بل إن بعضهم فهم من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - إشارات لم يفهما غيره .

وإليك ما رواه البخاري والترمذي واللفظ للبخاري في كتاب الصلاة باب الخوخة والممر في المسجد بسنده إلى أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : "إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله فبكى أبوبكر - رضي الله عنه - فقلت في نفسي : ما يبكي هذا الشيخ ؟ إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو العبد ، وكان أبو بكر أعلمنا قال : يا أبا بكر لا تبك إن أمن الناس على في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً من أمي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر^(١) .

وتفيد تلك الرواية أن الصديق - رضي الله عنه - فهم الإشارة الواردة في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - قد اختار الرفيق الأعلى وأنه بذلك قد دنا أجله - صلى الله عليه وسلم - لذلك بكى الصديق - رضي الله عنه - ، ولفهمه هذا وصفه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - بأنه أعلم الصحابة .

هذا وفي الحديث إشارة إلى استخلاف الصديق - رضي الله عنه - ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - استثنى خوخته بخلاف غيره كما ذكر الحافظ ابن حجر^(٢) .

(١) - صحيح البخاري ١٣٢/٣ - ١٣٣ ، هامش فتح الباري ، وأخرجه الترمذي في كتاب المناقب - باب مناقب أبي

بكر رضي الله عنه - ٥٦٧/٥ - ٥٦٨ ، تحقيق : الشيخ أحمد محمد شاكر وآخرون ، ط دار الكتب العلمية .

(٢) - انظر فتح الباري يشرح صحيح البخاري ١٣٣/٣ .

المبحث السادس

شروط قبول التفسير الإشاري

المبحث السادس - شروط قبول التفسير الإشاري

من البديهي أنه ليس كل تفسير إشاري مقبولاً ، فقد ورد في كتب التفسير الكثير والكثير من التفسير الإشاري الذي لا يقل خطراً عن التفاسير الباطنية المليئة بتحريف معاني القرآن الكريم .

وإذا كان للتفسير الإشاري جذور تعود إلى القرآن والسنة وأقوال الصحابة وأحوالهم كما سبق ذكر ذلك ، فإن بعض أصحاب الإشارات قد انخرقوا عن الجادة .

يقول د/ فودة : لا نستطيع أن نقول : إن التفسير الإشاري سار على مفهومه الذي أراده الله فيما أوحى إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقد غالى البعض وجاء بشطحات هي أقرب ما تكون إلى أقوال الباطنية ، ولقد حاول بعض العلماء أن يجعل لهذا التفسير نوعاً من القبول والاستحسان ، ولكن فيما أرى ينبغي على كل تأويل لآيات الله أن يرتبط بمدلول اللفظ العربي أو بشاهد شرعي ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ تَزَلَّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾^(١)

ويقول د/محمد حسين الذهبي : غير أن هذه المعاني المتكاثرة والتي يشتمل عليها باطن القرآن ، لم تكن في متناول المفسرين جميعاً ، كما أنهم لم يكونوا متساوين في القدر الذي أدركوه منها ، بل تفاوتوا في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في الأخذ بالأسباب ، كما أنهم لم يكونوا مصيبين جميعاً فيما وصلوا إليه منها وأدركوه ، بل أصابوا في بعض منها وأخطأوا في بعض آخر ، وما أخطأوا فيه : بعضه عن جهل ، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة ...

أما الصوفية ، أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة ، فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه ، كما اعترفوا بباطنه ، ولكنهم حين فسروا المعاني الباطنة خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فبينما تجدد لهم أفهاماً مقبولة سائغة ، تجد لهم بجوارها أفهاماً لا يمكن أن

(١) - سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ - ١٩٥ ، وانظر نشأة التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية: أ. د. محمود بسيوني محمد فودة ص ٣٩٥ . ط مطبعة الأمانة . و د/مختار مرذوق : الدخيل في التفسير ٢٦٨/١ .

يقبلها العقل ، أو يرضى بها الشرع ، ولهذا أرى أن أذكر شروط التفسير الإشاري ، وهي الشروط التي إذا توافرت فيه جاز لنا قبوله والأخذ به ، وإلا أسقطناه ورفضناه مهما كان لقائله من المكانة في نفوسنا أو في نفوس القوم^(١).

لذلك كله ومحافضة على جلال القرآن الكريم وضع المحققون من العلماء شروطا لقبول التفسير الإشاري وإليك كلامهم :

وقد لخص ابن تيمية - رحمه الله - شروط قبول التفسير الإشاري في كلمة جامعة قائلاً : "كل لفظ يصلح وضعه لكل معنى لاسيما إذا علم أن اللفظ موضوع لمعنى مستعمل فيه ، فحمله على غير ذلك مجرد المناسبة ، كذب على الله ، ثم إن كان مخالفاً لما علم من الشريعة فهو رأي القرامطة ، وإن لم يكن مخالفاً فهو حال كثير من جهال الوعاظ المتصوفة الذين يقولون بإشارات لا يدل اللفظ عليها نصاً ولا قياساً ، وأما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دل اللفظ عليه ، ويجعلون المعنى المشار إليه مفهوماً من جهة القياس والاعتبار ، فحالمهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس ، وهذا حق إذا كان قياساً صحيحاً لا فاسداً واعتباراً مستقيماً لا منحرفاً اهـ"^(٢).

يتضح من كلام الإمام ابن تيمية أن التفسير الإشاري ليس مرتعاً خصباً لكل حاطب ليل ، جماع للغرائب والطرائف ، بل هو تفسير منضبط بشروط ومقيد بضوابط ، وهذا ما حاول الدكتور إبراهيم البسيوني إبرازه وإيضاح معالمه حين ركز على عدم "إفتيات الإشارة على العبارة ، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربي سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبية ، ولا تخرج بها عن الدلالات التي توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقهاء ، فكأن الإشارة ليست انبعثاً تلقائياً محضاً ، ولكنها مقيدة - منذ البداية -

(١) - التفسير والمفسرون ٢/٣٨٦ - ٣٨٧ ، (بتصرف) .

(٢) - الفتاوى الكبرى ٢/٢٨ .

بالكثير من العلوم العقلية والنقلية فما أشبه موقف اللفظ القرآنية في هذا المجال بموقف من يتهياً لارتياذ الطريق الصوفي فكلاهما يتعرى عن ظاهره "أهـ" (١) .

يتبين مما سبق ، أن علماء الأمة الإسلامية لم يتركوا باب التفسير الإشاري مفتوحاً بمصرعيه لكل من هبّ ودبّ ، بل حرصهم على خدمة كتاب الله تعالى وغيرهم على أحكامه الواضحة ومعامله الهادية دفعتهم لوضع شروط فصل بنودها الشيخ عبدالعظيم الزرقاني وهو بصدد التدقيق والتمحيص فيما يجب الالتزام به ومما قاله - رحمه الله - :

" التفسير الإشاري لا يكون مقبولاً إلاّ بشروط خمسة وهي :

١. — ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم .
٢. — ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر .
٣. — ألا يكون التفسير الإشاري تأويلاً بعيداً سخيلاً ، كتفسير بعضهم قوله تعالى : "وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" (٢) بجعل كلمة "لمع" فعلاً ماضياً وكلمة "المُحْسِنِينَ" مفعوله .
٤. — ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي .
٥. — أن يكون له شاهد شرعي يؤيده .

بيد أن هذه الشروط متداخلة ، فيمكن الاستغناء بالشرط الأول عن الثالث وبالخامس عن الرابع ويحسن ملاحظة شرطين بدلتهما أحدهما بيان المعنى الموضوع له

(١) — مقدمة محقق تفسير لطائف الإشارات : للقشيري ١ / ٢٤ ، التحقيق : د/إبراهيم البسيوني . ط: مركز تحقيق التراث عام ١٩٨١ م .

(٢) — سورة العنكبوت : الآية ٦٩ ، انظر جلال الدين السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ٢ / ١٨٤ . هذا التفسير وأمثاله إلحاد في آيات الله ، والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ سورة الفصّل : (٤٠) . يقول الإمام الآلوسي في تفسيرها : (أي ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة ، فيحملونها على المحامل الباطلة ، وهو مراد ابن عباس بقوله : يضعون الكلام في غير موضعه) . انظر تفسير روح المعاني ٢٤ / ١١٢ ، ط: دار الفكر .

اللفظ الكريم أولاً . ثانيهما ألا يكون من وراء هذا التفسير الإشاري تشويش على المفسر له" (١) .

ويُشكرُ الزرقاني - رحمه الله - على هذا التفصيل الدقيق وخاصة الملاحظة الثمينة التي استغنى فيها عن الشرط الثالث بالأول وعن الرابع بالخامس .
والملاحظ أن الإمام الشاطبي ذهب إلى أن التفسير الإشاري المقبول هو ما يتوافر فيه شرطان :

أحدهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية .

والثاني : أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

وهذا نص كلامه : " وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضاً مما تقدم في المسألة قبلها ولكن يشترط فيه شرطان :

أحدهما - أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ، ويجري على المقاصد العربية .

والثاني - أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض ، فأما الأول فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً ، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق ، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه ، وما كان كذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً، إذ ليست نسبته إليه على أن مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما ، فإثبات أحدهما تحكّم وتقول : على القرآن ظاهر ، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم ، والأدلة المذكورة في أن القرآن عربي جارية هنا .

(١) - مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٢ . وانظر د/محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٢/٤١٠ - ٤١١ .

وأما الثاني — فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان له معارض صار من جملة الدعاوي التي تدعي على القرآن ، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء ، وبهذين الشرطين تتبين صحة ما تقدم أنه باطن ، لأههما مؤفران فيه ، بخلاف ما فسر به الباطنية ، فإنه ليس من علم الباطن ، كما أنه ليس من علم الظاهر ، فقد قالوا في قوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾^(١) . إنه الإمام ورث النبي علمه . وقالوا في الجنابة : إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق ، ومعنى الغسل : تجديد العهد على من فعل ذلك"^(٢) .

كما أن للإمام يحيى بن حمزة العلوي معياراً آخر يعتمد - هو كذلك - على دعامتين : إحداهما : لفظية وهي اللغة العربية .

والأخرى : معنوية ؛ وهي الأصول الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع وشهادة العقل ، وفي ذلك يقول : "الأصل الأول : في المعيار الصادق ، والفيصل الفارق في تمييز ما يعرف به صحيح التأويل من سقيمه ، وذلك لأن الله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب ولسانها ، كما قال الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾^(٤) . وقد تقرر في العقول أن الله تعالى لا يجوز أن يخاطبنا بخطاب لا نفهمه ولا نعلمه ، ولا يريد بخطابه غير ما وضع له إلا وبينه لنا ، فإذا تم ذلك ، فالواجب أولاً عرض التأويلات المختلفة على اللغة العربية وقوانينها ، فإن كانت غير محتملة لهذه التأويلات من جهة اللغة إن كان الكلام لغوياً ، ولا من جهة الشرع إن كان الكلام شرعياً ، ولا من جهة العرف إن كان الكلام عرفياً ، أسقط هذا التأويل ، وألقى وأطرح ، ولم يقع عليه تعويل ، ولا إلى العمل به سبيل ، وهذا

(١) — سورة النمل ، الآية : ١٦ .

(٢) — الموافقات في أصول الشريعة : لأبي إسحاق الشاطبي : ٣ / ٢٣٥ - ٢٣٦ تحقيق : الشيخ عبد الله دراز ط : دار المعرفة — بيروت .

(٣) — سورة الشعراء : ١٩٥ .

(٤) — سورة إبراهيم : ٤ .

كتأويلات الباطنية أبادهم الله تعالى كلها ، فإنهم راعوا في صحة التأويلات قول الإمام بزعمهم ، ولم يلتفتوا إلى شيعى من موضوعات اللغة وقوانينها" .

ثم قال : "أما المعنوي ، فهو ما إذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى ، ومفهوماً منه ، وجب حينئذ الرجوع في معرفة صحته وفساده إلى الأصول من جهة المعنى ، فما حكمت تلك الأصول بفساده أو بعضه سقط ، وما حكمت بصحته ثبت واستقل ، وتلك الأصول هي أربعة : الكتاب والسنة والإجماع والعقل" (١) .

إذا نظرنا بعين فاحصة لما أورده الإمام الشاطبي و العلوي نجدهما قد أهملتا التطرق كلية لشرط هام ألا وهو عدم الاعاء أن التفسير الإشاري وحده المراد دون الظاهر ، (بل لا بد من الاعتراف والتسليم بالمعنى الظاهر أولاً ، إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب) (٢) .

وقد أهمل ابن القيم الجوزية هذا الشرط أيضاً حيث يقول : "وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللفظ ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون ، وتفسير على المعنى : وهو الذي يذكره السلف ، وتفسير على الإشارة : وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم ، وهذا لا بأس به بأربعة شروط :

١ — ألا يناقض معنى الآية

٢ — وأن يكون المعنى صحيحاً في نفسه .

٣ — وأن يكون في اللفظ إشعار به .

(١) — مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) — انظر الإمام أبي حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ١ / ٢٩٨ ، دار الشعب ، القاهرة — مصر . وجلال الدين

السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٨٥ .

٤ - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم ، فإذا اجتمعت هذه الشروط الأربعة كان استنباطاً حسناً^(١).

ونفس المسألة أكد الدكتور محمد كمال جعفر على ضرورة أخذها بعين الاعتبار بقوله : "ومن أهم النقط التي يصر عليها النقاد لقبول هذا الفهم "الإشاري" ألا يدعي الصوفي أولوية هذا الفهم بالصدق مع استبعاد المعاني الأخرى ؛ بل لا بد من التسليم أولاً بالتفسير الظاهري أو بالمعنى الحرفي ، ولا ضير بعد ذلك أن يذكر معان أخرى تنكشف للنفس الصافية"^(٢) . ثم يعلل سبب تأكيده على ضرورة مراعاة هذا الشرط ، ومن الواضح أن مثل هذا المنهج يؤدي إلى أنماط عديدة من التفسيرات الذاتية تتنوع بعدد المطبقين لمثل هذا المنهج تنوعاً حتمياً ، وذلك بناء على اختلاف المواهب والاستعدادات الروحية التي هي منحة خالصة من فضل الله ، وما حققه الصوفي بتأييد الله في طريقه من جهاد وتقدم ، ومثل هذا التنوع يصبح خطراً ولا شك إذا قصد به أن يكون المرجع الأول والأخير للمسلم ، مهما اختلفت درجته ، لما يؤدي إليه من الاضطراب والبلبلة ، ولكنه قد يصبح ثروة طائلة وزاداً روحياً قيماً إذا وفق الإنسان بالأصول العامة ، وأقسام مقتضيات الأحكام الشرعية إجمالاً وتفصيلاً"^(٣).

مما سبق تفصيله ندرك أنه من الواجب إضافة شرط آخر للشرطين اللذين ذكرهما الإمامان الشاطبي والعلوي بغية إغلاق جميع الأبواب في وجه الزنادقة والباطنية ومن سار على دربهم .

وعن هذا الشرط ينقل السيوطي - رحمه الله - كلام الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري في كتابه "لطائف المنن" ، ونصه : اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني العربية ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم

(١) - البيان في أقسام القرآن ص ٥٠ . ومتاع القطان: مباحث في علوم القرآن ص ٣٥٧ - ٣٥٨ مؤسسة الرسالة ط :

٧ ، عام ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، بيروت - لبنان .

(٢) - التصوف : طريقاً وتجربة ومذهباً ص ١٧٦ - ١٧٧ ، دار العلوم عام ١٩٧١م .

(٣) - نفس المرجع ص ١٧٧ .

منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان ، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه وقد جاء في الحديث : "لكل آية ظهر وبطن" (١) . فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذوجدل ومعارضة هذه إحالة لكلام الله وكلام رسوله ، فليس ذلك بإحالة ، وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم (٢) .

يقول د/غازي عناية : (إن التفسير الإشاري على الجواز إذا اكتملت شروطه ، وذلك لأنه لا يتعارض مع ظاهر القرآن وخاصة أن له شاهداً من الشرع ؛ ولكن ليس على سبيل الوجوب في الأخذ به ، لأنّ النظم القرآني لم يوضع للدلالة عليه ؛ بل هو من قبيل الإلهامات التي تلوح لأصحابها ، والإشارات التي تظهر للمفسّر المتصوِّف من وراء العبارات القرآنية . فالتفسير الإشاري الذي هو من قبيل السلوك التعبدي الذي تصفو به النفس ، ويطمئن له القلب تزهّداً ، وتقشّفاً ، وورعاً ، فلا بأس به (٣) .

فهذه هي الشروط الواجب اتباعها حين النظر في التفسير الإشاري ، فإذا توافرت كان التفسير الإشاري مقبولاً ، وإن فقدت كان مرفوضاً .

معنى قبول التفسير الإشاري

ذكرنا فيما سبق الشروط التي ذكرها المحققون من العلماء لقبول التفسير الإشاري وإليك بيان معنى قبول التفسير الإشاري :

(١) - مضي تخريجه في ص

(٢) - انظر الإمام جلال الدين السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ٢/٢٣٧ . وانظر لطائف المنن في مناقب الشيخين أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن للعارف بالله تاج الدين بن عطاء الله السكندري، تحقيق: د/عبد الحلیم محمود ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ، ط : مطبعة حسان بالقاهرة مصر .

(٣) - انظر هُدى الفرقان في علوم القرآن ٣/٩٠ ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ط : ١ ، عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م ، بيروت - لبنان .

يقول بعض العلماء : ومعنى كون التفسير الإشاري مقبولاً عدم رفضه لا وجوب الأخذ به.

أما عدم رفضه ، فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية .

وأما عدم وجوب الأخذ به ، فلأنه من قبيل الوجدانيات ، والوجدانيات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان ، وإنما هي أمر يجده الصوفي من نفسه وسر بينه و بين ربه ، فله أن يأخذ به ويعمل على مقتضاه دون أن يلزم به أحداً من الناس سواه ^(١) .
كما أن الأحكام الشرعية لا تؤخذ عن طريق التفسير الإشاري ، لعدم قيام الدليل الواضح عليها ... وما يُستفاد منها فهو في مجال الأخلاق وسُمو النفس وتقوية الإيمان وتثبيت اليقين ... ^(٢) .

(١) — انظر محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ٨١/٢ ، و د/محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ٤١١/٢ ، وأصول التفسير وقواعده : خالد عبدالرحمن العك ص ٢٠٩ .

(٢) — انظر خالد عبدالرحمن العك : أصول التفسير وقواعده : ص ٢٠٩ .

المبحث السابع

التفسير الإشاري في ضوء شروط القبول والردوفيه مطلبان :

المطلب الأول - التفسير الإشاري المردود ونماذجه

لمطلب الثاني - التفسير الإشاري المقبول ونماذجه

المبحث السابع - التفسير الإشاري في ضوء شروط القبول والرد ؛ وفيه مطلبان:
من خلال دراستنا المتقدمة للتفسير الإشاري والشروط التي وضعها المحققون من
العلماء لقبوله أو رده نود أن نورد في هذا المبحث أمثلة للتفسير الإشاري المردود ، ثم
نورد أمثلة للتفسير الإشاري المقبول مبينين أسباب الرد والقبول ، كما ينبغي أن ننوه
بأن هذه الدراسة تصلح للحكم على كل التفاسير المشتملة على الرموز والإشارات ،
ويزعم أصحابها أنهم على الحق وأصحاب الحقيقة بحق أو بغير حق .

المطلب الأول - التفسير الإشاري المردود ونماذجه

كل تفسير يخالف الشرع ويناقض العقل لا يختلف عن تفاسير الباطنية التي يقول
عنها الشاطبي ما خلاصته : كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي
فليس من علوم القرآن في شيء ، لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به ومن ادعى فيه
ذلك فهو في دعواه مبطل .

ومن أمثلة هذا الفصل ما ادعاه من لا خلاق له من أنه مسمى في القرآن ، كبيان
بن سمان حيث يزعم أنه المراد بقوله تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾^(١) الآية وهو من
الثرهات بمكان مكين ، والسكوت على هذا الجهل كان أولى به من هذا الافتراء البارد ،
ولو جرى له على اللسان العربي لعده الحمقى من جملتهم^(٢) ولكنه كشف عوار نفسه
من كل جهة عافانا الله وحفظ علينا العقل والدين بمنه .

وإذا كان بيان في الآية علما له فأبي معنى لقوله ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ ؟ كما يقال
هذا زيد للناس ...

(١) - سورة آل عمران الآية : ١٣٨ .

(٢) - قال محققه لعل الأصل (من جملة أدلتهم) أي لكان اتباعه يعدون هذا دليلاً على صحة زعمهم في هذا الرجل ولكنه
فضح نفسه وكشف عواره كما قال : فلم يجعلوا قوله إن الله يشير إليه في كتابه إلخ لم يجعلوه من الأدلة على عقيدتهم
فيه لنبوه ظاهراً وباطناً عن الجادة ، وتقدم له في المقاصد أن هذا المثال مما فقدت فيه شروط صحة التأويل لفظاً ومعنى
اهـ . انظر هامش الموافقات ٣/٣٩١ - ٣٩٢ .

وبيان بن سمعان هذا هو الذي تنسب إليه البيانية من الفرق ، وهو فيما يزعم ابن قتيبة أول من قال بخلق القرآن ...

وحكى بعض العلماء أن عبيد الله الشيعي المسمى بالمهدي حين ملك إفريقية واستولى عليها كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره ، وكان أحدهما يسمى بنصر والآخر بالفتح فكان يقول لهما : أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه فقال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(١) قالوا : وقد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) بقوله كتامة خير أمة أخرجت للناس .

ومن كان في عقله لا يقول مثل هذا لأن المتسميين بنصر الله والفتح المذكورين إنما وجدا بعد مئتين من السنين من وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيصير المعنى إذا مت يا محمد ثم خلق هذان ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسيح الآية ، فأبي تناقض وراء هذا الإفك الذي افتراه الشيعي ؟ قاتله الله^(٣) .

هذا ولقد نعى الإمام الغزالي على الباطنية تأويلهم لظواهر القرآن فقال ما خلاصته : إنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها من عند أنفسهم ، لأنهم لو صرحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرد لم يتقوا بمحوالة الموالين وكانوا أول المقصودين المخذولين المقتولين ...

ثم قال : ونحن نحكي من تأويلاتهم نبذة ليستدل بها على مخازيهم ، فقد قالوا كلما ورد من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية كلها أمثلة ورموز إلى بواطن .

أما الشرعيات فمعنى الجنابة مبادرة المستجيب بإفشاء سر إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه .

ومعنى الغسل تجديد العهد على فعل ذلك .

(١) - سورة النصر الآية ١ .

(٢) - سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٣) - الموافقات ٣/٣٩١-٣٩٢ (بتصرف يسير) .

الخشب. وانفلاق البحر^(١) افتراق علم موسى فيهم على أقسام والبحر هو العالم. والغمام^(٢) الذي أظلمهم معناه الإمام الذي نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم^(٣).

وما إلى ذلك من الخرافات التي تحتوي على إنكار المعجزات التي أيد الله تعالى بها رسله الكرام - عليهم الصلاة والسلام - وكل ما سبق ما هو إلا تحريف لمعاني كتاب الله عزوجل ، وهو كما قلنا قبل ذلك أخطر أنواع الدخيل والآن إليك أمثلة مما ورد في ثنايا كتب التفسير من التفسير الإشاري المردود .

المثال الأول : عند تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤) يقول الإمام النيسابوري المفسر بعد ذكره لتفسير الآيات بالمعنى الظاهر : التأويل - ويعني به الإشارة في النص الكريم - ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني وهو الجهاد الأكبر ، موتوا قبل أن تموتوا .

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

﴿لَا فَارِضَ﴾ في سن الشيخوخة فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية كما قيل الصوفي بعد الأربعين بارد ﴿وَلَا يَكْرَهُ﴾ في سن شرح الشباب يستهويه سكره ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لقوله ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٥)...

(١) - الواردة في نحو قوله تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ سورة الشعراء ، الآية ٦٣ .

(٢) - ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ الْغَمَامَ﴾ سورة البقرة الآية ٥٧ .

(٣) - انظر كتاب فضائح الباطنية لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ص ١١ - ١٣ (بتصرف وتلخيص) وانظر الموافقات ٣٩٤/٣ - ٣٩٥ .

(٤) - سورة البقرة ، الآية : ٦٧ ، وما بعدها إلى آخر قصة البقرة .

(٥) - سورة الأحقاف ، الآية : ١٥ .

إلى أن قال ﴿وَإِذِ قَاتَلْتُم نَفْسًا﴾ يعني القلب ﴿فَادَارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فاختلقتم أنه كان من الشيطان أم من الدنيا أو من النفس الأمارة ﴿فَقَلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ ضرب لسان بقرة النفس المذبوحة بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر فحي بإذن الله تعالى وقال ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ الْح﴾^(١).

المثال الثاني : عند تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾^(٢) الآية .

يقول أيضا بعد أن فسر النص تفسيراً بالمعنى الظاهر : التأول : ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ التي يذكر فيها أساميها عند أهل النظر : النفس والقلب والروح والسر الخفي وهو سر السر ، وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك المسجد .
فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات ، ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات .

وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة ، ومنع الذكر فيه بالتمسك بالشبهات والتعلق بالشهوات ، كما أوحى الله إلى داود - عليه السلام - يا داود حذر وأنذر أصحابك كل الشهوات فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عني محجوبة وذكر مسجد الروح : الشوق والمحبة ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمسكنات ، وذكر مسجد السر ، المراقبة والشهود ومنع الذكر فيه بالركون إلى الكرامات والقربان ، وذكر مسجد الخفي : بذل الوجود وترك الموجود ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي : يدخلوا هذه المشاهد بقدم السلوك إلا بخطوات الخوف من سوء الحساب وألم العقاب ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ من ذل الحجاب ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ﴾ الحرمان من جوار الله^(٣) .

(١) — انظر غرائب الفرقان ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ١ / ٣١٥

(تصرف) على هامش البيان جامع لابن جرير الطبري ط دار المعرفة بيروت .

(٢) — سورة البقرة ، الآية : ١١٤ .

(٣) — غرائب القرآن ١ / ٣٨٣ .

وها أنت ترى أن النيسابوري - رحمه الله تعالى - يذكر في هذا التأويل - الذي يذكره دائما بعد التفسير الظاهر للآيات - تفسيراً إشارياً بعيداً كل البعد عن معنى النصين ، لأن في الأول إلغاءً لقصة بقرة بني إسرائيل وما ورد في ثناياها من آيات وعبر وعظات دلت على صدق موسى - عليه السلام - وتدل على صدق خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - ولتلك العبر والعظات سميت السورة باسم تلك البقرة ، فأبي صلة بين بقرة بني إسرائيل وذبح النفس !؟ وبين قتييل بني إسرائيل والقلب ؟

وفي النص الثاني نجد يفسر المساجد تفسيراً إشارياً غريباً بأن المراد بها مساجد النفس والقلب والروح والسر الخفي إلخ ما قال ، ولا يمكن الجمع بين المعنى الظاهر للنص الكريم وهو واضح كل الوضوح ، والمعاني الإشارية التي ذكرها ، إذ في المعنى الإشاري إلغاء للمعنى الظاهر ، ولا يعني هنا أنهم يقولون المعاني الظاهرة مرادة هنا وبجانبتها المعنى الباطني ، إذ لا بد من الجمع بين المعنيين على حسب الشروط السابقة ، ثم إنه لا دليل على ما قاله من القرآن أو السنة بل ولا ورد عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

وتتضح حقيقة تلك التفاسير الإشارية حينما نقرأ عند النيسابوري مثلاً في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾^(١) ، حيث فسر الآيات بالمعنى الظاهر ، ثم ذكر من الإشارات ما لا يصح ، فنوح - عليه السلام - هو الروح ، وقومه يراد بهم القلب وصفاته والسر والنفس وصفاتهما والبدن وجوارحه^(٢) إلخ ما ذكر .

وجملة القول أن مثل هذه التفاسير الإشارية التي لا تتفق مع المعاني الظاهرية لا تختلف عن تفاسير الباطنية مهما دافع عنها المدافعون .

(١) - سورة هود

(٢) - غرائب القرآن ١٢ / ٤١ - ٤٢ .

المثال الثالث : نأخذه من تفسير الصوفي المشهور سهل بن عبد الله التستري وكان صالحا مشهورا ، قال ابن خلكان لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع وكان صاحب كرامات^(١) .

وقال الحافظ الذهبي عنه : سهل بن عبد الله التستري شيخ العارفين الصوفي الزاهد ، له كلمات نافعة ومواعظ حسنة وقدم راسخ في الطريق ومن كلامه : من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق ، ومن اشتغل بالفضول حرم الورع ومن ظن ظن السوء حرم اليقين ، ومن حرم هذه الثلاثة هلك^(٢) .
هذا ورغم مكانته تلك إلا أن تفسيره الإشاري فيه المردود والمقبول وهذا مثال للمردود .

قال عند قوله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُرَحِّمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾^(٣) . إن عُدتم إلى المعصية عُدنا إلى المغفرة ، وإن عُدتم إلى الإعراض عنا عُدنا إلى الإقبال عليكم ، وإن عُدتم إلى الفرار منا عُدنا إلى أخذ الطرق عليكم ، ارجعوا إلينا فإن الطريق علينا^(٤) .

وقد نقل الإمام الألوسي هذه الإشارة عند تفسيره للآية^(٥) وكانت طريقة الألوسي كطريقة النيسابوري يفسر الآيات بالمعنى الظاهر ثم يقول ومن باب الإشارات في الآيات كذا وكذا .

ولا يخفى أن هذا التفسير الإشاري لسهل والذي نقله الألوسي بعيد كل البعد عن المعنى الصحيح للآية الكريمة ، لأن الآية وردت في ختام الآيات التي تتكلم عن

(١) — انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ٤٢٩/٢ ط دار الصادر — بيروت .

(٢) — انظر سير أعلام النبلاء ٣٣٠/١٣ - ٣٣٢ هذا وقد نقلنا هذه الترجمة له لأن كلامه في التفسير منسوب له أما كلام النيسابوري والألوسي فمن كلام غيرهما حسما سبق وسيأتي في الأمثلة الآتية .

(٣) — سورة الإسراء ، الآية : ٨ .

(٤) — تفسير القرآن العظيم لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري ص ٥٧ ، ط مصطفى الحلبي .

(٥) — روح المعاني ١٥/١٥ .

إفساد اليهود ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ اَعْلُوًا كَبِيرًا ﴾ (١) ثم تتكلم الآيات عن فسادهم وأن الله تعالى سلط عليهم يسموهم سوء العذاب بعد إفسادهم الأول ، ثم رد الله تعالى لهم الكرة وأمدهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر نفيرا إلى آخر الآيات الكريمة.

ثم يحتم الله تعالى هذا النص بقوله تعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ إن تبتم وانزجرتم عن المعصية ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ أي إن عدتم إلى المعاصي والإفساد عدنا عليكم بالعقوبة وبتسليط المؤمنين عليكم حتى يسوموكم سوء العذاب كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

وليس المراد كما جاء في التفسير الإشاري إن عادوا إلى المعصية عاد الله عليهم بالمغفرة ، لأن هذا القول الباطل يوافق مزاعم اليهود الكاذبة في أنهم شعب الله المختار ، لأنهم حسب هذا القول إن عادوا إلى المعصية عاد الله عليهم بالمغفرة وإن عادوا إلى الإعراض عن الله تعالى عاد الله عزوجل إليهم بالإقبال عليهم ، ثم إن تذييل الآية بقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ يكذب هذه المزاعم كما يأتي حمل الآية على المؤمنين ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يكون إن عادوا إلى المعصية والإجرام عاد الله - عزوجل - عليهم بالعقوبة والانتقام في العاجل والآجل والنار مثوى لكل كافر فاجر أعادنا الله تعالى منها ومن أهلها بمنه وكرمه .

المثال الرابع : عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ (٣) بعد أن قال الألوسي - رحمه الله تعالى - بتفسير الآية ذكر باب الإشارة

(١) - سورة الإسراء ، الآية : ٤ .

(٢) - سورة الأعراف الآيتان : ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) - سورة الفرقان الآية : ٢٣ .

كعادته فقال : وقال ابن عطاء الله في قوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ أطلعناهم على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا فسقطوا من أعيننا ، بذلك وجعلنا أعمالهم هباء منثورا ، وهذه الآية وإن كانت في وصف الكفار لكن في الحديث أن في المؤمنين من يجعل عمله هباء كما تضمنته ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية والخطيب في المتفق والمفترق عن سالم مولى أبي حذيفة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "ليجاءن يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثل جبل قنات حتى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار" ، قال سالم : بأبي وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم قال : "كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنته من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فأدحض الله تعالى أعمالهم"^(١).

هذا وما ذكره الألويسي عن ابن عطاء بجمل الآية على المؤمنين وأنهم لما أطلعهم الله على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا سقطوا من عين الله تعالى فجعل الله تعالى أعمالهم هباء منثورا لا يصح للشيثيين :

أولهما : أن الآية كما ذكر الألويسي نفسه في وصف الكفار ، ونزيد الأمر إيضاحا فنقول : إن النص الكريم الذي وردت الآية في سياقه يأبي حملها على المؤمنين بأبي وجه قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾^(٢).

(١) - روح المعاني ٥٥/١٩ وسند الحديث في حلية الأولياء في ترجمة سالم مولى أبي حذيفة كما يلي : حدثنا محمد بن أحمد بن علي حدثنا أحمد بن محمد الهيثم ثنا مسلم بن إبراهيم ثنا بشر بن مطر بن دينار القطعي قال سمعت عمر بن دينار - وكيل آل زبير - يحدث عن مالك بن دينار قال حدثني شيخ من الأنصار يحدث عن سالم مولى أبي حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث انظر حلية الأولياء والطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ٤٣٠هـ - ط دار الريان للتراث بالقاهرة ١٧٧/١ - ١٧٨ .

(٢) - سورة الفرقان ، الآيات : ٢١ - ٢٣ .

أي : أن الكافرين لا ثواب لهم على أعمالهم يوم القيامة صغيرها و كبيرها كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^(١) .

وهذا يشمل الكافرين والمنافقين في العقيدة كعبد الله بن أبي ومن على طريقته في كل زمان ومكان ؛ لذلك حمل مالك بن دينار أحد رواة الحديث في الحلية على النفاق حيث جاء في آخره بعد الرواية التي ذكرها الآلوسي : قال مالك بن دينار : هذا والله النفاق فأخذ المعلى بن زياد بلحيته فقال صدقت والله يا أبا يحيى^(٢) . هذا على فرض ثبوت الحديث لكن الحديث كما سيأتي في رواته مقال .

أما المؤمنون فلهم ثواب إيمانهم ، وهو يمنعهم من الخلود في النار ثم لهم بعد ذلك ثواب كل عمل صالح خالص لوجه الله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣) . وقد يغفر الله تعالى بمنه وكرمه للمؤمن ولو لم يعمل عملا صالحا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(٤) .

لكن ينبغي أن يعلم أن حبوط أي عمل من أعمال المؤمن لا يتعلق بعمل آخر فمن حصل له الرياء في صدقته مثلا وكانت صلاته صحيحة خالصة فصدقته باطلة وصلاته صحيحة ، فكيف بعد ذلك نقول إن كل أعمال المؤمنين أصبحت هباء منثورا . ثانيهما : أن مطالعة المؤمن لأعماله بعين الرضا لا تحبط العمل إلا إذا قارن العمل رياء ، ويعد على المؤمن إذا أطلع الله تعالى على عمله أن يصيبه الرياء بل الذي يصيبه هو الفرح بنعمة الله عزوجل ، وهذا لا يضره ، فقد أخرج مسلم بسنده إلى أبي ذر قال: قيل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده

(١) — سورة إبراهيم ، الآية : ١٨ .

(٢) — انظر حلية الأولياء ١ / ١٧٧ — ١٧٨ ، وقد سبق ذكر سنده في أول المثال .

(٣) — سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .

(٤) — سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

الناس عليه؟ - وفي رواية ويحبه الناس عليه - فقال - صلى الله عليه وسلم - "تلك عاجل بشرى المؤمن" (١) .

قال الإمام النووي : قال العلماء : معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير هي دليل على رضا الله عنه ومحبه له فيحبه إلى الخلق كما سبق في الحديث - ثم يوضع له القبول في الأرض - هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم (٢) .

وقال الملا علي القاري "تلك عاجل بشرى المؤمن" يعني هو في عمله ذلك ليس مرثيا فيعطيه الله تعالى به ثوابين في الدنيا وهو حمد الناس له وفي الآخرة ما أعد له (٣) . وإليك ما جرى لأبي هريرة من إعجابه بحاله في الصلاة وما قاله له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أخرج البغوي بسنده والترمذي وابن ماجه و ابن حبان واللفظ للبغوي عن أبي هريرة قال قلت : يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينا أنا في مصلاي إذ دخل رجل فاعجبني الحال التي رأيت عليها ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "رحمك الله يا أبا هريرة لك أجران أجر السر وأجر العلانية" (٤) . وقد اختلف في المراد بالإعجاب فقيل : إن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لحديث "أنتم شهداء الله في الأرض" (٥) ، وقيل أعجبه رجاء أن يعمل بعمله فيكون له مثل أجورهم ، فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ليكرم على ذلك ويعظم عليه فهذا رياء (٦) .

(١) - صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب إذا أتني على الصالح فهي بشرى ولا تغره / ٤ / ٢٠٣٤ .

(٢) - شرح النووي على صحيح مسلم ٥ / ٤٩٥ وحديث "ثم يوضع له القبول في الأرض" أورده مسلم قبل الباب المذكور بثلاثة أبواب .

(٣) - مرقاة المفاتيح ١ / ١٧٨ .

(٤) - شرح السنة للبغوي ١٤ / ٣٢٨ كتاب الرقائق باب من عمل لله فحمد عليه وانظر سنن الترمذي بنحوه كتاب الزهد باب عمل السر ٤ / ٥١٢ - ٥١٣ ، وانظر سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب الثناء الحسن ٢ / ١٤١٢ - ١٤١٣ .

(٥) - صحيح مسلم كتاب الجنائز باب فيمن يثنى عليه خيرا أو شر من الموتى ٢ / ٦٥٥ .

(٦) - انظر سنن الترمذي ٤ / ٥١٣ بتصرف ، وانظر شرح السنة ١٤ / ٣٢٩ .

وللملا علي القاري توجيهه وجيه هنا حيث قال : "والأظهر أن إعجابه بحسب أصل الطبع المطابق للشرع ، من أنه يعجبه ، إذا رآه أحد على حالة حسنة ويكره أن يراه على حالة قبيحة مع قطع النظر عن أن يكون ذلك العمل مطمحا للرياء ومطمعا للسمعة ، فيكون من قبيل قوله - صلى الله عليه وسلم - على ما رواه الطبراني عن أبي موسى الأشعري "من سرته حسنة وسأته سيئة فهو مؤمن"^(١). وقد قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢) فالمؤمن يفرح بتوفيق الأعمال كما أن غيره يفرح بتكثير الأموال ، والله تعالى أعلم بالأحوال"^(٣) .

وما ذكره القاري وجيه في توجيه الحديث ، ويؤخذ منه أن مطالعة العمل بعين الرضا لا تفسد العمل إلا إذا صاحب العمل رياء أو عجب .

وأما عن الحديث الذي أورده الآلوسي وعزاه إلى أبي نعيم فهو حديث في إسناده مقال ، ولا يقوى على معارضة ما ذكرناه وقد ذكرنا سنده في أول المثال ونزيد هنا أن ضعف هذا الحديث من ثلاثة أوجه :

أولاً - لأن محمد بن أحمد بن علي بن المخرم شيخ أبي نعيم الأصبهاني قد ضعفه الدار قطني وقال البرقاني لا بأس به ، وقال ابن أبي الفوارس لم يكن عندهم بذاك^(٤) .

ثانياً - عمرو بن دينار أحد رجال السند ضعيف^(٥) .

ثالثاً - في السند شيخ مجهول وهو الذي حدث عن سالم مولى أبي حذيفة.

المثال الخامس - ما ذكره الآلوسي بعد تفسيره للآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ

(١) - أخرجه الحاكم في المستدرک کتاب الإيمان بعدة روايات وقال هذه الأحاديث كلها صحيحة متصلة على شروط

الشيخين ١٠ / ١ - ١١ .

(٢) - سورة يونس الآية ٥٨ .

(٣) - مرقاة المفاتيح ٩ / ١٨٢ .

(٤) - ميزان الاعتدال ٣ / ٤٩٢ .

(٥) - تهذيب التهذيب ٨ / ٢٧ .

أَنَّمَا^(١) قال في باب الإشارة : ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي : إلا بسطوة تجلياته تعالى ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بالتصرف في عجز الدنيا ولا ينالون منها شيئاً إلا بإذنه تعالى^(٢) .

ولا يخفى أن التفسير الإشاري هنا يعارض المعنى الظاهر في شيئين :

أولاً : في أن المسلم لا يحل دمه إلا في ثلاثة أحوال أقسم عليها النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال "والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا ثلاثة نفر : التارك للإسلام، المفارق للجماعة أو الجماعة - شك فيه أحمد -^(٣) والشيبي الزاني والنفس بالنفس"^(٤) .

فمن أين تأتي تلك الحالة المذكورة في التفسير الإشاري بعد قسم النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يحل دم المسلم إلا في الأحوال التي عينها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟

ثانياً : أن تفسير الزنا بالتصرف في عجز الدنيا تفسير بعيد لا يتفق مع ظاهر الشرع ؛ بل ويخالف ما رواه الشيخان واللفظ لمسلم بسنده إلى عبد الله ابن مسعود قال : قال رجل : يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال : "أن تدعو الله ندا وهو خلقك" ، ثم قال : ثم أي ؟ قال : "أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك" ، قال : ثم أي؟ قال : "أن تزاني حليلة جارك" فأنزل الله عز وجل تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٥) .

(١) - سورة الفرقان ، الآية : ٦٨ .

(٢) - روح المعاني ١٩ / ٥٧ .

(٣) - أي أحمد بن حنبل الذي روى عنه مسلم هذا الحديث .

(٤) - هذا النص رواية مسلم في كتاب القسامة باب ما يباح به دم المسلم ٣ / ١٣٠٣ .

(٥) - صحيح مسلم كتاب الإيمان باب كون الشرك أقيع الذنوب وبيان أعظمها بعده ١ / ٩١ ، وانظر صحيح البخاري

كتاب التفسير باب قوله (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس الآية ١٨ / ١٠٣ .

فقول عبد الله - رضي الله عنه - واضح في أن المراد بالزنا هو الزنا المعروف وليس المراد به أمرا مجازيا هو التصرف في عجوز الدنيا ، ثم إن تفسير الزنى المعروف بالمعنى الإشاري السابق فيه تهوين للجريمة الكبرى التي حذر منها الإسلام بل وقد نهي عن القرب منها ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١) .

المثال السادس - ما ذكره سهل بن عبد الله في تفسير قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال : فلما غايطونا بالإقامة على المخالفة في الأوامر وإظهار البدع في الدين وترك السنن إتباعا لوجود الأهواء نزعنا نور المعرفة من قلوبهم وسراج التوحيد من أسرارهم ووكلائهم إلى أنفسهم وما اختاروه فضلوا وأضلوا^(٢) . ولا يخفى أن هذا التفسير الإشاري بعيد عن المعنى الظاهر للآية ولا يمكن الجمع بينهما وهو شرط - كما مضى - من شروط قبول التفسير الإشاري .

وبيان ذلك أن الآية وردت في شأن الانتقام الإلهي من فرعون وجنوده وكيف كانت نهايتهم حيث جعلهم الله تعالى مثلا لكل من طغى وتجبر ، قال تعالى في آخر قصة موسى وفرعون في آخر سورة الزخرف ﴿فَاسْتَخَفَّ﴾ فرعون ﴿قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾^(٣) .

المطلب الثاني - التفسير الإشاري المقبول وثماره

كل تفسير إشاري يجيء وفقا للشروط السابقة يجوز قبوله ، لأنه إذا كان لا ينافي المعنى الظاهري للآية ، ولا يناقض ظواهر القرآن والسنة عموما وله من الشرع ما يؤيده فما المانع من قبوله ، وقد عرفنا أن بعض الصحابة كعبد الله بن عباس كان له فهم في بعض آيات القرآن يعد من هذا القبيل .

(١) - سورة الإسراء الآية ٣٢ .

(٢) - تفسير القرآن العظيم لسهل بن عبد الله ص ٨٥ .

(٣) - سورة الزخرف الآيات ٥٤ - ٥٦ .

وسنذكر هنا من الأمثلة ما يدل على أنه جاء في ثنايا التفسير الإشاري الكثير ،
والكثير من المعاني المقبولة التي لا يجب إغفالها بل ينبغي قبولها والاستفادة منها ، وإليك
الدليل لما نقول :

المثال الأول: ما ذكره النيسابوري عند قوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ
وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(١) قال: وقال أهل التحقيق: القلب الذي في وسط
الإنسان هو واسطة بين الروح والجسد، فكأنه قيل: حافظوا على صورة الصلوات
بشرائطها وحافظوا على معاني الصلوات وحقائقها بدوام شهود القلب للرب في الصلاة
وبعدها^(٢).

والتفسير الإشاري هنا بأن الآية تشير إلى أن المراد بالصلاة الوسطى المحافظة على
روح الصلاة من خشوع القلب بعد خشوع الجوارح ، وأن يراعي المسلم في صلاته
الإحسان الذي عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه
فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٣) كل ذلك لا يناقض ظاهر الآية ، بل له من ظواهر القرآن
والسنة ما يؤيده ، وبيان ذلك فيما يلي :

١— مما يدل على أن القلب هو الأساس في الأعمال ، وأن حضوره فيها أمر من الأهمية
بمكان قوله - صلى الله عليه وسلم - "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر
إلى قلوبكم وأعمالكم"^(٤) .

٢— أن الخشوع في الصلاة من صفات المؤمنين المفلحين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ
فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٥) والخشوع في الأصل يكون في القلب ، ومن خشع قلبه
خشعت جوارحه ، ولذلك صح عن علي - كرم الله وجهه - أنه سئل عن قوله

(١) — سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨ .

(٢) — غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢ / ٣٨٦ وما أورده النيسابوري لم يذكره عند التأويل لكن الكلام ينطبق عليه .

(٣) — صحيح البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جرير عن الإيمان والإسلام والإحسان ١ / ١٩٩ .

(٤) — صحيح مسلم كتاب البر والصلوة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ٤ / ١٩٨٧ .

(٥) — سورة المؤمنون الآيتان ١ — ٢ .

عز وجل ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فقال : "الخشوع في القلب وأن تلين كنفك للمرأة المسلم وأن لا تلتفت في صلاتك" (١) .

٣- لما كان ذلك كذلك فإن السنة الشريفة كرهت أن يصلي المسلم إلى شيء فيه صور أعلام ، حتى لا يلهيه ذلك ، أخرج البخاري في كتاب الصلاة ، باب إذا صلى في ثوب فيه له صور أعلام ونظر إلى علمها بسنده إلى عائشة رضي الله عنها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة فلما انصرف قال : اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وأتوني بأبجانية أبي جهم فإنها ألهتني في صلاتي" (٢) .

قال الحافظ ابن حجر ما خلاصته: الخميصة كساء مربع له علمان، والابجانية كساء غليظ لا علم له ، و(ألهتني) أي : شغلتني (عن صلاتي) عن كمال الحضور فيها كذا قيل ، والطريقة الآتية المعلقة (٣) تدل على أنه لم يقع له شيء من ذلك ، وإنما خشي أن يقع لقوله فأخاف ، وكذا في رواية مالك (٤) (فكاد) فلتؤل الرواية الأولى.

قال ابن دقيق العيد : فيه مبادرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مصالح الصلاة ونفي ما لعله يخدش فيها ، وأما بعثه بالخميصة إلى أبي جهم فلا يلزم منه أن يستعملها في الصلاة ...

(١) - انظر المستدرک للحاکم کتاب التفسیر "تفسیر سورة المؤمنون وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ٣٩٣ / ٢ ووافقه الذهبي في التلخيص ، انظر تلخيص المستدرک هامش الصحيفة .

(٢) - صحيح البخاري ٣٤٤/٣ - ٣٥ ، وانظر صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها باب كراهية الصلاة في ثوب له أعلام . ٣٩١/١ .

(٣) - يريد الحافظ بذلك ما رواه البخاري بعد ذلك معلقا ونصه : قال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قال النبي صلى الله عليه وسلم كنت أنظر إلى علمها وأنا في الصلاة فأخاف أن تفتني اهـ . صحيح البخاري ٣٦ / ٣ .

(٤) - انظر الموطأ للإمام مالك بن أنس كتاب الصلاة باب النظر في الصلاة إلى ما يشغلك عنها ٩٧ / ١ - ٩٨ ط دار إحياء الكتب العربية .

ويستنبط منه كراهية كل ما يشغل عن الصلاة من الأصابع والنقوش ونحوها .
وقال الطيبي : فيه إيدان بأن للصور والأشياء الظاهرة تأثيرا في القلوب الطاهرة والنفوس
الزكية ، يعني فضلا عما سواها ^(١) .

٤- إن قيل فما تقول فيما صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال يوم
الأحزاب "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله بيوتهم وقبورهم نارا" ثم صلاها
بين العشاءين بين المغرب والعشاء ^(٢) .

نقول : لا منافاة بين الحديث الشريف وما ورد في التفسير الإشاري لأنه لا
توجد الفائدة الكاملة من الصلوات جميعا وصلاة العصر خصوصا إذا لم تكن تلك
الصلوات مصحوبة بالأداء الصحيح في الظاهر وخشوع القلب في الباطن ، ويدل على
ذلك أدلة كثيرة نكتفي بذكر الدليلين : للمثال ولا للحصر .

أولهما : ما أخرجه الشيخان وغيرهما واللفظ للبخاري أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - دخل المسجد فدخل رجل فصلى فسلم على النبي - صلى الله عليه وسلم -
- "فرد" وقال : "ارجع فصل فإنك لم تصل" فرجع الرجل يصلي كما صلى ثم جاء فسلم
على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال "ارجع فصل فإنك لم تصل ثلاثا" .

فقال : والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمي ؟ فقال : "إذا قمت إلى
الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعا ثم ارفع حتى
تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا وافعل ذلك في
صلواتك كلها ^(٣) .

(١) - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣ / ٣٥ - ٣٦ .

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر
٤٣٧/١ .

(٣) - انظر صحيح البخاري كتاب الصلاة أبواب صفة الصلاة باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها ٤/
١٤٦ - ١٤٩ ، وانظر صحيح مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ٢٩٨ / ١ .

ثانيهما : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال "منكم من يصلي الصلاة كاملة ومنكم من يصلي النصف والثالث والرابع حتى بلغ العشر" (١).

قال الشيخ الساعاتي في شرح هذا الحديث : أي أن أتى بها تامة الأركان وكان مخلصا خاشعا فإذا انقص من ذلك شيئا نقص من ثوابه بقدره وهكذا ... (تخرجه) أخرجه النسائي وقال المنذري بإسناد حسن (٢).

قلت : ويشهد له حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عند أبي داود والنسائي وابن حبان قال : سمعت رسول الله - صلى عليه وسلم - يقول : "إن الرجل ينصرف وما كتب له إلا عشر صلواته تسعها ثمنها سبعة سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها" (٣).

قلت فإن أحسنها وأتقنها كتب له الثواب كاملا ؛ بل قد يضاعف له الثواب (٤). ونحتم كلامنا هنا بأن العبرة ليست بعمل الجوارح في الصلاة فقط بل بها وبمراقبة الله تعالى بالقلب ، ويدل على ذلك هنا الحديث الذي أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ، كتاب الصلاة باب من صلى صلاة لا يحدث نفسه فيها إلا بخير ، أن عثمان - رضي الله عنه - توطأ ثلاثا ثم قال إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توطأ نحو وضوئي هذا ، ثم قال : "من توطأ نحو وضوئي هذا ، ثم ركع ركعتين لا يحدث نفسه فيهما إلا بخير غفر له ما تقدم من ذنبه" وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا (٥).

(١) - أخرجه الإمام أحمد انظر الفتح الرباني كتاب الصلاة باب في وعيد من قامون بأمر الصلاة أو أخرها عن وقتها ٢٢٩/١ .

(٢) - انظر الترغيب والترهيب كتاب الصلاة باب الترهيب من عدم إتمام الركوع والسجود وإقامة الصلابة بينهما وما جاء في الخشوع ١ / ٣٤١ ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٣) - انظر سنن أبي داود كتاب الصلاة باب ما جاء في نقصان الصلاة ٣ / ٣ ، وانظر السنن الكبرى للنسائي كتاب السهو باب نقصان الصلاة ٢١١/١ حسن إسناده الألباني في صحيح سنن أبي داود ١٥١/١ ، ط مكتب التربية العربي لدول الخليج .

(٤) - بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ٢٢٩/٢ .

(٥) - مجمع الزوائد ٢٧٧/٢ - ٢٧٨ وأورده مسلم بنحوه ، انظر صحيح مسلم كتاب الطهارة باب صفة الوضوء وكمالها ٢٠٥/١ .

المثال الثاني : ما ذكره سهل بن عبدالله التستري في تفسيره عند قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْجَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) حيث قال: يعني من أراد بعلمه غير الله تعالى آتاه الله أجر عمله في الدنيا فلا يبقى له في الآخرة شيء لأنه لم يخلص بعلمه لله لما أحب له من المتزلة في الدنيا ولو علم أن الله سخر الدنيا وأهلها لطلاب الآخرة لم يراء بعلمه^(٢).

هذا ؛ وقول سهل في معنى النص الكريم بأن فيه إشارة إلى أن من أراد بعمله غير الله تعالى يوفى أجره في الدنيا ولا أجر له في الآخرة ، لأنه لم يخلص عمله لله تعالى هذا القول من التفسير الإشاري المحمود لأن ظواهر القرآن والسنة تؤيده .

ورغم أن سياق النص الكريم في معرض تحدي القرآن للمشركين أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن في حسن البيان والنظم إلا أن النص الكريم يحتمل أن يكون خطابا للمسلمين وغيرهم ، فقد قال بعض المفسرين : إن النص عام في جميع الخلق ، وهو قول الأكثرين ، وقيل في أهل القبلة قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وقيل في اليهود والنصارى قاله أنس ، وقيل في أهل الرياء قاله مجاهد^(٣) .

وجملة القول : أن الرياء محبط للعمل أيا كان هذا العمل فإذا تطرق إلى الإيمان صيره نفاقا والعياذ بالله ، يقول سهل بن عبدالله في تفسيره للآية الأولى في جواب عن سؤال : هل يدخل الفرائض رياء ؟

(١) - سورة هود الآيتان ١٥ - ١٦ .

(٢) - تفسير القرآن العظيم لسهل بن عبدالله التستري ص ٤٧ .

(٣) - انظر زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي ٦٤/٤ - ٦٥ ،

ط دار الكتب العلمية ، وانظر الكشاف ٣٨٤ / ٢ ، وانظر البحر المحيط ٢٠٩/٥ .

قال : نعم ، قد دخل الإيمان الذي هو أصل الفرائض حتى أبطله وصار نفاقا فكيف العمل فكل من لم يعب أحد عليه في ظاهره ويعلم الله خلافه من سره في أي حال كان فهو المرائي الذي لا شك فيه ^(١) .

وإليك الدليل من السنة المشرفة على أن المرءين لا ثواب لهم يوم القيامة أخرج مسلم وغيره واللفظ له في كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، أخرج بسنده إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ولكنك قاتلت ؛ لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار ^(٢) .

المثال الثالث : ما أورده الإمام القشيري ^(٣) في لطائف الإشارات عند قوله تعالى ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) - تفسير القرآن العظيم لسهل ص ٤٧ .

(٢) - صحيح مسلم ٣ / ١٥١٤ ، وانظر السنن الكبرى للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي تحقيق د/ عبدالغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن ٣ / ١٧ ، ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) - هو الصوفي الشهير عبدالكريم بن هوزان عبدالملك بن طلحة بن محمد القشيري ولقبه زين الدين وشهرته القشيري ولد في ربيع الأول سنة ٣٧٦هـ وتوفي في يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٤٦٥هـ له كتب كثيرة أشهرها الرسالة القشيرية وكتابه في التفسير المسمى "لطائف الإشارات" وغير ذلك ، انظر مقدمة كتاب لطائف الإشارات للأستاذ حسن عباس زكي ص ١٩ وما بعدها .

يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ»^(١) قال في قوله تعالى ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة فمعناه : اجعل صلاتي ، واجعل والخلق بمعنى فإذا جعله مقيم الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاة . وقوله ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي : اجعل منهم قوما يصلون ؛ لأنه أخبره في موضع آخر بقوله ﴿لَا يَتَّالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢) .

ثم قال ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن ، ويقال إن إجابة الدعاء ابتداء فضل منه ، ولا ينبغي للعبد أن يتكل على دعاء أحد ، وإن كان على الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ، فلا دعاء أتم من دعاء إبراهيم - عليه السلام - ولا عناية أتم من عنايته بشأن أبيه ثم لم ينفعه ولا شفح الله له .

ويقال : لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعائه فإن إبراهيم الخليل - عليه السلام - دعا لأبويه فلم يستجب له ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حينما لم يجب فيه ، فلا غضاضه على العبد ولا تناله مذلة إن لم يجبه مولاه في شيء ، فإن الدعاء عبادة لا بد للعبد من فعلها ، والإجابة من الحق فضل وله أن يفعل وله أن لا يفعل^(٣) .

هذا ؛ وما ذكره الإمام القشيري رحمه الله تعالى حول هاتين الآيتين من إشارات تعد جميعها من قبيل التفسير الإشاري المحمود وبيان ذلك ما يلي :

- ١- إشارة قوله تعالى ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ إلى خلق أفعال العباد مما قال به أهل السنة والجماعة وهي مسألة طويلة ليس هذا موضعها فلتطلب من مظاهرها^(٤) .
- ٢- قوله بأن إجابة الدعاء ابتداء فضل من الله ، وأن العبد يجب أن يعلق قلبه بالله عزوجل ولا يتكل على دعاء أحد ، لا نزاع في ذلك القول وما اشتمل عليه وهو أوضح من أن ندلل عليه .

(١) - سورة إبراهيم ، الآيتان : ٤٠ - ٤١ .

(٢) - سورة البقرة ، الآية : ١٢٤ .

(٣) - لطائف الإشارات للإمام القشيري ٢٥٨/٣ ، تحقيق د/ إبراهيم بسيوني ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

(٤) - انظر التراس شرح شرح العقائد النسفية ص ١٧٠ - ١٧٤ .

٣- قوله إن العبد ينبغي ألا يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعاءه قول لا شك فيه ، ونزيد هنا أن المراد بقول القشيري "ألا يستجيب الله دعاءه" المقصود به في الدنيا إذا توافرت شروط الدعاء من طيب المطعم والمشرب والملبس ونحو ذلك ، وألا يدعو المسلم بإثم أو قطيعة رحم .

فإذا استوفى ذلك استجيب له بفضل الله تعالى .

ولنختتم هذا المثال بهذا الحديث للترغيب في الدعاء ، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح والحاكم وصححه ووافقه الذهبي واللفظ للإمام أحمد بسنده إلى أبي سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذا كثرتنا قال الله أكثر^(١) .

المثال الرابع : ما ذكره الإمام الألويسي عند تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ * وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ حيث ذكر في التفسير الإشاري ما يلي ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن النسب إذا لم ينضم إليه الإيمان لا ينفع شيئاً ، ولما كان حجاب القرابة كثيفاً أمر صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته الأقربين ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هم أهل النسب المعنوي الذي هو أقرب من النسب الصوري كما أشار إليه ابن الفارض قدس سره بقوله :

نسب أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب من أبوى

(١) - انظر المسند تحقيق : د / أحمد عمر هاشم ٢٢ / ٦٣ ، وانظر مجمع الزوائد للهيتمي كتاب الأدعية باب قبول دعاء المسلم ١٠ / ١٤٨ - ١٤٩ ، وانظر المستدرک للحاكم كتاب الدعاء باب الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وصححه ١ / ٤٩٣ وواقفه الذهبي في التلخيص هامش نفس الصحيفة ، وانظر سنن الترمذي أبواب الدعوات باب ما جاء في أن دعوة المسلم مستجابة ٥ / ٤٣١ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢ / ٩٩٦ ط المكتب الإسلامي .

(٢) - سورة الشعراء ، الآيتان : ٢١٤ - ٢١٥ .

وأنا أحمد الله تعالى كما هو أهله على أن جعلني من الفائزين بالنسبين حيث
 وهب لي الإيمان وجعلني من ذرية سيد الكونين - صلى الله عليه وسلم - فها أنا من
 جهة أم أبي من ذرية الحسن وجهة أبي من ولد الحسين - رضي الله تعالى عنهما - .
 نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا
 والله عزوجل هو ولي الإحسان المتفضل بصنوف النعم على نوع الإنسان
 والصلاة والسلام على سيد العالمين وآله أجمعين (١) .

وما ذهب إليه الإمام الألويسي من التفسير الإشاري في هذا الموضع يعتبر من
 التفسير الإشاري المحمود ، وإليك البيان :

أولا - الإشارة في قوله تعالى ﴿وَأَلَدِرْ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ إلى أن النسب إذا لم
 ينضم إليه الإيمان لا ينفع شيئا ، هذا أمر قد قرره القرآن الكريم قال تعالى على لسان
 نوح عليه السلام ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٢) وكان
 نوح عليه السلام يريد نجاة ولده من الغرق في الطوفان بوعد الله تعالى له أن ينجيه
 وأهله ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (٣) فرد الله
 تعالى عليه ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
 عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤) .

وقد قرر القرآن ذلك في موضع آخر ، قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾
 قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ
 بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥)
 والنص الكريم واضح في أن الأنساب لا تنفع الكافرين والمجرمين يوم القيامة ، قال الإمام

(١) - روح المعاني ٩ / ١٥٤ .

(٢) - سورة هود ، الآية : ٤٥ .

(٣) - سورة هود ، الآية : ٤٠ .

(٤) - سورة هود ، الآية : ٤٦ .

(٥) - سورة المؤمنون ، الآيات : ٩٩ - ١٠١ .

البيضاوي ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنه ^(١) . أو يفتخرون بها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما يفعلون اليوم ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضا لاشتغاله بنفسه وهو لا يناقض قوله تعالى : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ^(٢) .

لأنه عند النفخة وذلك بعد المحاسبة ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ^(٣) .

أو أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها وفي بعضها لا يفطنون لذلك لشدة الهول والفرع ^(٤) .

وقد بينت السنة المشرفة أن النجاة يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح وليست بالأنساب ، أخرج البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ بسنده إلى أبي هريرة أنه قال : قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أنزل عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال : يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئا" ^(٥) .

وأخرجه مسلم بنحوه وجاء في آخره "يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإنني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سألها ببلالها" ^(٦) . ومعنى سألها أي سألها

(١) - مقتبس من قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ سورة عبس ، الآيات : ٣٣ - ٣٧ .

(٢) - سورة الصافات ، الآية : ٢٧ .

(٣) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٣ / ٤١١ .

(٤) - الكشف ٣ / ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٥) - صحيح البخاري ١٨ / ١١٥ - ١١٦ .

(٦) - صحيح مسلم كتاب الإيمان باب في قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ١ / ١٩٢ .

شبهت قطعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة بالماء (ببلاها) بكسر الباء وفتحها من بله ييله والبلال الماء^(١) .

وفي هذين الحديثين ما يدل على أن المرء لا يتكل على القرابة ، وقد أكد ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه وجاء في آخره " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " ^(٢) .

يقول الإمام النووي : معناه من كان عمله ناقصاً لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغي ألا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل ^(٣) .

كما يشهد لذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه بسنده إلى عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جهاراً غير سر يقول : "ألا إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما ولي الله وصالح المؤمنين" ^(٤) . ومعنى الحديث كما ذكر الإمام النووي : إنما ولي من كان صالحاً وإن بعد نسبه مني ، وليس ولي من كان غير صالح وإن كان نسبه قريباً ^(٥) .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي : أشار النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا الحديث إلى أن ولايته لا تنال بالنسب وإن قرب وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح ، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له سواء كان له نسب قريب أو لم يكن وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

(١) - انظر الديباج على صحيح مسلم بن حجاج للسيوطي ، تحقيق : بديع السيد اللحام ١/ ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ط إدارة القرآن والعلوم الإسلامية كراتشي باكستان .

(٢) - صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/ ٢٠٧٤ .

(٣) - شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٥٥١ .

(٤) - صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على من مات على الكفر لا ينفعه عمل ١/ ١٩٧ .

(٥) - شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ٤٩٠ .

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسب أباهب^(١)
فإن قيل : كيف نوفق بين هذه الأحاديث التي تنص على أن العبرة ليست
بالنسب وبين ما صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : "كل نسب وصهر
ينقطع يوم القيامة إلا نسي وصهري"^(٢) .
فالجواب عن ذلك بما يلي :

أولاً - أن هذا الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم من مثل "يا فاطمة بنت
محمد سلبني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً" قاله قبل أن يعلمه الله تعالى
بأنه يشفع فيمن أراد وتقبل شفاعته حتى يُدخل قوما الجنة بغير حساب ويرفع درجات
قوم آخرين ويخرج من النار من دخلها بذنوبه .

ثانياً - أن يكون ما قاله عند نزول ﴿وَالَّذِينَ عَشِرتُكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قاله في مقام
التخويف والتحذير .

ثالثاً - أنه أراد المبالغة في الحض على العمل ويكون في قوله "لا أغني شيئاً"
إضمار إلا أن أذن الله لي بالشفاعة^(٣) .

رابعاً - للإمام الطيبي كلام قيم في هذا الموضوع نقله عنه العلامة المناوي قال :
النسب ما رجع إلى ولادة قريبة من جهة الآباء ، والصهر ما كان من خلطة تشبه
القرباة يحدثها المتزوج ، وعلم بهذا الحديث ونحوه عظيم نفع الانتساب إليه - عليه
السلام ، ولا يعارضه ما في أخبار آخر من حثه لأهل بيته على خشية الله واتقائه وأنه لا
يغني عنهم من الله شيئاً ، لأنه لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً لكن الله يملكه نفع أقاربه ،

(١) - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم للحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب
الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي ص ٤٢٣ ، ط دار الريان للتراث .

(٢) - أورده السيوطي في الجامع الصغير ٣٥/٥ - ٣٦ ورمز لصحته وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٨٣٨/٢
وعزاه كل منهما إلى ابن عساكر وورد بنحوه في المسند للإمام أحمد بن حنبل ، انظر الفتح الرباني كتاب السيرة باب ما
جاء في ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم وشيء من مناقبهم ٩٥/٢٢ .

(٣) - انظر فتح الباري ١١٤/١٨ .

فقوله لا أغني عنكم من الله شيئا أي : بمجرد نفسي من غير ما يكرمني الله به من نحو شفاعة ومغفرة فخاطبهم بذلك رعاية لمقام التخويف^(١) .

وجملة القول : أنه لا ينبغي لأحد أن يتكل على النسب وإن كان يرجى لمن كان له نسب أو صهر لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ينتفع بهذا النسب والصهر يوم القيامة لهذا الحديث الصحيح ، ولذلك فإن الصحابي الجليل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رغم ما له من المكانة إلا أنه تزوج السيدة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب لهذا الحديث ، قال الحافظ ابن كثير عن السنة السابعة عشر من الهجرة " وفيها تزوج عمر بن الخطاب بأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخل بها في ذي القعدة وأمهرها أربعين ألفا وقال إنما تزوجتها لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل سبب ونسب فإنه ينقطع يوم القيامة إلا سبي ونسي"^(٢) .

وهذا الذي فعله عمر قد جاء بسند صحيح عند الطبراني كما قال الهيثمي حيث روى عن أسلم مولى عمر قال دعا عمر بن الخطاب على بن أبي طالب فساره ثم قال علي فجاء الصفة فوجد العباس وعقيل والحسين فشاورهم في تزويج عمر أم كلثوم فغضب عقيل وقال يا علي : ما تزيدك الأيام والشهور والسنون إلا العمى في أمرك والله لئن فعلت ليكونن وليكونن لأشياء عددها ومضى يجر ثوبه . فقال علي للعباس والله ما ذلك من نصحية ولكن درة عمر أخرجته إلى ما ترى ، أما والله ما ذاك رغبة فيك يا عقيل ولكن أخبرني عمر ابن الخطاب يقول سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول "كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسي" فضحك عمر وقال ويح عقيل سفية أحق"^(٣) .

(١) - فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥ / ٣٥ - ٣٦ .

(٢) - انظر البداية والنهاية ٧ / ٩٠ ، وانظر بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ٢٢ / ٩٥ - ٩٦ .

(٣) - مجمع الزوائد كتاب لنكاح باب في الشريقات وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ١ - ٤ / ٢٧١ - ٢٧٢ ، وانظر المعجم الكبير للطبراني ٣ / ٣٦ ، وأخرجه الحاكم في المستدرک في كتاب معرفة الصحابة وفيه أن عمر رضي الله عنه فرح -

المثال الخامس — ما ذكره الآلوسي عند تفسير قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١) حيث قال : أشار سبحانه وتعالى إلى أن من اعتمد على غير الله عزوجل في أسباب الدنيا والآخرة فهو منقطع عن مراده غير واصل إليه" قال ابن عطاء: من اعتمد على شيء سوى الله تعالى كان هلاكه في نفس ما اعتمد عليه ومن اتخذ سواه عزوجل ظهيرا قطع عن نفسه سبيل العصمة ورد إلى حوله وقوته^(٢) .

وهذا التفسير الإشاري بأن المسلم يجب أن يعتمد على الله تعالى حتى لا يخيب مسعاه الخ ، تؤيده آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٣) ، ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾"^(٤) .

يقول الملا علي القاري في شرح هذا الحديث " لو أخذ الناس " أي : عملوا بها أي : بانفرادها " لكفتهم " ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ من البلايا ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي : من العطايا وما بعده ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ قال الطيبي - رحمه الله - يريد الآية بتمامها فقوله ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ إلى قوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٥) . إشارة إلى أنه تعالى يكفيه جميع

= بهذا الزواج وأتى المهاجرين فقال ألا تهنوني فقالوا نعم يا أمير المؤمنين فقال بأمر كلثوم بنت علي وابنة فاطمة ثم ذكر الحديث ١٤٢ / ٣ وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي صحيح منقطع ، وانظر السنن الكبرى للبيهقي كتاب النكاح باب ما جاء في إنكاح الآباء الأبكار ١١٤ / ٧ ط دار الفكر .

(١) — سورة العنكبوت ، الآية : ٤١ .

(٢) — روح المعاني ١٥ / ٢١ .

(٣) — سورة الطلاق ، الآيتان : ٢ — ٣ .

(٤) — هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد ، انظر الفتح الرباني كتاب فضائل القرآن وتفسيره وأسباب نزوله أبواب التفسير باب ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ١٨ / ٣٠٨ — ٣٠٩ ، وأورده في كتاب الإمارة والخلافة باب في وجوب طاعة أولي الأمر إلا في معصية الله ... ٢٣ / ٣٦ — ٣٧ في رواية طويلة وقال المحقق الحديث جيد الإسناد ، انظر بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني ٢٣ / ٣٦ .

(٥) — هما آيتان في المصحف كما سبق بيانه .

ما يخشى ويكره من أمور الدنيا والآخرة ، وقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى يكفيه جميع ما يطلبه ويتغنيه من أمور الدنيا والآخرة و﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي : نافذ أمره ، وفيه بيان لوجوب التوكل عليه وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم إن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوفيقه لم يبق إلا التسليم للقدر والقضاء والتوكل ^(١).

كما أن هذا المعنى تؤيده السنة المشرفة فقد أخرج الترمذي في سننه كتاب الزهد باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها بسنده إلى عبدالرحمن بن مسعود أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل" وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب ^(٢).

فإن قيل : هل هذا معنى ذلك أن يترك الناس السعي والكسب واتخاذ الأسباب؟ قيل : لا ، إن ترك ذلك ليس من التوكل في شيء ، ويدل على ذلك حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وقوله . أما حاله - صلى الله عليه وسلم - فإنه لم يترك السعي واتخاذ الأسباب لا في مقامه ولا في غزواته ويكفي في ذلك ما حدث في غزوة بدر الكبرى من استشارته أصحابه ونزوله على رأيهم وتنظيمه للصفوف وما إلى ذلك وهذا لا يجمله أحد .

وأما قوله - صلى الله عليه وسلم - فيكيفك ما أخرج الترمذي : "لو أنكم كنتم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصا وتروح بطانا" اهـ . وقال هذا حديث حسن صحيح ^(٣).

(١) - انظر مرقاة المفاتيح ٩ / ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) - سنن الترمذي ٤ / ٤٨٨ ، وانظر سنن أبي داود كتاب الزكاة باب في الاستعفاف ٥ / ٦٠ .

(٣) - سنن الترمذي كتاب الزهد باب في التوكل على الله ٤ / ٤٩٥ ، وانظر سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب التوكل

واليقين ٢ / ١٣٩٤ .

فإن الطير لا تجلس في مكائها ويأتيها الرزق ولكنها تسعى في أول النهار (خماصا) أي جياعا (وتروح) أي : تعود آخر النهار (بطاننا) قد امتلأت بطونها من رزق الله تعالى لها .

قال الملا علي القاري قال الشيخ أبو حامد - الغزالي - رحمه الله تعالى : قد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة أو كلحم على وضم^(١) وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكل فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحذور من محظورات الدين ؟

بل نكشف عن الحق فيه فنقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده .

وقال الإمام أبو القاسم القشيري : أعلم أن التوكل محله القلب وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بعدما يحق العبد أن الرزق من قبل الله تعالى ؛ فإن تعسر شيء فبتقديره وإن تيسر شيء فبتيسيره^(٢) .

المثال السادس - ما ذكره سهل بن عبدالله عند تفسير قوله تعالى ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾^(٣) حيث قال : لا تلبس ثيابك على معصية فطهره عن حظوظك^(٤) .
هذا ؛ والمعنى الظاهر للنص هو الأمر بتطهير الثياب من النجاسات ؛ لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة^(٥) ؛ لكن المفسرين ذكروا فيها عين ما ذكره سهل من أن المعنى المراد طهارة النفس أو القلب أو الأهل وإليك البيان.

(١) - الوضم ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير ١ هـ - القاموس المحيط ٤ / ٢٦٤ والعبارة مجاز عن الذلة حيث يقال للذليل هو لحم على وضم . انظر أساس البلاغة للزمخشري ص ٦٨٠ ، ط دار الفكر .

(٢) - مرقاة المفاتيح ٩ / ١٥٧ ، وانظر الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم عبدالكريم القشيري تحقيق د/عبدالحليم محمود و د/ محمود بن الشريف ١ / ٤١٧ ، ط دار الكتب الحديثة .

(٣) - سورة المدثر ، الآية : ٤ .

(٤) - تفسير القرآن العظيم لسهل بن عبدالله التستري ص ١١٢ .

(٥) - انظر البحر المحيط ٨ / ٣٧١ ، وانظر الكشاف ٤ / ٦٤٥ .

القول الأول : قال الرمخشري : قيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقدر من الأفعال ويستهن من العادات ، يقال فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدافس الأخلاق ، وفلان دنس الثياب للغادر ، وذلك لأن الثوب يلبس الإنسان ويشتمل عليه فكفى به عنه ، ألا ترى إلى قولهم : أعجبني زيد ثوبه كما يقولون : أعجبني زيد عقله وخلقه ، ويقولون : المجد في ثوبه والكرم تحت حلته ، ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاها عني بتطهير الظاهر وتنقيته وأبى اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء (١) .

وذكر هذا الرأي ابن الجوزي وعزاه لمجاهد وقتادة قال ويشهد له قول عنترة :
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكرم على القنا محرم
أي : شككت نفسه وهذا مذهب ابن قتيبة (٢) .

القول الثاني : قيل المراد بالآية قلبك طهره قاله سعيد بن جبير ويشهد له قول

إمرئ القيس:

فإن يك قد ساءتكَ مني حليلة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
أي : قلبي من قلبك (٣) .

القول الثالث : قيل المراد بالآية ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرْ﴾ كناية عن الأهل قال تعالى :

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ (٤) والتطهر فيهن اختيار المؤمنات العفيفات (٥) .

هذا وهذه الأقوال الثلاثة فيها خروج عن المعنى الظاهر للنص الكرم لكنها لا تخالفه ، بل يمكن الجمع بينها وبينه ، والقولان : الأول والثاني قريبان مما قاله سهل بن عبد الله في التفسير الإشاري .

(١) — الكشف ٢٤٥/٤ .

(٢) — زاد المسير ١٤٦/٨ .

(٣) — زاد المسير ١٤٦/٨ ، وانظر البحر المحيط ٣٧١/٨ .

(٤) — سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٥) — البحر المحيط ٣٧١/٨ .

ونكتفي بهذه الأمثلة من التفسير الإشاري المحمود وهي تساوي في العدد مع الأمثلة التي ذكرناها للتفسير الإشاري المردود ، مؤكداً أنه يجب على الباحث أن ينظر ويتأمل قبل قبول التفسير الإشاري ، فلا بد من عرضه على تلك الشروط السابقة فإن وافقها قبل وإلا فلا .

ولا يسارع برفضه ورده كله فذلك ليس من الانصاف في شيء .

المبحث الثامن

الفرق بين التفسير الصوفي النظري والإشاري ؛

وفيه مطلبان :

المطلب الأول - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني

المطلب الثاني - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الصوفي النظري

المبحث الثامن - الفرق بين التفسير الإشاري والباطني والصوفي النظري ؛

وفيه مطلبان :

المطلب الأول - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني

كثيرا ما يحدث الخلط بين التفسير الإشاري المنضبط بمعايير لغوية وقواعد شرعية وبين التفسير الباطني المعتمد على مقولات إحادية وضلالات باطلة ، لذا وجب وضع النقاط على الحروف ، لتمييز الغث من السمين .

تعريف الباطنية :

الباطنية اسم يطلق على جماعات متعددة ، من غلاة الشيعة : وأهمها :

١ - الإسماعيلية : نسبة إلى "إسماعيل" أكبر أولاد جعفر الصادق وكانوا يعتقدون فيه الإمامة .

٢ - القرامطة : نسبة إلى "قرمط" إحدى قرى واسط ، وقد تزعمهم رجل منها اسمه "حمدان" .

٣ - السبعية : نسبة إلى "السبعة" ؛ لأهم يعتقدون أن في كل سبعة منهم إماما يقتدى به .

٤ - الخرمية ^(١) : نسبة إلى "الخرمة" ؛ لأن هؤلاء يستباحون الحرمات والفواحش ، ويطلق على هذه الجماعات هذا الاسم "الباطنية" ؛ لأهم يتفوقون جميعاً على أمرٍ واحدٍ ، وهو التأويل الباطني للنصوص ، ويقولون : إن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تزويل تأويلا ، وأن الظاهر بمثابة القشر ، أما الباطن فإنه يمثل اللب ، وبذلك أسقطوا التكاليف الشرعية وقالوا : إنه لا يراد بها الحقيقة ، وإنما هي رموز إلى أشياء معينة ، وزينها الشيطان لهم ، فتمتعوا بها وزعموا أنها مما تلقوه عن الإمام المعصوم ، ومن ثم فقد وردت عنهم بعض

(١) - انظر : الدخيل في تفسير القرآن الكريم : عبد الوهاب فايد ص : ١٠٣ ، والتفسير والمفسرون ٢/٢٣٥ .

التأويلات الفاسدة لألفاظ القرآن الكريم ، ترفضها قوانين اللغة العربية
وتتعارض - تماماً - مع قواعد الشرع^(١) .

الحركة الباطنية ومواقفها :

نشأت الحركة الباطنية في أحضان الفكر الشيعي المتطرف ، وظهرت بصورة
منظمة - في زمن الخليفة المأمون العباسي - على يد رجل يدعى "ميمون بن ديصان"
المعروف بالقداح ، يقال : إنه كان مجوسياً من سبي الأهواز^(٢) وكان مولى لجعفر
الصادق^(٣) ويذكر أن هذا الرجل اشترك مع جماعة ممن هم على شاكلته في تأسيس
المذهب الباطني فعند التمعن بدقة في تاريخ هذه الطائفة المنحرفة الضالة ؛ فإننا نجد أن
لها امتداداً وصلة بالزنديق اللعين عبدالله بن سبأ وهو يهودي من صنعاء ، تظاهر
باعتناق الإسلام تذرعا لنشر مكائده ودسائسه الباطلة ؛ لكن صحابة رسول الله (صلى
الله عليه وسلم) تفتنوا لهذا الخطر الداهم ، فطردوه من المدينة المنورة ، فأخذ يجوب
الآفاق ويتنقل بين العواصم الإسلامية ، ومن أهم الشبهات التي روج لها هذا الأفك
الأثيم ، زعمه أن للقرآن الكريم ظاهراً وباطناً ، والمسلم الملتزم هو الذي لا يقف عند
ظواهر بل يغوص في أعماقه ليكتشف جواهره الثمينة عن طريق التأويل ، وبهذا المنهج
نشر ابن سبأ أفكاره السامة حول الإمامة وحق علي - كرم الله وجهه - فيها ، ومهد
الطريق للفتنة المعروفة والتي انتهت بمقتل عثمان (رضي الله عنه) وفتح الباب لأول مرة
أمام التأويل الفاسد لنصوص الكتاب والسنة ، وقد تأثر الشيعة تأثراً كبيراً بالمنهج
السبئي في تناولهم للنصوص الشرعية^(٤) .

(١) - بعض المؤلفين جعلها حرمة : من حرم - على وزن سكر - لفظ أعجمي ينبئ عن الشيء المستلذ المستطاب الذي
يرتاح الإنسان له ، وقد كان هذا الاسم لقب للزندكية وهم أهل إباحة من المجوس ، فسمي هؤلاء بهذا الاسم لمشابهتهم
إياهم. "الدخيل في تفسير القرآن العظيم" : عبد الروهاب فايد ص : ١٠٧ .

(٢) - الفرق بين الفرق : للبغدادي ص : ٢٩٣ .

(٣) - نفس المصدر ، ص : ٢٨٢ .

(٤) - انظر أبا الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٧٤ ومحمد أبو زهرة تاريخ المذاهب الإسلامية ١
/ ٤١ - ٤٣ والفلسفة الصوفية في الإسلام ص : ٢١ وما بعدها .

وكان تأويل ابن سبأ لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾^(١) بقوله : إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد (صلى الله عليه وسلم)^(٢) ، أخطر تأويل منحرف لمعاني القرآن الكريم ، فوضع بهذه الأباطيل لبنات المذهب الباطني المتضمن لخرافة الرجعة والقول بتناسخ الأرواح ، فالذين جاؤوا بعد ابن سبأ كانوا يسيرون على نفس الدرب الذي نهجه كبيرهم ابن سبأ في تحريف وتأويل شرائع الإسلام ، وليس مستغربا بعد ذلك أن تسير الباطنية الإسماعيلية على نفس هذه الطريقة^(٣) .

وبهذا تبرز جذور شجرة الباطنية المبتدعة التي ما فتئت تدس السم في الدسم .

المطلب الثاني - الفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الصوفي النظري :

نختم كلامنا في هذا الباب بذكر الفرق بين التفسير الصوفي النظري والتفسير الصوفي الإشاري ، وقد ذكر العلماء وجهين للفرق بينهما .

الأول : أن التفسير الصوفي النظري يبني على مقدمات علمية بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجع^(٤) العبارات هذه الإشارة القدسية وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السجانية.

الثاني : أن التفسير الصوفي النظري يرى صاحبه أنه كل ما تحمله الآية من المعاني وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه ... وهذا بحسب طاقته طبعا أما التفسير الإشاري فلا يرى الصوفي أنه كل ما يراد من الآية ؛ بل يرى أن هناك معنى

(١) - سورة القصص ، آية : ٨٥ .

(٢) - انظر تاريخ الدولة الفاطمية د / حسن إبراهيم حسن ص : ٨ .

(٣) - انظر الحركات الباطنية في العالم الإسلامي : د / محمد أحمد الخطيب ص : ٣٣ .

(٤) - السجع بفتح السين وسكون الجيم ويكسر وكتاب الستر انظر القاموس المحيط ٢ / ٢١٩ .

آخر تحتمله الآية ويراد منها أو لا ، وقبل كل شيء ذلك هو المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره ^(١) .

وبهذا نكون قد أتينا إلى نهاية هذا البحث دراسةً وتطبيقاً بعد أن بذلنا فيه غاية الجهد ونهاية الوسع آملين أن من يطالع هذه الدراسة بتعمن وروية فإنه بعد توفيق الله عزوجل يستطيع أن يميز بين التفسير الإشاري المقبول والتفسير الإشاري المردود فاللهم، لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومتبعيه بإحسان وأحبابه عدد نعم الله وأفضاله .

(١) — انظر التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٣٥٢ ، وانظر نشأة التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية ص ٣٩٣ .

المبحث التاسع

أهم الفروق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني

المبحث التاسع - أهم الفروق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني

بعد أن اتضحت أصول الفكر الباطني المنحرف نيين في الصفحات القادمة أهم الفروق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني .

(١) - من ناحية الغاية والهدف :

أول فرق يلاحظه الباحث بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني من ناحية غاية كل منهما. فأما التفسير الباطني فقد اتخذ الباطنية الملاحدة أداة فعالة لهدم بنيان الشريعة وتخريب معالمها الهادية وفي هذا يقول الإمام التفتازاني في شرح العقائد النسفية "سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها ؛ بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدتهم بذلك نفي الشريعة بالكلية" ثم يستدرك الإمام التفتازاني موضحاً الفرق بين التفسيرين "وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان"^(١) أهـ .

ويحدثنا الإمام ابن الجوزي حديثاً مفصلاً عن أهداف هذه الحملة المغرضة قائلاً: "اعلم أن القوم أرادوا الإنسلاخ من الدين ، فشاوروا جماعة من الجوس والمزدكية ، والثوية وملحدة الفلاسفة في استنباط تدبير يخفف عنهم ما ناهم من استيلاء أهل الدين عليهم ، حتى أحرصوهم عن النطق بما يعتقدونه من إنكار الصانع ، وتكذيب الرسل ، وجحد البعث ، وزعمهم أن الأنبياء مخرقون^(٢) ومنمسون^(٣) ، ورأوا أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - قد استطار في الأقطار ، وأنهم قد عجزوا عن مقاومته ، فقالوا : سبيلنا أن نتحل عقيدة طائفة من فرقهم ، أزكاهم عقلاً ، وأسخفهم رأياً وأقبلهم للمحالات ، والتصديق بالأكاذيب ، وهم الروافض ، فنتحصن بالانتساب إليهم ، ونتوودد إليهم بالحزن على ما جرى على آل محمد من الظلم والذل ، ليمكننا شتم

(١) - شرح العقائد النسفية : للإمام سعد الدين التفتازاني ص : ١٤٢ .

(٢) - مكذوبون . انظر : المعجم الوسيط ١ / ٢٢٩ .

(٣) - ملبسون على الناس بالباطل . نفس المرجع ٢ / ٩٥٤ .

القدماء الذين نقلوا إليهم الشريعة ، فإذا هان أولئك عندهم لم يلتفتوا إلى ما نقلوا ، فأمكن إستدراجهم إلى الانخلاع من الدين ، فإن بقي منهم معتصم بظواهر القرآن الكريم والأخبار أو همناه أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن ، وأن المنخدع بظواهرها أحق ، وإنما الفطنة في إعتقاد بواطنها ثم تَبُّثُ إليهم عقائدنا ، ونزعم أنها المراد بظواهرها عندكم ، فإذا تكثرتنا بهؤلاء سهل علينا إستدراج باقي الفرق" (١) أ هـ .

هكذا طرق الغواية والضلال لما تستبد بعقول أصحابها ، فإنها تحرك كوامن الحقد ضد هذا الدين العظيم ، كمحاولة لطمس حقائقه وزرع بذور الفتنة بين أهله .

(٢) — قولهم الظاهر غير مراد أصلا :

فأصحاب التفسير الإشاري كما ذكرنا سابقا لا يمنعون إرادة الظاهر ، بل يقولون إنه هو الأصل والأساس ويحضون عليه ويقولون : لا بد من معرفة الظاهر أولاً ، إذ من ادعى فهم أسرار القرآن الكريم ولم يُحَكِّم الظاهر ، يكون كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يلج الباب .

وأما الباطنية : فيقولون : إن الظاهر غير مراد أصلا ، وإنما المراد الباطن وقصدهم من ذلك تشويه حقيقة هذا الدين ولهذا قالوا : للقرآن ظاهر وباطن ، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر ، والتمسك بظاهره معذب بالشقشقة في الكتاب ، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره ، وتمسكوا في ذلك بقوله تعالى ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (٢) أ هـ .

والخطر كل الخطر يكمن فيما يسعى ملاحدة الباطنية إلى تحقيقه بمثل هذه الفرية العجيبة ، ألا وهو إسقاط التكاليف الشرعية وقطع الروابط الإيمانية بين العبد وربه وقد فضح الإمام ابن الجوزي هذا الهراء المحض بقوله " الباطنة " سموا بذلك لأنهم يدعون أن

(١) — تليس إبليس ص : ١٢٩ وهذا الكلام الذي ذكره ابن الجوزي مأخوذ من فضائح الباطنية للإمام أبي حامد الغزالي

ص : ١٨ — ١٩ .

(٢) — سورة الحديد ، آية : ١٣ .

لظاهر القرآن الكريم والأحاديث بواطن ، تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر ، وأنها بصورتها توهم الجهال صورا جلية ، وهي عند العقلاء — ويريدون أنفسهم — رموز وإشارات إلى حقائق خفية ، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار ، والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع ومن ارتقى إلى علم الباطن إنحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه ، قالوا : وهم المرادون بقوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾^(١) ومرادهم أن يتزعوا من العقائد موجب الظواهر ، ليقدروا - بالتحكم بدعوى الباطن - على إبطال الشرائع^(٢) .

والعجيب في الأمر أنهم "الباطنية" حاولوا أن يلبسوا على المؤمنين أمور دينهم بتسمية إفتراءهم وضلالتهم بعلم التأويل وهذا ما كشفه الإمام أبو حيان في مقدمة تفسيره المسمى البحر المحيط قائلا : "... وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرّجين الألفاظ القرية عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى ، وعلى عليّ كرم الله وجهه ، وعلى ذريته ويسمونه علم التأويل ، وقد وقفت على تفسير لبعض رؤوسهم ، وهو تفسير عجيب يذكر فيه أقاويل السلف مزدريا عليهم ، مذكرا أنه ما جهل مقالاتهم ، ثم يفسر هو الآية على شيء لا يكاد يخطر في ذهن عاقل ، ويزعم أن ذلك هو المراد من هذه الآية ، وهذه الطائفة لا يلتفت إليها . وقد ردّ عليهم أئمة المسلمين أقاويلهم ، وذلك مقرر في علم أصول الدين"^(٣) أ هـ .

ولهذا لم يقف فطاحل العلماء مكتوفي الأيدي أمام هذه الأباطيل الواهية والخزعبلات المزعومة ، بل حذروا المؤمنين من كيدها وأعلنوا الحرب ضد مروجيها وكنموذج لذلك ، ما قام به حجة الإسلام الإمام الغزالي من جهد مشكور في كتابه

(١) — سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .

(٢) — تليس إبليس ص : ١٠٢ .

(٣) — أبو حيان : البحر المحيط ١ / ٥ .

النفيس "فضائح الباطنية" وكذلك في كتابه (إحياء علوم الدين) ومما جاء فيه "وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة كدأب الباطنية في التأويلات فهذا أيضا حرام وضرره عظيم فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع من غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم" (١) أهـ.

(٣) قولهم أن التفسير الباطني لا يعلمه إلا الإمام المعصوم وعن طريقه يتعلمه الخلق: ونصل إلى نقطة رئيسية تعتبر من أهم نقاط الافتراق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني ؛ فالتفسير الإشاري هو تأويل القرآن بغير ظاهره الإشارة خفيفة تظهر لأرباب السلوك ، ولهذا فإن المشتغلين بهذا اللون التفسيري شديد و الاختلاف فيما ذهبوا إليه ، وذلك لاختلاف تجارب كل مفسر ومدى صفائه وطهر سريرته ، أما التفسير الباطني فيعتمد اعتمادا كلياً على الإمام المعصوم . وفي هذا المعنى يقول الإمام أبو حامد الغزالي وهو في معرض رد شبهاتهم ؛ "فنرى أن تشتغل بالرد عليهم فيما اتفقت كلمتهم عليه وهو إبطال الرأي ، والدعوة إلى التعليم من الإمام المعصوم - فهذه عمدة معتقدهم وزبدة مخضهم ، فلنصرف العناية إليه ، وما عداه فممنقسم إلى هذيان ظاهر البطلان" (٢) أهـ .

(١) - إحياء علوم الدين : الغزالي ١ / ٤٢ - ٤٤ (بتصرف) .

(٢) - فضائح الباطنية ص : ٤٠ ط الكويت .

ويفصل الإمام الغزالي هذه النقطة في موضع آخر قائلا " أما على الجملة فهو مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحة حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق . لما يعترها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظار من الاختلافات ، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستبصر ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدي إلى الحق ويكشف عن المشكلات ، وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام معصوم ، يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين، هذا مبدأ دعوتهم ، ثم إنهم بالآخرة - يظهرون ما يناقض الشرع ، وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين في فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه ، بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاتة لإمامهم ، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ، ويقرونها عليها فهذه جملة المذهب" (١) أ هـ .

وكمحاولة من فلول الباطنيين لتمرير بدعهم الشنعاء فقد ادعوا ظلما وزوروا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أفضى لوصيه علي (رضي الله عنه) بالمعنى الباطني لآيات القرآن ، وأن هذا المعنى لا يلحق إلا عن طريق التعليم من الإمام أو معلم ينيبه ، (٢) وقد استخدمت هذه المكيدة شر استخدام حيث جمعت جموعا لنسف وحدة المسلمين والقضاء على نقاء المسيرة الإسلامية النيرة وكمثال على ذلك طائفة الجناحية، وهم أتباع "عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب" الذي خرج على الأمويين في عهد آخر خلفائهم مروان بن محمد ، فقد تأولوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ (٣). الآية على أن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج في جميع ما يطعم ، ووصل إلى الكمال (٤) ، إنها الفتنة

(١) - المصدر نفسه ص : ٣٧ .

(٢) - انظر : الحركات الباطنية في العالم الإسلامي : محمد أحمد الخطيب ص : ٣٠ .

(٣) - سورة المائدة ، آية : ٩٣ .

(٤) - انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ / ١٣٥ .

القاتلة بعينها حين يعظّم الإمام ويقدّس إلى درجة التأليه لينفث بعد ذلك سم انتهاك حرّات الشريعة ولهذا فقد استحلّت هذه الطائفة كل ما حرّمه الله ، وأسقطت التكاليف الشرعية "كفرت هذه الطائفة بالجنة والنار ، واستحلوا الخمر والميتة والزنا واللواط وسائر المحرّات ، وأسقطوا وجوب العبادات ، وتأولوها على أنّها كنايات عن موالاهم من أهل بيت علي . وقالوا في المحرّات المذكورة في القرآن : إنّها كنايات عن قوم يجب بغضهم كأبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة" (١) أ هـ .

وهكذا تلبّسات إبليس وأذنايه الباطنية فإذا سئلوا عن حقيقة إلتزامهم بأحكام الشرع الخفيف فإنهم يقولون : لا بد من الانقياد للشرع في تكاليفه على التفصيل الذي يفصله الإمام ، من غير متابعة للشافعي وأبي حنيفة وغيرهما ، وإن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين ، إلى أن ينالوا رتبة الكمال في العلوم ؛ فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور ، واطلعوا على بواطن هذه الظواهر انحلت عنهم هذه القيود ، وانحطت عنهم التكاليف العلمية (٢) .

(٤) - استخدام التفسير الباطني وسيلة لنصرة مذاهبهم الهدامة:

وضع الباطنيون تفسيرهم المبتدع كوسيلة لبث سمومهم في أوساط أهل السنة والجماعة ، ولهذا اتخذوه كمصيدة لاصطياد الغافلين . وهذا ما قرره الإمام البغدادي وهو يصدّد شرح صلة هذا المذهب الباطني بالمجوسية : "ذكر أصحاب التواريخ أنّ الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين ، فوضع الأغمار منهم أساسا من قبلها منهم من صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس ، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي (صلى الله عليه وسلم) على موافقة أسسهم" (٣) وما دام منطلق الباطنية هو تحقيق مآربهم الزائفة وأباطيلهم الكاذبة ، فإنهم اتخذوا القرآن الكريم كجسر للعبور

(١) - انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص : ٢٤٦ .

(٢) - فضائح الباطنية ص : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) - الفرق بين الفرق ص : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

وهذا ما بينه الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر بقوله : "ولقد نقلنا من الإسماعيلية أنهم لا يرون الطقوس الدينية الرسمية إلا نظاماً محكماً من الترهات والأكاذيب ، كما أن العبادات ليست إلا رموزاً لحقائق روحية مرتبطة في أغلب الأحوال بمذاهبهم السياسية والفلسفية ، إنهم لم يجدوا مكاناً في القرآن لمذاهبهم إذا ما فسروه تفسيراً مباشراً ، ولهذا كرسوا جهودهم للجانب الباطني ومعنى هذا أن الآية القرآنية فسرت في المرحلة التي تلت اعتناقهم لنظريات معينة وحملت الآيات معاني تشهد لصحة هذه النظريات المسبقة، ولهذا نجد معظم تفسيراتهم تتعلق بمذاهبهم الأساسي في الإمامة" (١) ، وهذا الإمام الغزالي يبين أن التفسير الباطني ما هو إلا دعوة صريحة لمذهب بدعي لا يمت للإسلام بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد . وذلك في معرض تبيان خطرهم : "ونحن نحكي من تأويلاتهم نبذة لنستدل بها على مخازيهم ، فقد قالوا: كل ما ورد من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن ، أما الشرعيات ، فمعنى الجنابة عندهم مبادرة المستجيب بإفشاء سر إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه ، ومعنى الغسل : تجديد العهد على من فعل ذلك ، وبجامعة البهيمه معناها عندهم معالجة من لا عهد عليه ، ومن لم يؤد شيئاً من صدقة النجوى ، وهي مائة وتسعة عشر درهما عندهم ، لذلك أوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول به ، وإلا فالبهيمه متى وجب القتل عليها ، والزنا : هو إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد ، والاحتلام هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السر في غير محله ، فعليه الغسل، أي تجديد المعاهدة، والظهور : هو التبري والتنظف من اعتقد كل مذهب سوى مبايعة الإمام، والصيام: هو الإمساك عن كشف السر والكعبة : هي النبي والباب علي ، والصفاء هو النبي والميقات هو الأساس ... " (٢) إلى آخر هذه الخزعبلات .

(١) - التصوف : طريقاً وتجربة ومذهباً : د/ محمد كمال إبراهيم جعفر ص : ١٦٢ - ١٦٣ ، دارالعلوم - ١٩٧١ م .

(٢) - فضائح الباطنية ص : ٥٥ - ٥٦ .

المبحث التاسع

أهم كتب التفاسير الإشاري

المبحث التاسع - أهم كتب التفسير الإشاري

تمهيد:

من العلماء من اهتم بالتفسير الظاهر ، ولم يتعرض للتفسير الإشاري ، كالبيضاوي، و الزمخشري و غيرهما ، و منهم من جعل غالب همه في التفسير الظاهر و تعرض للتفسير الإشاري بقدر ، كما فعل النيسابوري ، و الألوسي. و منهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشاري ، و مع ذلك فهو يتعرض أحيانا للتفسير الظاهر ، كما فعل سهل التستري. و منهم من وجه همه كلها للتفسير الإشارين و لم يحم حول المعاني الظاهرة ، كما فعل أبو عبدالرحمن السلمى ، و منهم من أعرض عن الظاهر و جمع في تفسيره بين التفسير الصوفي النظري و التفسير الصوفي الإشاري ، كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربي^(١).

ويكفي هنا أن نتكلم عن أهم الكتب التي وجه أصحابها فيها كل عنايتهم، أوجدها نحو التفسير الإشاري . و إليك تفصيل هذه الكتب :

- ١- تفسير القرآن العظيم : لسهل التستري^(٢)
- ٢- حقائق التفسير : للسلمى
- ٣- لطائف الإشارات : للقشيري
- ٤- عرائس البيان في حقائق القرآن : لأبي محمد الشيرازي
- ٥- التأويلات النجمية : لنجم الدين داية ، و علاء الدولة السمناني
- ٦- التفسير المنسوب لابن عربي

٢- حقائق التفسير لأبي عبدالرحمن السلمى الأزدي:

مؤلف هذا الكتاب : هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم بن رعية بن سعيد بن قبيصة بن سرافة أبو عبد الرحمن السلمى الأزدي ، ولد سنة ٣٣٠هـ. كان - رحمه الله - شيخ مشايخ الصوفية ، و عالمهم بخراسان ، له اليد

(١) - انظر د / محمد حسين الذهبي : التفسير و المفسرون ٢/٣٧٩

(٢) - انظر تفاسيله في ص ٤٦٨

الطولى في العلم الغزير ، و التصوف ، و السير على سنن السلف سمع من أبي العباس الأصم ، و أحمد بن علي بن حسنويه المقرئ .

أخذ الطريق عن أبيه فكان موقفا في جميع علوم الحقائق ، و معرفة طريق التصوف ، و كان علي جانب عظيم من العلم بالحديث حتى قيل إنه حدث أكثر من أربعين سنة .

روى عنه الحاكم أبو عبد الله ، و أبو القاسم القشيري ، و أبوبكر البيهقي ، و أبو سعيد رامش ، و علي بن أحمد المدني المؤذن . له تصانيف كثيرة في شتى العلوم ، و منها التفسير . توفي رحمه الله سنة ٤١٢ هـ - إثننا عشر و أربعمائة للهجرة (١) .

التفسير :

من التفاسير الصوفية المقدمة، و لم يسبقه على ما أعلم إلا تفسير التستري، و الذي لم يكن كاملا، و لم يفسر الآيات التي تعرض لها بالقدر الكافي كتفسير السلمي الذي نحن بصدده.

يعرض التفسير لجميع سور القرآن الكريم سورة سورة ، و لم يهمل منها شيئا ، ولكنه أهمل قسما من الآيات .

يظهر التصوف في تفسير جميع الآيات التي تعرض لها ، و يستشهد بأقوال الصوفية الذين سبقوه ، و يستشهد بأقوال الرسول (صلى الله عليه و سلم) مؤيدا وجهة النظر أو المعنى الذي يذهب إليه .

يخاطب في تفسيره للآية التفسير الظاهر ، و التفسير الإشاري يوردهما مثالين .

قلت : إن التفسير تظهر فيه المعاني التي يقصدها الصوفية أو التي يضيفونها إلى الصفات الشرعية و الأخلاق الإسلامية ، و اخترت قسما من الآيات التي فسرها يظهر فيها ، الاتصال ، و الرضا ، و الذكر و التوكل و التوبة و غيرها من الأخلاق الإسلامية

(١) - انظر "طبقات المفسرين" الداودي ج ٢ ص ١٣٧، و "التفسير و المفسرون" ج ٢ ص : ٥٠ .

التي فسرها تفسيرا صوفيا أو التي أضافوا لها معاني صوفية كما أنه يخلط معها تفسيرا
ظاهرا^(١) قال رحمه الله :

سورة النساء^(٢)

قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾

قال بعضهم : معناه يا بني النسيان و الجهل.

قال الواسطي : يا بني الأعمار و الأعمال و الآمال تذهبون فيما سبق.

و قال ابن عطاء : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أي كونوا من الناس الذين أنسوا بمولاهم و

لم يخشوا مما سواه.

قال جعفر في قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ كونوا من الناس الذين هم الناس و

لا تغفلوا عن الله، فمن عرف أنه من الناس الذين خصّ خلقه بما خصّ به كبرت همته
عن طلت دني المنازل ، و سمت به الرفعة حتى يكون الحق عزّ وجلّ نهايته ، كما قال

تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَبِئُ ﴾^(٣)

و سمو همته فيما خص من الاختصاص من التعريف و الإلهام.

و قال بعضهم : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطاب عام ، ((يا عبادي)) خطاب خاص و

خطاب خاص الخاص ، ((يا أيها النبي)) و ((يا أيها الرسول)).

قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾

روى ليث عن مجاهد عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجلا جاء

إلى النبي - صلى الله عليه و سلم - فقال له : أوصني فقال "إتق الله فإنه جماع كل خير".

و قال بعضهم : التقوى و صفك ، تقابله بما يليق بك.

(١) - انظر د/مسعود مسلم عبدالله آل جعفر : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي ص ٣٦٥

(٢) - "حقائق التفسير" ، أبو عبد الرحمن السلمي - مخطوط بتحقيق رسالة جامعة قدمها سلمان نصيف التكريتي. القسم

الأول ص : ١٢٤

(٣) - النجم : ٤٢ .

سمعت النصر أباضي يقول : إن التقوى منال الحق قال الله عزوجل :

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾^(١).

و قال بعضهم : التقوى ترك المخالفات أجمع.

و قال سهل : من أراد التقوى فليترك الذنوب كلها ، و كل شيء يقع فيه خلل فتدخل عليه التقوى شاء أم أبى. و قال أيضا : التقوى هي الاقتداء بالنبي (صلى الله عليه و سلم).

و قال بعضهم التقوى في الأمر ترك التسويف ، و التقوى في النهي ترك الفكرة و القيام عليهم و التقوى في الآداب مكارم الأخلاق ، و التقوى في الترغيب أن لا يظهر ما في سره و التقوى في الترهيب أن لا يقف على الجهل.

و قال بعضهم: تقوى الله هي الاجتناب عن كل شيء سواه.

و قال الجريري : من لم يحكم فيما بينه و بين الله التقوى و المراقبة لا يصل إلى الكشف و المجاهدة .

و قال الواسطي: التقوى على أربعة أوجه، للعام تقوى الشرك ، و للخاص تقوى المعاصي، و للخاص من الأولياء تقوى التوسل بالأفعال ، و للأنبياء تقواهم منهم إليه.

و قال أبو يزيد: التقوى كل التقوى من إذا قال ، قال الله، و لم يقل لغيره، و إذا نوى نوى لله و لم ينو لغيره ، هكذا في جميع ما يبدو منه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ .

قيل: من أوجد النفس الأولى فقد رته جارية و مشيئته نافذة ، و قال عمر و ابن عثمان : إن الله عزوجل خلق العالم و هيأه بإتساق نظم واحد من أطرافه و أكنافه و أوله و آخره ، و بدئه و منتهاه من أسفله إلى أعلاه ، و جعله بحيث لا خلل فيه و لا تفاوت و لا فطور ، أحكم بناؤه باتصال تدبيره ، و حبسه على حدود تقديره و إن

(١) - الحج : ٣٧ .

اختلفت أجزائه في التفرقة تفرقة و الأجزاء و الهيات و التخطيط و التصوير ، وفرقه
الأماكن و حقه بائتلاف المصالح ، فهو مربوط بحدود تقديره ، و متابع باتصال
تدبيره، و بث فيه الأجناس بينها من شواهد الزينة ، فأظهر القدرة بإيجاد آدم ، ثم بث
أولاده في البسيط إلى تصاريف التدبير لهم و المشيئة قال تعالى : ﴿مُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(١).

قال الواسطي في قوله تعالى : ﴿خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال: خلقه بعلم سابق،
ودبره بالتركيب، وألبسه شواهد النعت حتى عرفه، فكانت أنفاسه مدخره عنده حتى
أبداها، فأبداه هي ما أخفاها، و ما أخفاها هي ما أبداها. قوله تعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ
وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٢).

حقيقة العبودية قطع العلائق و الشركاء عن الشرك^(٣). قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ
يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾^(٤)

قال أبو عثمان : إلى آرائهم و أهوائهم و أمثالهم و أشكالهم. قال تعالى :
﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ : أن يخالفوهم.
وقال بعضهم : أكبر طاغية لك نفسك ، فلا تركز إليها في شيء من أوامرها ،
و إن أمرتك بالطاعة فإنها تخفي عنك شرها و تبدي لك خيرها .
قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾^(٥)

(١) — الأعراف : ١٨٩

(٢) — النساء : ٣٦

(٣) — نفس المصدر السابق القسم الأول ص ٢٤٨

(٤) — النساء : ٦٠

(٥) — النساء : ٦٢ .

قيل: أعظم المصائب اشتغالك وسقوط الحرمة من قلبك ، و نزع الحياء من وجهك ، و ثقل السنين على جوارحك. (١)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ (٢).

قيل التوبة هي الرجوع إلى الله بالكلية .

وقيل في قوله : للذين يعملون السوء بجهالة قال : للذين يتقربون بالطاعات إلى

من لا يقترب إليه إلا به .

وقال محمد بن الفضل ضمن الله عزوجل التوبة لمن ييدر منه الذنب من غير قصد

لا لمن يضمره ويتأسف على فوته . قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ (٣).

قوله تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

قال جعفر (رضي الله عنهم) بما كان سبق لهم من الله من عناية و توفيق و رضوا

عنه بما من عليهم بمتابعتهم لرسول الله (صلى الله عليه و سلم) ، و قبول ما جاء به ، و

إنفاقهم الأموال و بذل المهج.

و قال الجنيد : الرضا باب الله الأعظم.

و قال ذو النون : الرضا سرور القلب بمر القضاء.

و قال ابن بزديار : رضا الخلق عن الله لما يتحدد لديهم من ظهور قدرته، و

رضي عنهم أن يوفقهم للرضا عنه (٤)

(١) — نفس المصدر السابق القسم الأول ص— ٢٥٥

(٢) — النساء : ١٧

(٣) — نفس المصدر السابق ، ص : ٢٤٢ .

(٤) — نفس المصدر السابق، ص— ٤٧١

٣- لطائف الإشارات للإمام أبي القاسم القشيري:

مؤلفه:

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري الأستاذ أبو القاسم القشيري.

شيخ الصوفية وإمامهم في زمانه ، درس الحديث والفقہ، وحضر مجالس الصوفية تتلمذ لهم حتى برع في علوم الحقيقة ، كما أجاد في علوم الشريعة وضرب في كل منها بسهم. وصنف فيها وأحسن. شافعي المذهب، أشعري العقيدة، صوفي السلوك .
سمع الحديث من الخفاف ، و أبي نعيم الأسفرايني ، و أبي بكر عيدوس المزكي ، و أبي عبد الرحمن السلمي ، و ابن فورك. وروى عنه أبو بكر الخطيب و خلق كثير. تلقى علوم الإشارة على أبي علي الدقاق.

ولد سنة ٣٧٦هـ ستة و سبعين و ثلاثمائة من الهجرة ، و توفي سنة ٤٦٥هـ خمسة و ستين و أربعمائة^(١)

التفسير:

أكمل التفاسير الصوفية الذي لم يذكره و لا صاحبه أحد بسوء في الوقت الذي توجه الطعن للتفاسير الصوفية قبله و بعده.

فقد تكلم كثير من العلماء بالطعن على تفسير أبي عبد الرحمن السلمي حتى قيل إن اعتقد بأن هذا تفسير فقد كفر ، و هذا التفسير قبل تفسير القشيري ، و قد مرّ بنا لمحات عنه.

و لم يسلم بعده ابن عربي من أشد منه جرحا ، لأنه كان يتمسك بوحدة الوجود التي هي عقيدة دخيلة على التفكير الإسلامي ، هذا طعن في التفسير ، و لا ننس أنه غير ثابت النسبة إلى ابن عربي.

(١) — "طبقات المفسرين" ج١ ص٣٣٨، و مقدمة تفسير لطائف الإشارات.

و (لطائف الإشارات) بين هذين التفسيرين سلم من الطعون ، و سلم صاحبه من الجرح .

و هو يمثل بحق تفكير الصوفية معتقدهم و مواجيدهم و أذواقهم. و هو التفسير المستقيم الحق المعتدل الذي يمثل الصوفية التي لم تخالطها عقائد وافدة على الإسلام فهو يتكلم في الإشارات و يسبقها غالباً بالتفسير الظاهري المؤلف ؛ فإنه لا يبرز الإشارات و يعليها على حساب الشريعة ، فالحقيقة و علومها و إشاراتها لا يعلمها إلا هم ، و لا يكتشف مصدرها إلا من سلك طريقهم ، و لذلك فغالباً ما يؤخرها على التفسير الظاهري أو الشرعي المفهوم لدي عامة المسلمين.

على أن لتفسيره الإشارة لذة وانساً ، و غالباً ما تكون مفهومة واضحة على خلاف ما استوحشناه و استغربناه من تفسير ابن عربي أو المنسوب له، فإن في اللطائف نوراً ، وفي التفسير المنسوب لابن عربي - حقيقة أو كذبا - ظلمة تنقبض لها القلوب.

و تفسير اللطائف يفسر بمعاني الصوفية التي ذكرناها من الأنس و المحبة و التجريد والتفريد والتوكل و التوبة و الرضا و غير ذلك إضافة إلى التفسير الشرعي.

يفسر القرآن الكريم سورة سورة و آية و آية ، و لا يهمل شيئاً منها ، و لا يتخطاها لغيرها.

يبدأ بتفسير سورة الفاتحة ^(١) ، فيقول : سورة فاتحة الكتاب هذه السورة بداية الكتاب، ومفاتيح الأحباب بالخطاب والكتاب من أجل النعمى، أرى أنه يذهب إلى أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن الكريم لقوله (بداية الكتاب) ، وكذلك يدل عليه الذي بعده حيث يقول : (ولقد كان (صلى الله عليه و سلم)، غير مرتقب لذا الشأن، و ما كان هذا الحديث منه على بال، و حينما نزل عليه جبريل عليه السلام أخذ في الفرار و أثر التباعد لهذا الأمر... قائلًا: "دثروني دثروني ، زملوني ، زملوني" .

(١) - "الطائف الإشارات" للإمام القشيري ، حققه د/إبراهيم بسيوني، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ج١ ص٥٤ و مابعدھا (نصوص منتقاة)

ثم بعدئذ يبدأ بتفسير السورة مبتدأ بالبسملة.

قول جل ذكره: بسم الله الرحمن الرحيم - الباء في بسم الله حرف التضمين ، أي : بالله ظهرت الحادثات ، و به وجدت المخلوقات ، فما من حادث مخلوق ، و حاصل منسوق من عين و أثر و ... و ... و . إلا بالحق وجوده و الحق ملكه. و من الحق بدئه و إلى الحق عوده ، فيه وجد من وحد ، و به جحد من ألد ، و به عرف من اعترف و به تخلف من اقترف.

قال : (بسم الله) و لم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم ، و للفرق بين هذا و بين القسم عند الآخرين ، و لأن الاسم هو المسمى عند العلماء و لاستصفاء القلوب من العلائق ، و لاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان ليكون ورود قول الله على قلب منقي و سرمصفي.

و قوم يتذكرون عند ذكر الباء (برّه) بأوليائه ، و من السين سرّه مع أصفياه من الميم منته على أهل ولايته ...

قول جل ذكره : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ﴾

حقيقة الحمد الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلة ، و أفعاله الجميلة ، و اللام هنا للجنس ، و مقتضاها الاستغراق ، فجميع المحامد لله سبحانه إما وصفا ، و إما خلقا، فله الحمد لظهور سلطانه ، و له الشكر لوفور إحسانه ، و الحمد لله لاستحقاقه لجلاله و جماله ، و الشكر لله لجزيل نواله و عزيز إفضاله ، فحمده سبحانه، له من صفات كماله و حوله، و حمد الخلق له على إنعامه و طوله) ...

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الرب هو السيد و العالمون جميع المخلوقات و اختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين للاستحالة على العقلاء و الجمادات ، فهو مالك الأعيان و منشؤها ، و موجد الرسوم و الديار بما فيها) ...

وهكذا يستمر بتفسير سورة الفاتحة مبتدأ بتفسير الآية حسب المؤلف في تفاسير
الظاهر أو الشرعي، وأغلب تفسير سورة الفاتحة لا يخرج عن المؤلف من المفسرين .

وهذا يدل على أن للقوم قابلية وموهبة وهبها الله لهم على أقدار غير أقدار أهل
الظاهر .

لأن المفسرين الآخرين أغلبهم يفسر الفاتحة أو بعض المعاني التي وردت فيها على
ما جاء في هذا التفسير، وتقتصر قابلياتهم لفهم إشارات النصوص على الفاتحة، بينما
تعدى قابلية الصوفية إلى جميع النصوص كل حسب قابلياته.

وإذا سلم الصوفي بأن المراد هو الظاهر والشريعة التي تعبد أهل الله بها الناس
تؤخذ منه فلا يلاحيه أحد في اصطلاحاته ، و يبخسه فهمه وإشاراته ^(١).

وعند تفسيره لسورة البقرة يقول:

(السورة التي تذكر فيها البقرة قوله تعالى ^(٢)):

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ : الاسم مشتق من المسمو السمة ، فسبيل من

يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات ، و يسمو بهمته إلى محال
المشاهدات. فمن عدم سمة المعاملات على ظاهره، و فقد سمو الهمة للمواصلات
بسرائره لم يجد لطائف الذكر عند قائلته و لا كرائم القرب في صفاء حالته).

من الملاحظ أنه يفسر البسملة بغير ما فسرنا به في سورة الفاتحة، و هذا راجع

إلى أنه يفهم كل بسملة حسب ما جاءت معه من آيات:

(قوله جل ذكره: ﴿الْم﴾

هذه الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله -

عند قوم - و يقولون لكل سر وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة ، و عند قوم

(١) - هذا مفهوم كلام فضيلة الشيخ الذهبي عند رده ما أخذ العلماء على السلمي في ج ٣ ص ٥٢ "التفسير و المفسرون".

(٢) - "لطائف الإشارات" ٦٤/١

أنها مفاتيح أسمائه فالألف من اسم الله و اللام يدل على اسمه اللطيف و الميم يدل على اسمه (المجيد) و (الملك) ...

(و يقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة ، و انفردت الألف باستواء القامة و التميز عن الاتصال بشيء من أضرارها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال و الأشغال خطي بالرتبة العليا ، و فاز بالدرجة القصوى ، و صلح للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير مركبة. على سنة الأحياب في ستر الحال و إخفاء الأمر على الأجنبي من القصة).

و هذا هو منهجه في جميع السور و الآيات ، يفسر ظاهرها ثم يورد ما يجد لها من إشارات ، و لا ينس أن يشير إلى أي مبدأ أو معنى من المعاني التي ذكرناها .

(فيقول: قول جل ذكره :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ^(١) .

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعد ما سلكوا طريق الإرادة (أن) يرجعوا إلى أحوال العادة في تلك الوحشة قبضوا ، و على تلك الحالة من الدنيا خرجوا ، أولئك أصحاب الفرقة فلا على أرواحهم إقبال ، و لا لمصيبتهم جبران ، و لا لأحد عليهم ترحم ، خسروا في الدنيا و الآخرة ، يلعنهم السبق في الهواء و النقع على الماء. ﴿خَالِدِينَ﴾ ، أي مقيمين أبدا في هوانهم و صغرهم ، لا تخفيف و لا إسعاف ، و لا رفق ، و لا ألطاف).

و قد ذكرت أنه أشعري العقيدة و الصوفية جميعا يعتقدون بخلق أفعال العباد من قبل الله عز و جل فيقول في ذلك.

(قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا

اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ^(٢) .

(١) - البقرة: ١٦١ .

(٢) - إبراهيم: ٤٠ .

(في قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ... ﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة .
فمعناه اجعل صلاتي، و اجعل الخلق بمعنى، فإذا جعله مقيم الصلاة فمعناه أن يجعل له
صلاة.)

وقوله ومن ذريتي، أي : اجعل منهم قوما يصلون، لأنه أخيره في موضع آخر
بقوله : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ .

ثم قال : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ ، و هذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن . ويقال
إن إجابة الدعاء ابتداء فضل منه، و لا ينبغي للعبد أن يتكل على دعاء أحد ، و إن كان
عبي الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ، فلا دعاء أحد ، و إن كان عليّ الشأن،
بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ، فلا دعاء أتم من دعاء إبراهيم (عليه السلام)، و لا
عناية أتم من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه و لا شفع الله له .

ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه، أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله
دعائه، فإن إبراهيم الخليل (عليه السلام) دعا لأبويه ، فلم يستجب له ، ثم إنه لم يترك
الدعاء ، و سأل حينما لم يجب فيه فلا غضاضة على العبد ، و لا تناله مذلة إن لم يجبه
مولاه في شيء ، فإن الدعاء عبادة لا بد للعبد من فعلها ، و الإجابة من الحق فضل ،
وله أن يفعل و له أن لا يفعل^(١) .

وخاتمة القول إن القشيري و تفسيره "لطائف الإشارات" وجه التصوف الناصع
ونوره الصافي ، فلم تخالطه أوهام بعض الصوفية ، و لم تدخله الأفكار الأجنبية التي
غلبت على من اغتروا بالولاية ، و تصوروا أنفسهم فوق الأكساب ولا يضرهم إذا
أجترحوا السيئات ، أو تركوا الواجبات .

رحمة الله على القشيري و نفعنا من إشاراته بلطفه سبحانه و تعالى .

(١) - لطائف الإشارات ، ٢٥٨/٣ .

٤- عرائس البيان في حقائق القرآن : لأبي محمد الشيرازي

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبي النصر البقلي الشيرازي الصوفي المتوفي سنة (٦٦٦هـ) ^(١).

التعريف بهذا التفسير :

جرى مؤلف هذا التفسير على نمط واحد وهو التفسير الإشاري و لم يتعرض للتفسير الظاهر بحال ، و إن كان يعتقد أنه لا بد منه أولاً يدل على ذلك قوله في المقدمة :

(ولما وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر و الباطن ، و لم يبلغ أحد إلى كماله و غاية معانيه ، لأن تحت كل حرف من حروفه بحراً من أسرار ، ونهراً من أنهار الأنوار ، لأنه وصف القدم و كمال لا نهاية لذاته و لا نهاية لذاته لصفاته ... قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَخْحَرِمًا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ ^(٣). فتعرضت أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التي تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء ، اقتداء بالأولياء ، وأسوة بالخلفاء، وسنة للأصفياء، وصنفت في حقائق القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ، ثم أردفت بعد قولي أقوال مشايخي مما عباراتها ألطف، وإشارتها أظرف بركاتهم، وتركت كثيراً منها ليكون كتابي أخف محملاً

(١) - كشف الظنون ٢/٢١ ، و التفسير و المفسرون ٢/٣٩٠ ، قال الذهبي (عليه الرحمة) و لم نقف على أكثر من هذا في ترجمته .

(٢) - في الآية (٢٧) من سورة لقمان

(٣) - في الآية (١٠٩) من سورة الكهف

وأحسن تفصيلاً، واستخرت الله تعالى في ذلك. واستعنت به، ليكون لمراده، ومواطناً لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسي وحسب كل ضعيف ...

و سميته بـ(عرائس البيان في حقائق القرآن) ... الخ^(١).

و واضح من هذه المقدمة بأن المفسر يتعرف بالمعاني الظاهرة للقرآن ، و أن ما كتبه ما هو إلا إشارات تجلت له من جانب الرحمن . كما نلاحظ فيها أيضاً وصفه للكتابه و المسلك الذي سلكه فيه^(٢).

ثم يعلق عليها الدكتور الذهبي قائلاً : غير أني الخظ (و استعنت به ليكون موافقاً لمراده ، و موافقاً لسنة رسوله). أنه يريد أن يقرر أن كل ما في كتابه من المعاني ليس إلا تفسيراً لكتاب الله و بياناً لمراده منه ، و هذا هو ما لا نقره عليه ، و لا نسلمه له ؛ لأن هذه المعاني الغريبة التي يأتي بها في تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللفظ القرآني ، و لا يعقل أن تكون مرادة الله تعالى من خطابه لأفراد الأمة ، و حسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن^(٣).

و على سبيل المثال :

في سورة التوبة عند قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى

الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾^(٤) يقول : (وصف الله زمرة أهل المراقبات،

و مجالس المحاضرات ، و الهائمين في المشاهدات و المستغرقين في بحار الأزليات ، الذين

أنحلوا جسومهم بالمجاهدات ، و أمرضوا نفوسهم بالرياضات ، و أذابوا قلوبهم بدوام

الذكر، و جولانها في الفكر، و خرجوا بعقائدهم الصافية ، عن الدنيا الفانية بمشاهدته

الباقية ، بأن رفع عنهم بفضل حرج الإمتحان ، و أبقاهم في مجالس الأنس و رياض

(١) - ٢/١ - ٣ ، و التفسير و المفسرون ٢/٣٩٠-٣٩١

(٢) - التفسير و المفسرون ٢/٣٩١

(٣) - نفس المصدر ٢/٣٩١

(٤) - في الآية رقم ٩١ .

الإيقان ، و قال ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ يعني الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ الذين أمرضهم مرارة الصبايات ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ﴾ الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التحريد ﴿ حَرَجَ ﴾ عتاب من جهة العبودية و المجاهدة ، لأنهم مقتولون بسيف المحبة ، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، و مرضهم من الحب و فقرهم من حسن الرضا ... (١)

٥ - التأويلات النجمية (٢)

ألفَ هذا التفسير الشيخ نجم الدين داية ، و لكنه مات و ما استطاع أن يكمله فأكمله علاء الدولة السمناني (٣) . و إذا لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين :

أما نجم الداية :

فهو أبو بكر بن عبدالله بن محمد الأسدي الرازي المعروف بـ "داية" المتوفى سنة (٦٥٤هـ). كان من خيار الصوفية ، أخذ الطريقة من الشيخ نجم الدين أبي الجناح المعروف بالبكري (٤).

و أما علاء الدولة السمناني:

فهو أحمد بن محمد بن أحمد السمناني الملقب بـ "علاء الدولة" ، و "ركن الدين" ، المكي أبا المكارم ، المتوفى (٧٣٦هـ) قال الذهبي : (كان إماماً جامعاً كثير التلاوة ، وكان يحط على ابن عربي ويكفره. و ذكر أن مصنفاته تزيد على ثلاثمائة وكان كثير البر وينفق من ماله) (٥).

(١) - ٣٣٩ / ١ ،

(٢) - كتبت هذا المصدر بشيء من التفصيل ، لأن الشيخ إسماعيل حقي رحمه الله اعتمد عليه كثيرا في الجانب الإشاري ، على سبيل المثال لا الحصر : انظر "روح البيان" ٣٥/٨ ، ٢٥/١ ، ٦٥/٣ ، ٢٥٠/٣ - ٢٥١ .

(٣) - انظر د/محمد حسين الذهبي "التفسير و المفسرون" ٤٢٨/٢ .

(٤) - انظر تفحات الأنس للجامي ص ٤٩١

(٥) - انظر الدرر الكامنة ٢٥٠/١ - ٢٥٢

وذكره الأسنوي في طبقاته وقال : (كان عالماً مرشداً ، له كرامات ، وتصانيف ، في التفسير و التصوف و غيرهما) ^(١) . وذكر صاحب كشف الظنون أن له تفسيراً كبيراً في ثلاثة عشر مجلداً (٢).

التعريف بهذا التفسير و منهج مؤلفيه فيه

١ - التعريف بهذا التفسير : يقع هذا التفسير في خمس مجلدات كبار منه نسخة مخطوطة بدار الكتب ، و هي التي رجعنا إليها. ينتهي المجلد الرابع عند قوله تعالى في الآيتين (١٧ و ١٨) من سورة الذاريات ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ و هذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية في تفسيره ^(٣) . أما المجلد الخامس فهو تكملة لهذا التفسير كتبه علاء الدولة على طريقة التفسير الإشاري ، و جعله تنمة لكتاب نجم الدين داية ، و قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم ؛ ولهذا يقول فيها : (... ولا يؤمن أحد بالذي قلته إلا بعد السلوك ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان ...) ^(٤) .

٢ - منهج مؤلفيه فيه : والذي يقرأ في هذا التفسير ، و يقارن بين ما كتبه نجم الدين داية ، و بين ما كتبه السمناني ، يجد الفرقين الأساسيين بين التفسيرين : أولهما - (الجانب الذي كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحياناً للتفسير الظاهر؛ ثم يعقبه بالتفسير الإشاري قائلاً : و الإشارة فيه كذا وكذا.

ولكن الجانب الذي كتبه السمناني فلا يعرج فيه على المعاني الظاهرة) ^(٥) .

(١) - أنظر طبقات المفسرين : للداودي ص ٢٨

(٢) - انظر ٢٣٨/١

(٣) - ومعنى ذلك أن نجم الدين داية كان قد فسر اثنين و خمسين حزباً من ستين حزباً من القرآن ، و لذلك بحق أن ينسب إليه هذا التفسير .

(٤) - انظر التفسير و المفسرون : للدكتور محمد حسين الذهبي ٤٢٩/٢ - ٤٣٠

(٥) - انظر التفسير و المفسرون : للدكتور محمد حسين الذهبي ٤٣٠/٢

و أما الثاني : - (فالأسلوب الذي يستخدمه داية هو سهل و واضح ، و لا يتكلف التعمق. إنه يأخذ من الآيات ما يعتقد أنها تتضمنه على سبيل الإشارة و الإيحاء إليه من المعاني التي يستسيغها العقل ، و يجد فيها الصوفي ما يتفق مع نزعتة و إشراق كلام الله في قلبه بشئ المعاني و الإيماءات.

وأما السمناني فقد جعل تفسيره قاصراً على التفسير الإشاري وحده ، فجاء أسلوبه معقداً مغلقاً ، والسر في ذلك : أنه بني تفسيره على قواعد فلسفية صوفية التي تمزج بين التصورات الغنوصية^(١) والعرفان الصوفي^(٢). هذه القواعد ذكرها في مقدمة التكملة بلغة معقدة وغامضة ذاكراً ومؤكداً فيها أن لكل آية في القرآن سبعة أبطن ، كل بطن يخالف الآخر ... ، ثم هو لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى القول بأن لكل آية سبعين بطناً ، بل سبعمائة ، و وضع ذلك بكلام طويل صعب فهمه^(٣) .

عند ما فرغ من المقدمة ، فسر الفاتحة على طريقة القوم ، مع أن نجم الدين فسرها أول الكتاب ، ثم بعد ذلك ابتداء بسورة الطور ، و انتهى عند آخر القرآن ، و يلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات ، التي مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها^(٤) .

و على الجملة ، فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية ، يعد من أهم كتب التفسير الإشاري ، و هو أقرب إلى الفهم من غيره لو لا هذه التكملة^(٥) .

(١) - كلمة يونانية الأصل "غنوسيس" بمعنى المعرفة ، غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحياً: التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا ، أو هو تذوق تلك المعارف تذوقاً مباشراً ...

الموسوعة الميسرة في الأديان و المذاهب و الأحزاب المعاصرة ، إشراف و تخطيط و مراجعة : د/مانع بن حماد الجهني ص ١١١٣ و مابعدهما

(٢) - انظر معجم تفاسير القرآن الكريم : لعدد من المؤلفين: د/عبد القادر زمامة ، و د/فاضل عبد النبي ، و د/عبد الوهاب التازي سعود ، و د/محمد الكتاني ص ٣١٤

(٣) - انظر التفسير و المفسرون : للذهبي ٤٣٠/٢ - ٤٣١

(٤) - انظر نفس المرجع ٤٣٠/٢

(٥) - انظر نفس المرجع ٤٣١/٢

وهذا التفسير ما يزال مخطوطاً، سوى ما نقله إسماعيل حقي البروسوي في تفسيره: "روح البيان" منه. وتوجد نسخة منه بالنجف: روضة البدرية رقم (٥٨٠) (١).
٦- وأما التفسير المنسوب لابن عربي، فسوف نتحدث عنه في الباب الأول إن شاء الله .

(١) - انظر معجم تفاسير القرآن الكريم : مجموعة من المؤلفين ص ٣١٨

الفصل الثاني

نظرة في مناهج المفسرين ووصف مجمل لـ "روح البيان"

وفيه مبحثان :

المبحث الأول - نظرة في مناهج المفسرين

المبحث الثاني - وصف مجمل لـ "روح البيان"

المبحث الأول

نظرة في مناهج المفسرين ؛ وفيه :

المطلب الأول - التفسير بالمأثور :

المطلب الثاني - التفسير بالرأي ؛ وفيه :

(١) - المنهج اللغوي

(٢) - المنهج العقدي

(٣) - المنهج الفقهي

(٤) - المنهج الباطني

(٥) - المنهج الفلسفي

(٦) - المنهج العلمي

(٧) - منهج اللون الأدبي الاجتماعي

المبحث الأول : نظرة في مناهج المفسرين ؛ وفيه :

نزل القرآن الكريم ، فولدت الحاجة إلى تفسيره باعتباره مصدر الأحكام ، ولما يحمله من محكم ومتشابه ، عام وخاص ، مبهم و مبین ، مطلق ومقيد ، ولما في أسلوبه من الحقيقة والمجاز ، والتصريح ، والكناية والإيجاز والإطناب وغير ذلك . وكان من المعلوم أن يفهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - القرآن جملة وتفصيلاً بعد أن تكفل الله تعالى له حفظه وبيانه باعتباره المبعوث الهادي . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾^(١) . وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٢) .

وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله بيوتهم وقبورهم ناراً))^(٣) وذلك بيان لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى ﴾^(٤) .^(٥)

وفي صدد بيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - للقرآن كله أو بعضه ، اختلف العلماء على قولين :

أحدهما : أنه - صلى الله عليه وسلم - بين للصحابة القرآن جميعاً ألفاظه ومعانيه ، وعلى رأسهم ابن تيمية - رضي الله عنه -^(٦) .

(١) - سورة القيامة : ١٧-١٩ .

(٢) - سورة النحل : ٤٤ .

(٣) - انظر صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب الدليل لمن قال : الصلاة الوسطى هي صلاة العصر .

(٤) - سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٥) - انظر علي الأوسي : الطباطبائي ومنهجه في تفسيره "الميزان" ص ٩٩ ، الناشر : معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية في

منظمة الإعلام الإسلامي ، ط : ١ ، عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م . المطبعة : سهر ، طهران - الجمهورية الإسلامية في

إيران .

(٦) - انظر ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق : د/عدنان زررور ص ٣٥ .

ثانيهما : إن تفسير القرآن لم ينقل إلينا عن الصحابة بجملته. فنحن نحتاج إلى ما كانوا يحتاجون إليه. وبه قال بدر الدين الزركشي^(١) وغيره^(٢).

وفي الواقع ما تستدل به الطائفة الثانية تبدو أرجح لورد الروايات الحديثية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين كل معاني القرآن ، ولو لم يكن كذلك لكان من المفروض ألا نجد اختلافاً بين الصحابة في تفسير الآيات وإن كان يسيراً، ولكن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اختلفت أفهام الصحابة للقرآن، وتنوعت، وإن فهموه إجمالاً. "ويرجع ذلك إلى اختلاف مداركهم، ومعارفهم، ومدى إحاطتهم بلغتهم، ومدى التصاقهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعرفتهم بمناسبات النزول"^(٣). وهذه هي الأدلة التي استدلت بها الفريق الثاني :

(١) - فقد رُوِيَ عن عدي بن حاتم أنه قال: لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾^(٤)؛ عمدت إلى عقال^(٥) أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي فغدوت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ فذكرت له ذلك فقال: "إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار"^(٦).

(١) - هو الإمام الفذ بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي التركي الأصل ، المصري توفي عام (٧٩٤هـ) . انظر طبقات المفسرين للداودي ١٦٢/٢ ط - بيروت - لبنان ، دار الكتب العلمية . والأعلام : لخير الدين الزركلي ٦١/٦ - ٦٠ ط : (٢) بدون التاريخ والمطبعة .

(٢) - انظر البرهان في علوم القرآن : للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ، ١٠٧/١ - ١٠٩ ، تحقيق : د/يوسف عبدالرحمن المرعشلي ، وغيره .

(٣) - علي الأوسي : الطباطبائي ومنهجه في تفسيره "الميزان" ص ١٠٠

(٤) - سورة البقرة : ١٨٧

(٥) - الحبل الذي يعقل به البعير . انظر ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٥٥ ، باب العين مع القاف .

(٦) - انظر صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) ،

كتاب الصوم ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ

مِنَ الْفَجْرِ ۗ ﴾ سورة البقرة ، الآية : ١٨٧ .

(٢) - ومما يشهد لهم ما رُوِيَ أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قرأ على المنبر ﴿وَفَنِكَهَةٌ وَأَبَا﴾^(١) فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا هو التكلف يا عمر^(٢).

(٣) - ويقول ابن عباس في معنى "فاطر" ^(٤): كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر؛ فقال أحدهما لصاحبه (أنا فطرتهما) أي أنا ابتدأتهما^(٥).

ثبت بذلك بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يفسر للصحابة كل صغير وكبير وأنهم فهموا القرآن ظاهره وأحكامه ، أما فهمه تفصيلا ، ومعرفة دقائق باطنه ، فهو أمر غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن ؛ بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يشكل عليهم فهمه .

قال ابن قتيبة ^(٦) : (والعرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب، والمتشابه ؛ بل لبعضها الفضل في ذلك على البعض)^(٧).

وهذا يدل بالصرامة بأن العرب كان لا يكفيهم في معرفة معاني القرآن معرفتهم بلغته؛ بل كانوا في كثير من الأحيان بحاجة إلى توفيق من الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

(١) - المرعي . انظر أبا محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) : العمدة في غريب القرآن . ص ٣٣٧ تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي . ط (٢) عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م . مؤسسة الرسالة . بيروت - لبنان .

(٢) - سورة عبس / ٣١ .

(٣) - انظر السيوطي : الدر المنثور ج ٦ ص ٣١٧ ، كتاب سورة "عبس" الآية ٣١ ، طبعة، ١٨٦٩ م .

(٤) - وردت هذه اللفظة في سورة الأنعام / ١٤ .

(٥) - انظر أبا جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٥٨/٥-١٥٩ ، دار الفكر، عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م ، بيروت - لبنان .

(٦) - هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ؛ ولد في عام (٢١٣هـ) عالم مشارك في أنواع من العلوم كاللغة والنحو وغريب القرآن ... من تصانيفه الكثيرة : غريب القرآن ، طبقات الشعر والشعراء ، المعارف وغيرها . توفي (رحمه الله) في (٢٧٦هـ) . معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ١٥٠/٦-١٥١ دار إحياء التراث العربي للطباعة، والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان

(٧) - انظر المسائل والأجوبة في الحديث واللغة : ص ١٠٠ ، مطبعة السعادة عام ١٣٤٩هـ ، القاهرة - مصر .

ولهذا أصبحت دراسة القرآن الكريم بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ضرورة ملحة . وكانت مصادر الصحابة في التفسير :

١ . (القرآن الكريم: لما يشتمل عليه من الإيجاز والإطناب، والإجمال والتبيين، والاطلاق والتقييد، والعموم والخصوص. من ذلك ورود قصة موسى -عليه السلام- وفرعون موجزة في بعض المواضع ومسهبة مفصلة في أماكن أخرى. وبيان قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَبِقَةُ وَالْمُتَوَفَّوَةٌ﴾^(١)،^(٢) للاجمال في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾^(٤) .

وتقييد قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾^(٥)، للإطلاق في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾^(٦) . وكتخصيص قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٧)؛ للعموم الذي ورد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٨) .

١ . النبي - صلى الله عليه وسلم - : إذا أشكل على أحد منهم آية ، رجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تفسيرها ، فبين له ما خفي عليه^(٩) .
٢ . الاجتهاد: وعندما لم يتيسر لهم الأخذ عن القرآن والنبي - صلى الله عليه وسلم - رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم ، وإعمال رأيهم . ومما ساعدهم على ذلك

(١) - التي تخفق فتموت. انظر أبا محمد مكي بن أبي طالب القيسي ص ١١٨ تحقيق : د/يوسف عبدالرحمن المرعشيلي.

مؤسسة الرسالة ط (٢) عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، بيروت - لبنان .

(٢) - التي تُضْرَبُ حتى تموت. انظر نفس المرجع ونفس المكان .

(٣) - سورة المائدة / ٣ .

(٤) - سورة المائدة / ١ .

(٥) - سورة النساء / ٩٢ .

(٦) - سورة المجادلة / ٣ .

(٧) - سورة الشورى / ٣٠ .

(٨) - سورة النساء / ١٢٣ .

(٩) - وقد مضت الأمثلة على ذلك.

معرفتهم بأوضاع اللغة العربية وأسرارها ، ومعرفتهم بعادات العرب وبأحوال اليهود والنصارى وقتئذ ، إضافة إلى قوة الفهم وسعة الإدراك .

٣. وقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي جحيفة - رضي الله عنه - أنه قال : (قلت لعلي - رضي الله عنه - : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ قال : لا ، والذي فلق^(١) الحبة وبرأ^(٢) النسمة^(٣) ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن ، وما في الصحيفة ، قلت : ما في هذه الصحيفة؟ قال : العقل ، وفكاك^(٤) الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر^(٥)).

هذه هي أدوات الفهم والاستنباط التي استخدمها الصحابة على فهم كثير من آي القرآن ، وهذا هو مبلغ أثرها في الكشف عن غوامض القرآن وأسارته .

٤. مطابقة القرآن للتوراة والإنجيل في بعض المسائل لا سيما في القصص النبوي وما يتعلق بالأمم الغابرة ، وقد أوجز القرآن البيان فيها بينما أطالت في تفاصيلها التوراة والإنجيل، وقد رجع بعض الصحابة إلى من دخل في الإسلام من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهم ، وذلك لاستيفاء هذه القصص^(٦).

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شيء عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

(١) - شق . انظر ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٤٧١ - ٤٧٢ باب "الفاء مع اللام"

(٢) - خَلَقَ . يقول ابن الأثير في شرح هذه اللفظة : في أسماء الله تعالى "البارئ" هو الذي خلق الخلق لا عن مثال . وهذه الكلمة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات ؛ ولما تُستعمل في غير الحيوان . انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ، باب "الباء مع الراء" ، ١/١١١ . تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي . الناشر : المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ . ط (١) عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

(٣) - النفس والروح . انظر ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، باب "النون مع السين" ٥/٣١١

(٤) - عتق الأسير . انظر نفس المرجع ٣/٤٦٥ - ٤٦٦ باب "الفاء مع الكاف" .

(٥) - انظر الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسننه وأيامه كتاب العلم ، باب كتابة العلم .

(٦) - انظر الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ١/٤٠ وما بعدها .

وبعد عصر الصحابة ابتدأت مرحلة التفسير عند التابعين الذين تلمذوا على الصحابة فأفادوا الكثير ؛ ومصادر التفسير في هذه المرحلة هي : القرآن الكريم ، ورواياتهم عن الصحابة أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأقوال الصحابة ، واجتهاد التابعين أنفسهم واستنباطهم ، وأهل الكتاب (١) .

رُويَ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (٢) عن مجاهد قال: معناه يروزك أي يختبرك ويمتحنك. وعن قتادة قال: معناه من يطعن عليك في الصدقات (٣) .

وفي أواخر عهد بني أمية وأول عهد العباسيين - حيث بدأ التدوين - دُوِّنَ حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان التفسير بابا من الأبواب التي شملها تدوين الحديث ولم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة وآية آية من مبدئه إلى منتهاه ؛ ثم بدأ التفسير ينفصل عن الحديث فأصبح علماً قائماً بنفسه ، ووضع لكل آية من القرآن تفسير (٤) .

عندما فتح المسلمون أهم مراكز الفكر اليوناني ، والفارسي ، والهندي ، واختلطوا بشعوب البلاد المفتوحة وامتزجت أفكارهم بأفكارهم وترجمت الكتب في فنون مختلفة إلى العربية من اللغات الأخرى ، نشأت مذاهب جديدة طغت على بعضها الخرافات والبدع (٥) . وقام أصحابها بنشر مذاهبها والدعوة إليها ، وتعرضوا لتفسير بعض الآيات

(١) - انظر الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ١/١٠٥ وما بعدها.

(٢) - سورة التوبة : ٥٨ .

(٣) - انظر ابن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٠/١٥٦ - ١٥٧ دار الفكر عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، بيروت - لبنان

(٤) - انظر الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ١/١٤٥ - ١٤٦

(٥) - انظر الدكتور الشحات السيد زغلول : الاتجاهات الفكرية في التفسير، ص ١١٠ - ١١١، ط (٢) عام ١٣٩٧هـ، الإسكندرية - مصر .

القرآنية بما يتفق مع مشارهم ويتناسب مع مذاهبهم . وهكذا تدرج التفسير ، واتجهت الكتب المؤلفة فيه اتجاهات متنوعة ، وظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهورا جليا^(١) .

بعد هذا التعريف بنشأة التفسير وتطوره يجدر بنا أن نتبين المناهج التي سلكها المفسرون في بيان معاني الآيات . فقد درج الباحثون على التفسير إلى :

١- تفسير بالمأثور . ٢. وتفسير بالرأي .

المطلب الأول - التفسير بالمأثور :

وهو أول الأنواع ظهورا^(٢) . ويشمل ما جاء في القرآن نفسه من تفسير الآيات بعضها بعضا ، وما نقل عن الرسول - عليه الصلاة والسلام- ، وما نُقِلَ كذلك عن الصحابة، وعن التابعين أيضا^(٣) .

وقد اختلف العلماء فيما نُقِلَ عن التابعين ، فالبعض يعدّه من قبيل المأثور ، والبعض الآخر يعدّه من قبيل الرأي^(٤) إلا أن أغلب المفسرين ذهبوا إلى الأخذ بقول التابعين في التفسير ؛ لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة^(٥) .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : إن أقوال التابعين ليست بحجة على غيرهم ممن خالفهم . أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ؛ فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ، ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك^(٦) .

(١) - انظر د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ١/١٥١ .

(٢) - انظر د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ١/١٥٧ ، وكذلك السيد خليل : نشأة التفسير في القرآن والكتب المقدسة ص ٣٤ ط (١) عام ١٣٧٣هـ ، الإسكندرية - مصر .

(٣) - انظر نفس المرجع ١/١٥٦ .

(٤) - انظر د. محمد بسيوني فودة : التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية ص ٢١ ، مطبعة الأمانة، ١٣٩٧هـ ، مصر .

(٥) - انظر د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ١/١٣١ - ١٣٢ .

(٦) - انظر ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ٣٧ - ٣٨ ، تحقيق : الدكتور عدنان زر زور

المطلب الثاني - التفسير بالرأي ؛ وفيه :

الرأي في اللغة بمعنى الاعتقاد ، والقياس ، والاجتهاد ، ويعتبر أصحاب القياس أصحاب الرأي ، لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثاً أو أثراً^(١) . والمراد به هنا تفسير القرآن بالاجتهاد^(٢) . وقد نشأ التفسير بالرأي - كمنهج - في وقت متأخر عن نشأة التفسير الأثري ، وإن كانت هناك بعض المحاولات من قبل بعض المسلمين تبين أنهم مارسوا الرأي في التفسير لاسيما لو لاحظنا أن أحد مصادر التفسير في عصر الصحابة هو (مبدأ الاجتهاد والإستنباط) وفي زمن التابعين كما سبق ذكره . وقد ذهب بعض المحققين إلى أكثر من ذلك وقالوا أن من الممكن القول إنه في عصر النبوة أيضاً أقبل بعض المسلمين بفطرتهم على القرآن، عملوا نظرهم فيه عندما لم يتيسر لهم لقاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوجد في هذه الفترة من فسر القرآن برأيه^(٣) . وقد اختلف العلماء في التفسير بالرأي والاجتهاد فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازته^(٤) . ولكن بعد دراسة الأدلة للفريقين يبدو أن الحق مع من أجازته بشروط يجب

(١) - انظر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : القاموس المحيط، فصل الرأى ، باب الوار والياء .

(٢) - انظر د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٢٥٥/١ .

(٣) - انظر الشحات السيد زغلول: الاتجاهات الفكرية في التفسير، ص ٨١ ط (٢) عام (١٣٩٧هـ)، الإسكندرية - مصر .

(٤) - انظر أدلة الطرفين بالتفصيل في :

➤ أصول التفسير وقواعده: للشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس ط ٣ عام (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م)، بيروت - لبنان

➤ التفسير والمفسرون : د/الذهبي ٢٧٥/١ ، دار الكتب الحديثة ، ط (٢) عام ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م

➤ مناهل العرفان : للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ٥٤/٢ - ٦٣ ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م

➤ أصول التفسير وقواعده : للشيخ خالد عبد الرحمن العك ص ١٦٨ .

➤ التبيان في علوم القرآن: محمد علي الصابوني ص ١٦٥ ، مكتبة الحاقانية، ط ١ سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، بشاور - باكستان

➤ التفسير والمفسرون : د/الذهبي ٢٥٧/١

➤ والإتقان في علوم القرآن : للسيوطي ٣٩٥/٢ دار الكتب العلمية ، ط (٢) سنة (١٤١١هـ / ١٩٩١م)

➤ التفسير والمفسرون : د/الذهبي ٢٥٨/١

➤ الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي ٣٢/١ دارالكتاب العربي، طبع في ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م، القاهرة، ومناهل العرفان ٦٢/٢

➤ التفسير والمفسرون ٢٥٩/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٤/١

أن تتوافر فيه بحيث فإن كان الاجتهاد موفقاً أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم .

والأمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير ذكرها الزركشي حيث قال:
(لنناظر في القرآن لطلب التفسير مأخذ كثيرة؛ أمهاتها أربعة:

١. النقل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

٢. الأخذ بقول الصحابي ؛ فقد قيل : إنه في حكم المرفوع مطلقاً ، وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه .

٣. الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب .

٤. الأخذ بما يقتضيه الكلام ، ويدل عليه قانون الشرع . وهذا النوع هو الذي دعا به النبي - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس في قوله: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)^{(١)(٢)}.

فمن فسر القرآن برأيه أي باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ، معتمداً عليها فيما يري من معاني كتاب الله ، كان تفسيره سائغاً جائزاً، خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز ، والتفسير المحمود .

ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها، كان تفسيره ساقطاً مرفوضاً خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز، أو التفسير المذموم^(٣).

(١) — انظر صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) كتاب الوضوء ، باب وضع الماء عند الخلاء

(٢) — انظر البرهان في علوم القرآن ٢/٢٩٢ وما بعدها .

(٣) — انظر محمد عبدالعظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/٥٠ .

ويقول الإمام الراغب الأصفهاني ^(١) بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهما في هذا الموضوع: (وذكر بعض المحققين: أن المذهبين هما الغلو والتقصير؛ فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى ﴿لِيَذَّبُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ^(٢) ^(٣) . إذن فمن يفسر القرآن بالاجتهاد معتمدا على ما نقل عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وأصحابه مما ينير الطريق له برأيه ، وبعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها ، واستعانة بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن ، وغير ذلك من الأدوات ^(٤) التي يحتاج إليها المفسر؛ فهو تفسير محمود لا غبار عليه، وربما يكون مطلوباً .

وقد أخذ التفسير بالرأي مناهج متعددة تلونت بثقافات المفسرين وعقائدهم ، وسنعرض هنا باختصار الشديد لأهم هذه المناهج إن شاء الله :

١. المنهج اللغوي ^(٥)

إن هذا الاتجاه من أقدم الاتجاهات التي وجدت في التفسير ^(٦) . وقد اتجه أصحاب هذا المنهج إلى استخلاص معاني الآيات باستخدام اللغة حيث كانوا يرون النص القرآني بالإضافة إلى كونه نصاً دينياً؛ فهو أدبي معجز ، وثم اتجهوا في فهمه اتجاها لغويا بعيدا

(١) - هو أبو القاسم حسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني . له آثار أدبية قيمة ؛ منها : ١- الذريعة إلى مكارم الشريعة (ط) و ٢- محاضرات الأدباء (ط) وغيرهما
(٢) - سورة ص / ٢٩ .

(٣) - مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني الملحقه بأخر ترجمة الفوز الكبير في أصول التفسير : للشاه ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ) ص ١٧٩-١٨٠ . طبعته : قديمي كتب خاانة - آرام باغ - كراچي ١- باكستان .

(٤) - انظر جلال الدين السيوطي: الإتيان في علوم القرآن ٢/٣٩٧-٤٠٠ ، ط (٢)، دار الكتب العلمية عام ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، بيروت - لبنان . و د/محمد بن لطفي الصباغ : لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، المكتب الإسلامي، ط (٣) عام (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ، بيروت - لبنان

(٥) - من أراد الدراسة المفصلة في هذا المنهج؛ فليرجع إلى كتاب "لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير" : للدكتور محمد بن لطفي الصباغ ص ٢١٩ وما بعدها ، ط (٣) عام (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان .

(٦) - انظر نفس المرجع ص ٢١٩ .

عن أمور قد لا تعطيها الدلالة اللغوية ، ولا يسعف على استنباطها من النص تركيبه الأدبي المعجز^(١) . وقد واكب^(٢) ذلك نضج الحركة اللغوية واستقامة دراسة علوم اللغة ، وقد تولت ذلك مجموعة الأدباء النحويين والتي قامت أول أمرها على صيانة القرآن من اللحن ، فكتبت مؤلفات عديدة تعالج هذا الجانب من القرآن الكريم أمثال: معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ) ، ومعاني القرآن لأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) ، ومعاني القرآن لثعلب (ت ٢٩١هـ) ، وغيرهم . وقد اتسعت الدراسات اللغوية بعد ذلك ، فظهرت آثار علمية في غريب القرآن وأمثال القرآن ومصادره وغيرها^(٣) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن عباس كان له أثر واضح في إثارة هذا المنهج اللغوي ، فقد كان يلجأ إلى الشعر بحثاً عن معنى اللفظ القرآني ؛ فنجده يقول : "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب"^(٤) .

(وروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس فقال : "أخبرني عن قول الله عزوجل ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^(٥) ما السنة؟" قال ابن عباس : "النعاس" . وذكر قول زهير بن أبي سلمة^(٦) :

لا سنة في طول الليل تأخذه ولا ينام ولا في أمره فننده^(٧)

(١) — انظر السيد أحمد خليل : دراسات في القرآن ص ٧٠ دارالمعارف ، عام ١٩٧٢م ، مصر .

(٢) — أي واظب . انظر المعجم الوسيط : مادة : واكب ١٠٥٣/٢

(٣) — انظر د/السيد أحمد خليل : نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن ص ٥٨ — ٥٩ ، ط (١) ، عام (١٣٧٣هـ) الإسكندرية — مصر .

(٤) — انظر محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢٤/١ دار إحياء التراث العربي طبع في عام (١٤٠٥هـ) / (١٩٨٥م)

(٥) — سورة البقرة / ٢٥٥ .

(٦) — هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح بن قرة شاعر جاهلي . ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة ، وله ديوان شعر . انظر عمر رضا كحالة ١٨٦/٤ .

(٧) — انظر الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢٥/١ ، البقرة : ٢٥٥ .

وقد حاول الإمام السيوطي تأصيل هذا الاتجاه ببيان أن المراد بالإعراب في قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" ^(١) حيث قال: هو معرفة معاني ألفاظه وليس المراد بالإعراب المصطلح عليه عند النحاة ؛ لأن القراءة مع فقدته ليست قراءة ولا ثواب فيها ١هـ - ^(٢).

٢. المنهج العقدي ^(٣)

تدرج تحت التفسير العقلي الترععات العقدية في التفسير ، فقد كان لظهور الفرق أثر كبير في تدرج التفسير العقلي ؛ إذ اتجه رجال كل فرقة إلى اعمال عقولهم في تأويل النص القرآني، وتحكيم معتقداتهم فيه؛ بل واستخراج الأدلة منه على سلامة اتجاههم ^(٤).

نشير هنا إلى أهم تلك المحاولات العقدية التي امتد تأثيرها إلى النصوص القرآنية . فقد تصدر المعتزلة ^(٥) ساحة ذلك الصراع وأخذوا يتأولون الآيات بما يناسب معتقداتهم الاعتزالية ، وطوّعوا لأجل ذلك اللغة ، وأعملوا العقل في فهم النص القرآني ، وكتب كثير منهم تفاسير القرآن ، منهم عبد الرحمن بن كيسان الأصم المتوفي (٢٤٠هـ) وأبو علي الجبائي المتوفي (٣٠٣هـ) وأبو القاسم البلخي المتوفي (٣١٩هـ) وغيرهم،

(١) - انظر الحاكم النيسابوري : المستدرک علی الصحیحین ، کتاب التفسیر ، تفسیر سورة حم السجدة ، دار الفكر ، بیروت ١٣٩٨هـ . وانظر الجامع الصغير من حدیث البشیر والنذیر للسيوطي .

(٢) - انظر السيوطي : الإتيقان في علوم القرآن ٣/٢ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، طبع الهيئة المصرية للكتاب ، عام (١٩٧٥م - ١٣٥٤هـ)

(٣) - كتبت بضع رسائل الماجستير في هذا المنهج في كلية أصول الدين - الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.

(٤) - انظر الشحات السيد زغلول الاتجاهات الفكرية في التفسير ص ١٨٤ ، ط ٢ عام (١٣٩٧هـ) الإسكندرية - مصر.

(٥) - نشأت هذه الفرقة بسبب الخلاف الذي حدث بين الحسن البصري (ت ١١٠هـ / ٧٢٨م) وبين واصل بن عطاء في القدر، وفي المنزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن عن مجلسه ، فاعتزل واصل. فقبل له ولأتباعه "معتزلة" ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/١٩٢ ، دار الفكر، طبع سنة (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ، بيروت - لبنان . وانظر أيضا عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (ت ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) الفرق بين الفرق ص ٢٠ - ٢١ ؛ تحقيق: محمد عي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة، بيروت - لبنان . والشهرستاني (ت ٥٤٩هـ) : الملل والنحل ١/٥٣ - ٥٧ دار الفكر طبع عام (١٤٠٠هـ) بيروت - لبنان ، والذهبي : التفسير والمفسرون ١/٢٥٧ ، والسيوطي : الإتيقان في علوم القرآن ٢/٣٩٥ ، دار الكتب العلمية، ط (٢) سنة (١٤١١هـ / ١٩٩١م) .

وقد فقدت هذه الآثار إلا أن الأثر التفسيري الكامل الذي بقي للمعتزلة هو تفسير الكشاف للزمخشري^(١). وكان الزمخشري واضحاً في اعتزاليته وتكلفه في تأويل النصوص لصالح الاعتزال. كما جاء الأشاعرة^(٢) كردّ فعل للحركة الاعتزالية^(٣) وأخذوا يدعمون معتقداتهم بتأويل بعض النصوص القرآنية، وكان الفخر الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) واضحاً بموقفه الأشعري، ودفاعه عن معتقدات أهل السنة، وشنه الهجمات على المعتزلة. وقد دخلت الإمامية الصراع العقائدي؛ فلم يتفقوا مع المعتزلة في جميع معتقداتهم وكذلك مع أهل السنة^(٤). إلى جانب ذلك كله ظهرت فرق عديدة أخذت تتوسل بالقرآن في إثبات عقائدها وأفكارها. فهناك الخوارج^(٥) ،

(١) — انظر الشحات زغلول : الاتجاهات الفكرية في التفسير ص: ١٨٧ — ١٨٨ .

(٢) — وهي فرقة جمهرة أهل السنة والتي حوت آراء جمهور العلماء وخاصة المتأخرين ، وسموا بهذا الاسم نسبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري الذي شنّ حملة قوية على المعتزلة ورسخ أصول وقواعد أهل السنة بمنهج امتاز بالوسطية بين العقل الجرد والنقل الجرد . انظر: الشيخ إسحاق بن عجيل عزوز المكي: الفرق الإسلامية ط ١، سنة (١٩٩٥م)، دار ابن حزم، بيروت - لبنان؛ وكذلك ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤٥/٥ . والشهرستاني: الملل والنحل ١/١١٩ .

(٣) — انظر د. علي شامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢٦٥/١، ط (٨)، الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة .

(٤) — انظر د. علي شامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢٣٥/١ وما بعدها .

(٥) — هو اسم لفرقة دينية كانت من أوائل الفرق الكلامية والتي كانت مشكلتها بسبب أمر سياسي ، لذا اعتبروا حزباً سياسياً ، وسبب تسميتهم بذلك يعود إلى الأوجه الآتية : أنهم سموا بذلك لخروجهم عن الحق والدين أو عن الناس أو عن علي بن أبي طالب . انظر الخوارج في العصر الاموي : معروف نايف محمود : ص ١٨٧ - ١٩٤ ، دار الطليعة ، ط (١) عام (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ، بيروت — لبنان . وكذلك د/ أحمد محمد أحمد جلي : دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة) ص : ٣٥ - ٣٧ (بتصرف يسير) ، ط : (١) عام (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، شركة الطباعة العربية السعودية .

والجهمية^(١)، والمرجئة^(٢)، وغيرها^(٣).

٣ - المنهج الفقهي^(٤)

كان الصحابة يسألون النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما أشكل عليهم من الأحكام الفقهية في القرآن الكريم ؛ وبعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخذ الصحابة يعتمدون على كتاب الله وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في التعرف على الأحكام الفقهية ، وقد عملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب والسنة ؛ غير أن الصحابة في نظرهم آيات الأحكام كانوا يتفقون أحياناً على الحكم المستنبط ، وأحياناً يختلفون في فهم الآية إلا أنه كان اختلافاً يسيراً ، ولكن ما لبث أن توسع هذا الخلاف بعد قيام المذاهب الفقهية ، وتعصب أهل كل مذهب لأقوال أئمتهم ، وتنوع

(١) - هم أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجيرية الخالصة . ظهرت بدعته بترمز و قتل . وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء . ذهب إلى القول بخلق القرآن وتعطيل الله على صفاته انظر الشهرستاني : الملل والنحل / ١ - ٨٦ - ٨٧ .

(٢) - البذرة الأولى للإرجاء بدأت بظهور طائفة من عهد الصحابة الكرام امتنعت عن الخوض في الفتن التي حدثت في عهد عثمان (رضي الله عنه) ، والحروب التي وقعت بعد استشهاده . وأرجأت أمر المتنازعين إلى الله حتى يكون هو الذي يحكم بينهم . ثم انضم إلى هذه المسألة مرتكب الكبيرة ؛ فذهبوا إلى أن مرتكبها يُرجأ أمره إلى الله ويفوض الحكم إليه فيها . وكان لها أثر عظيم في الأمة الإسلامية سياسياً وعقدياً . انظر مقالات الإسلاميين : للأشعري ١/ ١٩٧ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع بمطابع مصر ، ط : ٢ ، عام (١٩٨٥م) . وانظر أيضاً : الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١٩ ، ٦٣ ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ط : ١ ونشره السيد عزت العطار الحسيني ، عام (١٩٤٠م) .

(٣) - انظر د/ علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ٢٢٩ ، ٢٤١ .

(٤) - الكتب التي تناولت هذا الموضوع ؛ منها :

- التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي .
- الاتجاه الفقهي في التفسير عند أهل السنة في شبه القارة الهندية : لزميلي دل آقا وقار ؛ وهي رسالة الدكتوراة في كلية أصول الدين ، قسم التفسير وعلومه بالجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد . توجد نسخة منها في المكتبة المركزية - قسم الرسائل الجامعية في نفس الجامعة .
- قسّم مجموعة من الطلاب في قسم التفسير وعلومه - بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد جميع السور القرآنية في ما بينهم ، فكتبوا رسائل الماجستير تحت عنوان " آيات الأحكام في سورة ... " ، والرسائل موجودة في المكتبة المركزية للجامعة - قسم الرسائل الجامعية .

التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية ؛ فلاهل السنة بمذاهبهم الأربعة تفسير فقهي متنوع تبعاً لهذه المذاهب الفقهية^(١) ، وكذلك الشيعة^(٢) ، والظاهرية ، والخوارج^(٣) .

٤ - المنهج الباطني :

ذكر أصحاب التواريخ أن دعوة الباطنية ظهرت أولاً في زمان المأمون العباسي وانتشرت في زمان المعتصم ، وقد عرفت بذلك الإسماعيلية فقالوا بإمامة إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ، وإنما لقبوا بالباطنية لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره ، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور^(٤) .

واتجه الباطنية في تفسير القرآن إلى باطنه ورفضوا الأخذ بظاهره وقالوا : إن للقرآن ظاهراً وباطناً . والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، والتمسك بظاهره معذب بالشقشقة في الكتاب، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره، وتمسكوا بقوله تعالى : ﴿فَضْرِبَ بَيِّنَاتٍ لِّهٖ بِآبِ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^(٥) .

يقول الغزالي عن الباطنية: (لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها واستفادوا إبطال معاني الشرع، وكل ما ورد من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن^(٦) .

(١) - فمن الحنفية تفسير " أحكام القرآن " لأبي الرازي المعروف بالخصاص (ت ٣٧٠هـ) ، ومن الشافعية " أحكام القرآن " لأبي الحسن الطبري المعروف بالكمي الهراسي (ت ٥٤٠هـ) ، ومن المالكية " أحكام القرآن " لأبي بكر ابن العربي (ت ٥٤٣هـ) .

(٢) - ومن الإمامية الإثني عشرية " كسر العرفان في فقه القرآن " لمقداد السيوري (من القرن الثامن الهجري) وغيره .

(٣) - سبق ذكرها . انظر د . محمد حسين الذهبي : " التفسير والمفسرون " ٢ / ص ٤٧٢ وما بعدها .

(٤) - انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ١ / ١٩١ وما بعدها ؛ تحقيق : عبدالعزيز محمد الوكيل ، مطبعة الحلبي ، القاهرة - مصر .

(٥) - انظر البغدادي : " الفرق بين الفرق " ص ١٨١ ، وانظر الزرقاني : " مناهل العرفان " ٢ / ٧٤ . سورة الحديد : ١٣ .

(٦) - انظر : " فضائح الباطنية " ؛ تحقيق : عبدالرحمن بدوي ، ص ٥٥ ، طبع في الدار القومية عام (١٣٨٣هـ) ، القاهرة - مصر .

وقد ذكر الغزالي نماذج كثيرة لتفسيراتهم الباطنية نذكر بعضها منها : "إن الجنابة تعني عندهم مبادرة المستجيب بإفشاء سر إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه ، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك" .

"وأما الزنا فهو القاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد، والاحتلام هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السر في غير محله، فعليه الغسل أي تجديد المعاهدة".

كما أولوا المعجزات فقالوا : الطوفان معناه طوفان العلم ، أغرق به المتمسكون بالسنة . والسفينة : حرزه الذي تحصن به من استحباب لدعوته ، ونار إبراهيم عبارة عن غضب ثمرود ، لا عن النار الحقيقية ، وذبح إسماعيل أخذ العهد عليه ^(١) .
والباطنية بذلك خرجوا على ظواهر الشريعة الحقبة بهذه الافتراءات ، والتأويلات الساذجة لهدم الشريعة .

٥ - المنهج الفلسفي :

حاول أصحاب هذا المنهج التوفيق بين الفلسفة والدين على أساس تأويل النصوص الدينية وحملها على معان تتفق وما تقول به الفلسفة ^(٢) . وقد ظهر هذا المنهج بعد اتصال المسلمين بثقافات البلدان التي فتحوها، ومحاولة العباسيين الاتصال بهذه الثقافات (من يونانية وفارسية وهندية) عن طريق الترجمة والنقل ^(٣) . فقام الفلاسفة المسلمون بشرح الفلسفة اليونانية، وحاولوا الجمع بين آراء رجالها ، كما حاولوا التوفيق بينها وبين الإسلام ، ومن أولئك الفلاسفة : الفارابي (ت ٢٣٩هـ-)، والكندي (ت ٢٥٢هـ-)، وابن سينا (ت ٤٤٨هـ-) .

(١) - نفس المصدر ص ٥٥ - ٥٧ .

(٢) - انظر زغلول : "الاتجاهات الفكرية في التفسير" ص ٣٠١ .

(٣) - انظر السيد خليل : "نشأة التفسير" ٥٥ - ٥٦ .

فالفارابي مثلاً يفسر (الملائكة) بأنها صور علمية ، جواهرها علوم إبداعية ليست كالأواح فيها نقوش ، أو صدور فيها علوم ؛ بل هي علوم ابداعية قائمة بذواتها تلحظ الأمر الأعلى فينطبع في هوياتها ما تلحظ ، وهي مطلقة ، لكن الروح القدسية تخاطبها في اليقظة، والروح النبوية تعاشرها في النوم (١) .

وفسر ابن سينا قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فقال : "للصمد في اللغة تفسيران أحدهما: الذي لا جوف له . والثاني : السيد ، فعلى التفسير الأول معناه سلبي وهو اشارة إلى نفي الماهية ، فان كل ما له ماهية فله جوف وبطن وهو تلك الماهية ، وما لا بطن له وهو موجود ، فلا جهة ولا اعتبار في ذاته إلا الوجود ، والذي لا اعتبار له إلا الوجود فهو غير قابل للعدم فإن الشيء من حيث هو هو موجود غير قابل للعدم إذ الصمد الحق واجب الوجود مطلقاً من جميع الوجوه .

وعلى هذا التفسير الثاني معناه إضافي وهو كونه سيداً لكل أي مبدأ لكل (٢) .

٦ - المنهج العلمي

لقد عرفه الدكتور محمد بن لطفى الصبّاغ قائلاً: "إنه تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية" (٣) .

لقد أنزل الله تعالى القرآن هادياً إلى سعادة الدارين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حاملاً الدليل على كونه من عند الله تعالى ، معجزاً للثقلين ، بادياً وجه إعجازه بالجلديد في العصور (٤) .

(١) - المرجع السابق ص ٣١٧ .

(٢) - انظر تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ص ٧ ، ٣٦ - ٣٩ ، طبع عام (١٣٢٣هـ) ، وانظر الاتجاهات الفكرية في التفسير ص ٣٢٧ .

(٣) - لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ص ٢٩٣ . ط : ٣ عام (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ، الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت - لبنان .

(٤) - انظر شينخي وأستاذي الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى -رحمة الله عليه- : "مبادئ ممارسة التفسير العلمي" ص ٣ . هذا البحث مستل من حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد الخامس (١٩٨٨م) جامعة الأزهر .

إن القرآن قد احتوى على الآيات التي تتضمن الإشارات الكونية تتعلق بالسماء والأرض وما بينهما بشكل مجمل ، وهي تدل دلالة قاطعة على أن هذا القرآن الذي جاء به محمد بن عبد الله النبي الأمي - صلى الله عليه وسلم - هو من عند الله الذي خلق الكون وجعل له تلك الأنظمة التي حارت في بحورها عقول العلماء والمكتشفين والباحثين . ولا يجوز أن نهمّل هذه الآي الكونية الناطقة بالحق والصدق من قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، من غير أن نوضحها ونشرحها بما يؤيد صدقها وصحتها من العلوم التي جرت على أيدي وعقول غير المسلمين ... لتكون الحجة أقوى .

وللتفسير العلمي جذور في ثقافتنا التفسيرية القديمة التي خَلَفَهَا السلف، ونستطيع أن نعد الغزالي في "الإحياء" و "جواهر القرآن" و "القسطاس المستقيم" و "الحكمة في مخلوقات الله" والرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب" من أوائل الباحثين فيه ، وقد سار السيوطي في هذا الطريق حيث خصص باباً في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" (١) تحدث فيه عن العلوم المستنبطة من القرآن ونقل أقوالاً لبعض العلماء في أن كل شيء في القرآن ، ثم نقل مقالة أبي الفضل المرسي وغيره في هذا الصدد (٢) .

ولكن هذا اللون التفسيري كان وما زال موضع أخذ ورد بين العلماء في القديم والحديث ؛ وإن كان هو أكثر رواجاً وأعظم قبولاً لدى المتأخرين (٣) .
والحق أنه مقبول بشروط وضوابط إن وجدت فيه ، وإلا فلا (٤) .

(١) - انظر ٢ / ٢٧٢ وما بعدها ..

(٢) - انظر الدكتور ابن الصباغ : "لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير" ص ٢٩٣ .

(٣) - انظر محمد حسين الذهبي : "التفسير والمفسرون" ٢ / ٥٤٤ .

(٤) - انظر هذه الشروط في "أصول التفسير وقواعده" : للشيخ خالد عبدالرحمن العك ص ٢٢٤ ، ومبادئ ممارسة التفسير

العلمي : للدكتور عبدالغفور محمود مصطفى ص ٥ وما بعدها .

٧ - اللون الأدبي الاجتماعي

هذا الاتجاه يعتبر عملاً جديداً في التفسير ، وابتكاراً يرجع فضله إلى مفسري هذا العصر الحديث ، وإن هذا الفضل يرجع إلى مدرسة الأستاذ محمد عبده للتفسير... هذه المدرسة التي قام زعيمها ، ورجالها من بعده بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالى ، وهداية الناس^(١) .

محاسن هذه المدرسة

ويمكننا أن نجمل هذه المحاسن في النقاط التالية :

- ١ . أنها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثير بمذهب معين ، الذي يجعل القرآن تابعا له ، فيؤول القرآن بما يتفق معه ، وإن كان تأويلاً متكلفاً وبعيداً .
- ٢ . أنها وقفت من الروايات الاسرائيلية موقف الناقد البصير ، فلم تشوه التفسير بما شوه به كثير من التفاسير القديمة التي مهدت الطريق للطاعنين على القرآن ، وأحاطت بجمال القرآن وجلاله .
- ٣ . وكذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية التي كان لها أثر سيء في تفسير القرآن الكريم .
- ٤ . وأنها أسفرت عن بلاغة القرآن وإعجازه ، وهجت بالتفسير منهجاً أدبياً اجتماعياً .
- ٥ . وكما أنها عاجلت مشاكل البشرية عامة ، ومشاكل الأمة الإسلامية خاصة .
- ٦ . وأنها وفقت بين القرآن وما أثبتته العلم من نظريات صحيحة .
- ٧ . وأخيراً أنها دافعت عما أثير حول القرآن من شكوك وأوهام بحجج دامغة بأسلوب شيق جذاب^(٢) .

(١) - انظر محمد حسين الذهبي "التفسير والمفسرون" ٢ / ٦٠٦ .

(٢) - انظر محمد حسين الذهبي "التفسير والمفسرون" ٢ / ٦٠٣ - ٦٠٦ .

عيوب هذه المدرسة

وأما ما يؤخذ على هذه المدرسة ، ممكن أن يستخلص كالاتي :

(١) أنها أعطت لعقلها حرية واسعة ، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل .

(٢) وأنها طعنت في بعض الأحاديث الصحيحة : تارة بالضعف وتارة بالوضع .

(٣) كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة ، فيما يتعلق بالعقائد ، مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يستهان بها ^(١) .

(٤) وما يقال من أن خبر الواحد لا تثبت به عقيدة إجماعاً فيه نظر من وجوه ^(٢) .

أهم رجال هذه المدرسة :

إن أهم رجال هذه المدرسة :

(١) الأستاذ محمد عبده ، زعيمها وعميدها .

(٢) الأستاذ السيد محمد رشيد رضا .

(٣) الأستاذ محمد مصطفى المراغي ^(٣) .

قلت : ومن أعجب العجائب ما أغفله الدكتور محمد حسين الذهبي هو الدور الذي لعبه جمال الدين الأفغاني الذي يعتبر رائداً حقيقياً لهذه الحركة وذلك بشهادة العلماء ، وهو الذي تتلمذ على يديه الإمام محمد عبده ^(٤) .

(١) - انظر نفس المرجع ٢ / ٦٠٤ . وقد ذكر الذهبي هذه الوجوه بالتفصيل ، وأثبت خطأهم في هذا . انظر نفس المرجع ٢

٦٠٣ / ٦٠٥ .

(٢) - انظر محمد حسين الذهبي "التفسير والمفسرون" ٢ / ٦٠٤ - ٦٠٦ .

(٣) - انظر محمد حسين الذهبي "التفسير والمفسرون" ٢ / ٦٠٥ - ٦٠٦ .

(٤) - انظر على سبيل المثال لا الحصر الدكتور محمد بن لطف الصباغ "لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير" ص ٣٠٨

وما بعدها ، ومحمد الهي "الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار" ص ٨٣ وما بعدها .

المبحث الثاني

وصف مجمل لـ "روح البيان" ؛ وفيه :

المطلب الأول - سبب تأليفه

المطلب الثاني - منهج روح البيان العام

المبحث الثاني - وصف مجمل لـ "روح البيان"

إنه تفسير كامل للقرآن الكريم وقد وقع في حوالي (٦٧٠٠) صفحة وعشرة مجلدات، تضم ثلاثين جزءاً حسب تقسيم المصنف . صدره بمقدمة هامة باللغة التركية عرّف فيها نفسه ، والطريقة الصوفية التي ينتهي إليها ، والآثار التي ألفها . وورد في تقديمه أيضاً ، أنه بعد إشارة أحد شيوخه عليه بالانتقال إلى مدينة "بروسا" شرع في جمع صحائفه التي كان قد سوّدها في التفسير ، وأنه قصد بكتابة هذا التفسير أن يكون له ذخراً في الآخرة ، وشفيعاً له بين يدي الله (١) .

المطلب الأول - سبب تأليفه

هو الرؤيا التي رآها في المنام ، كما يحكي ذلك قائلاً : إن أبي المعنوي الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (٢) قد أدلني في منامي والني - صلى الله عليه وسلم - لمس ظهري لمسا لطيفاً وأمرني أن أكتب تفسيراً للقرآن لأمتي . فدعوت الله وروحانية النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يوفقي في كتابة هذا التفسير (٣) .

وكان الفراغ من إتمامه حسب تنصيبه في سنة (١١١٧هـ) (٤) . وقد استغرقت كتابته ثلاث وعشرين سنة كمدة نزول الوحي على النبي - صلى الله عليه وسلم - (٥) .

(١) - انظر مقدمة التفسير باللغة التركية ، وقد قام بترجمتها لي إلى العربية الزميل الدكتور عبد الحميد بريسك (ABDULHAMID BIRISIK) الأستاذ المشارك في (ULUDAG UNIVERSITY) . كلية الإلهيات قسم التفسير والدراسات القرآنية ، وحالياً يعمل كأستاذ الزائر في الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد ، في كلية أصول الدين وفي نفس الوقت يعمل وكيلاً لعميد الكلية .

(٢) - هو أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الحافمي الطائي الأندلسي ، ولد بحرسية سنة ٥٦٠هـ ونشأ بها ، ثم طاف بلداً كثيرة وتوفي سنة ٦٣٨هـ في دمشق ستأتي ترجمة حياته كاملة .

(٣) - انظر مقدمة تفسيره ، و(نشرات باموق) PAMUK YAYAN LARI .

(٤) - انظر نفس المرجع .

(٥) - انظر نفس المرجع ، وانظر كذلك عمر نصوحي ييلمن "طبقات المفسرين" ص ٧١٢ ، رئيس الشؤون الدينية ، ط دار ييلمن ، فاتح الإستانبول عام ١٩٧٤ م .

وهذا التفسير ، وإن كان غير معروف لدى كثير من طلبة العلم في بلدان مختلفة ، إلا أنه انتشر كثيراً وخاصة عند المتصوفين . ويدل على ذلك طباعته مرات في داخل تركيا وخارجها . وقد طبع مرات في بيروت وأعاد طبعه بالأوفست مكتبة المثني ببغداد والنسخة التي أعتمد عليها طبعت في دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، عام ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م وهي الطبعة الأولى .

وقد قام الشيخ محمد علي الصابوني باختصاره وتنقيحه وتحقيقه كما يزعم وسماه "تنوير الأذهان من تفسير روح البيان" فحاء في أربعة مجلدات ، وطبعته الدار الوطنية ببغداد، ط : ١ ، عام (١٤٠٩هـ / ١٩٩٠م) . ولكن للباحث عليه مأخذين :

١. حذف أشياء ، وقد كانت جديرة أن تبقى ، واستبقى الأخرى التي تستحق أن تحذف فالباحث قلما يجد من هذا التحقيق شيئاً يفيد ، ويساعده في بحثه .
٢. ادعى أنه قام بتحقيق التفسير ؛ ولكننا قلما نجد في هذا التحقيق ما يفيد الباحث ويساعده في بحثه .

إن المفسر لم يتحدث عن منهجه ولا عن مصادر تفسيره ولا عن المقاصد الأساسية التي توخاها منه ، ولكن القارئ يلاحظ أن هذا التفسير هو تفسير عالم مطلع واسع الاطلاع على الثقافة الإسلامية ولاسيما ما يتعلق باللغة العربية و التفسير بالمأثور والرأي ، والتفسير الصوفي والتفسير الكلامي ، كما أنه يأتي بالشعر ويستشهد به ؛ ولكن باللغة الفارسية في الغالب . كما أنه أحياناً يترجم العبارات باللغة التركية والفارسية وكأنه يعني بمخاطبة طائفة من القراء الأتراك والفرس^(١) .

(١) - انظر "معجم تفاسير القرآن الكريم" د/عبد الوهاب التازي سعود ، و د/محمد الكتاني ، و د/عبد القادر زمامة ، والأستاذ فاضل عبد النبي ص: ١٧٥ - ١٧٦ ؛ منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

المطلب الثاني - منهج روح البيان العام

يظهر للباحث بأن تفسير "روح البيان" يعد من التفاسير الجامعة بين المأثور^(١)، والرأي^(٢)، والإشارة^(٣). وأن للمفسر - كغيره من المفسرين - قواعد بنى عليها منهجه في تفسيره وأهدافاً سعى لأجلها^(٤). وأما القواعد فهي التالية :

١ - أن الشيخ إسماعيل حقي - رحمه الله - لا يترك آية إلا ويفسرها ، حيث يعني بتوضيح مفرداتها ويعلل سبب استخدامها فيها ، كما أنه يحفظ الأمانة العلمية باعتماده على القواميس والكتب المعتمدة فيه^(٥).

٢ - أنه يزيل التعارض الموهوم^(٦) بين الآي أحياناً بالتصريح^(٧)، وأحياناً بالتلميح^(٨).

٣ - أن حقي - رحمه الله - مع اهتمامه البالغ باللغة ؛ لكنه يتعد عن المطولات^(٩) التي تخرج التفسير عن الأهداف التي يسعى لأجلها المفسر ، والتي لأجلها نزل القرآن .

(١) - وقد مر ذكره .

(٢) - وقد سبق بيانه .

(٣) - سيأتي تفصيله إن شاء الله .

(٤) - انظر زميلي إيريزال إلياس : منهج الشيخ إسماعيل حقي في تفسيره "روح البيان" ص ٢٢ وما بعدها ، وهو بحث

تكلمي لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلومه ، في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد - باكستان سنة ٢٠٠٠ م ، والبحث موجود غير مطبوع في المكتبة المركزية بالجامعة ، في قسم البحوث والرسائل الجامعية .

(٥) - انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير "روح البيان" ص ١ / ٢٩٢ ، سورة البقرة : ١٨٥ و ١٩١ / ٢ ، سورة

النساء : ٢٥ ، و ٧ / ٣٠ ، سورة الروم : ٣٠ .

(٦) - لقد نفى علماء المسلمين وقوع الاختلاف والتناقض بين الآيات في القرآن الكريم ، منهم الإمام بدرالدين الزركشي

في كتابه " البرهان في علوم القرآن " النوع الخامس والثلاثون ٢ / ١٧٦ وما بعدها ، والإمام السيوطي في " الإتيان في

علوم القرآن " النوع الثامن والأربعون ٢ / ٥٧ وما بعدها حيث قال : والمراد به ما يوهم من التعارض بين الآيات ،

وكلامه تعالى منسزه عن ذلك .

(٧) - انظر على سبيل المثال لا الحصر روح البيان ص ٣ / ١٥٩ . سورة الأعراف : ٣٧ .

(٨) - انظر تفسير "روح البيان" ٦ / ٤٦ حين يفسر قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ سورة الحج :

٤٧ و ﴿تَفْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ سورة المعارج : ٤ .

(٩) - انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير "روح البيان" ١ / ٢٤٣ ، سورة البقرة : ١٣٨ و ٩ / ٢٤٧ ، سورة النجم :

٣٩ ، و ١٠ / ٣٨١ ، وسورة الانشقاق : ٢١ .

وكذلك القارئ يجد أهدافا سامية يهدف إليها المفسر في هذا التفسير ؛ ومن أبرزها ما يلي :

١ - تقديم صورة روحية لمعاني الآيات ، وذلك بتقديم ما تتضمن الآية من المعاني المتعلقة بتربية الإيمان وتقويته في النفوس^(١) .

٢ - لفت النظر إلى آيات الله من الأنفس والآفاق ، وذلك هو إعطاء القارئ زاداً ، ليتقوى به إيمانه في توحيد الله وإثبات قدرته وعظمته^(٢) .

٣- الرد على العقائد المنحرفة من الفلاسفة، والشيعية، وعلى كل عقيدة تخالف الحق^(٣) .
وأما منهج حقي في تفسيره بالمأثور فهو كالاتي :

أولاً - تفسيره القرآن بالقرآن :

(١) - تفسيره للألفاظ القرآنية الواردة في الآية بآية أخرى^(٤) .

(٢) - تفسيره للآية بنظير لها^(٥) .

(٣) - تخصيصه^(٦) للعام أو تقييده^(٧) للمطلق^(٨) .

(١) - انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٣٢٢/٨ ، سورة الشورى: ٣١ و ٥٨/١٠ ، وسورة التحريم: ٦ .

(٢) - انظر تفسير روح البيان ١١٢ / ٧ ، سورة السجدة : ٩ و ٨ / ٢٨١ - ٢٨٣ ، سورة فصلت : ٥٣ و ٧ / ٧١ - ٧٢ ، سورة لقمان : ١٠ .

(٣) - انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٨ / ٦ - ٩ ، سورة الحج : ٧ و ٨ / ٧١ سورة الزمر: ٣ و ١٠ / ٢٤٩ ، سورة القيامة : ٣ - ٤ ، ١٦ - ١٧ ، وسورة العنكبوت ٤٨ .

(٤) - انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٢٤/١ . سورة الفاتحة : ٧ و ٥/٧٣ ، سورة النحل: ٩١ وسورة الفتح: ١٠ ، ٥ / ٧٣ .

(٥) - انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٨٧ / ٨ - ٨٨ ، سورة الفرقان : ٦٧ و ٦ / ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وسورة الإسراء: ٢٩ ، ١/٣٣٦ ، سورة البقرة: ٢٣٤ و ٣ / ٧٩ ، سورة الانعام: ١٠٣ ، ٢ / ٣٤٠ ، سورة المائدة: ٣ .

(٦) - التخصص هو "صرف العام عن عمومته وإزادة بعض ما ينطوي تحته من أفراد" "تفسير النصوص في الفقه الإسلامي" : الدكتور محمد أديب صالح ٧٨/٢ ، ط : ٤ سنة ١٩٩٣ م ، المكتب الإسلامي بيروت - لبنان .

(٧) - المقيد هو اللفظ الذي يدل على الماهية بقيد يقلل من شيعه . انظر تفسير النصوص ١٨٩ / ٢ .

(٨) - المطلق هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه . انظر الإحكام في أصول الأحكام : للإمام سيف الدين أبي الحسن علي الآمدي ٣ / ٣ ، (بدون تاريخ) طبع في دار الحديث القاهرة . مثال ذلك : سورة المائدة ، الآية : ٣ ،

روح البيان ٣٤٠/٢ .

ثانياً — تفسيره القرآن بالحديث

وأما منهجه في ذلك فهو كما يلي :

- (١) - تفسير الكلمة القرآنية بالحديث النبوي - صلى الله عليه وسلم - (١).
- (٢) - إيضاح الآية بالحديث الشريف (٢) .
- (٣) - الاستدلال بالحديث في توضيح معاني الحروف (٣) .

ثالثاً — تفسيره القرآن بأقوال الصحابة

- (١) - إيضاح معاني الكلمة القرآنية (٤) .
- (٢) - الاستدلال بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لما فسر من الآية (٥).
- (٣) - في إيراده لبعض القصص الواردة عن الصحابة في تفسير الآية (٦).

رابعاً — منهجه في تفسير القرآن بأقوال التابعين :

- (١) تفسير الآية بأقوال التابعين (٧) .
- (٢) في مجال القصص والأخبار في توضيح معنى الآية (٨) .

(١) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٥٢٤/١٠ سورة الكوثر: ١، و ٣٦٤/٣ سورة الأنفال: ٦٠ .
(٢) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٣٩٤/١، سورة البقرة: ٢٥٣ و ٢١٧/٢ سورة آل عمران: ١٦٠ .
(٣) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٢٨٤/١، سورة البقرة: ١٧٨ و ١٧/١٠ سورة التغابن: ١٤ .
(٤) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٥٤٧/٣-٥٤٨ ، سورة البقرة: ٢٢٠ و ٣١٨/١٠ سورة النازعات: ١٤ .
(٥) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ١٤٧/٥، سورة الإسراء: ٢٤ و ٣٠٢/١٠ سورة النبا: ٢٣ .
(٦) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٣٦ / ٢ سورة آل عمران: ٤٧ .
(٧) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٣١٧/١٠ ، سورة النازعات: ١٠ و ١٧٦/٦ سورة النور: ٥٨ .
(٨) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٢٦٧/٦ سورة الشعراء: ١٨ و ٣٦/٢ سورة آل عمران: ٤٧ .

٣) الاستشهاد بأقوال التابعين لما فسر من الآية (١) .

وأما منهج حقي في التفسير بالدراية ؛

فيتلخص في النقاط التالية :

(١) — توسع في ذكر قصص الأمم السابقة (٢) . والروايات الإسرائيلية ولم ينبّه عليها إلا في قلة نادرة (٣) .

(٢) — سلك في قضايا العقيدة مسلك الخلف يؤولون الأسماء والصفات ، لأن الإثبات في نظرهم يستلزم التشبيه بالمخلوق وهو محال على الله (٤) .

(٣) — عالج قضايا النبوات ودفع عن عصمة الأنبياء ، وأنهم معصومون من الصغائر والكبائر (٥) .

(٤) — تطرق إلى معالجة المسائل التي تتعلق بالسمعيات (٦) .

(٥) — يختصر في المسائل الفقهية ملتزماً بمذهب الأحناف ، كما يشير إلى آراء الفقهاء الثلاثة الأخرى ، متعرضاً لحكم تشريعية للأحكام (٧) .

(١) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ١١/٢ ، سورة آل عمران : ١٧ و ٤ / ٢٩ سورة يونس : ٢١ .

(٢) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ١١١/١ ، سورة البقرة : ٣٦ .

(٣) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٩ / ١٢٠ ، سورة ق : ١ و ١ / ٥٤٣ — ٥٤٤ سورة البقرة :

٢٤٨ .

(٤) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٥ / ٤٣١ ، سورة طه : ٥ و ٩ / ٣٢١ — ٣٢٢ سورة القمر : ١٤ .

(٥) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٦ / ٤٨ — ٤٩ ، سورة الحج : ٥٢ و ٥ / ٥٢٠ — ٥٢١ ، سورة

طه : ١٢١

(٦) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٧ / ٣١٣ ، سورة السجدة : ١١ ، و ٥ / ٣٦ — ٣٧ سورة

النحل : ٣٢ ، و ٣ / ١٧٧ سورة الأعراف : ٩ .

(٧) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ١ / ٣٥ ، سورة البقرة : ٣ ، و ٢ / ٢٠٣ ، سورة النساء : ٦ .

(٦) — تعرض حقي - رحمه الله - لأبرز المباحث التي تتعلق بعلوم القرآن ؛ وهي:
المكي والمدني^(١)، وأسباب النزول^(٢) . والقراءات^(٣)، والناسخ والمنسوخ^(٤)،
ومبهمات القرآن^(٥) .

وأما الجانب الإشاري في هذا التفسير

فهو هذا البحث الذي أسعى في صدد كتابته إن شاء الله .

(١) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٤٧١/٢ ، سورة المائدة : ٣ و ٤/١٢٨ ، سورة هود : ٥ و ٣/٥٢١ ، سورة التوبة : ٢٨ .

(٢) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٢٠٧/٣ ، سورة الأعراف : ٤٣ ، و ١/٥١١ - ٥١٢ ، سورة البقرة : ٢٦٢ و ١٠٠/٢ - ١٠١ ، سورة آل عمران : ١١٣ ، و ١٠/١١٣ سورة ن : ١٣ .

(٣) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير "روح البيان" ٣٣٦/١ ، سورة البقرة : ٢٣٤ و ٤/٢٢٦ ، سورة يوسف : ١٨ .

(٤) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير روح البيان ٢٠١/١ ، سورة البقرة : ١٠٦ و ١/٣٦٦ - ٣٦٧ ، سورة البقرة : ٢٣٤ و ٣/٣٧١ ، سورة الأنفال : ٦٥ و ٦/١١٧ ، سورة النور : ٣ و ٦/١١٤ ، سورة النور : ٢ .

(٥) — انظر على سبيل المثال لا الحصر تفسير "روح البيان" ٤١٠/١ ، سورة البقرة : ٢٥٨ و ٥/٢٣٣ ، سورة الكهف : ٢٢ و ٤/٢٥ ، سورة هود : ٢٥ .

الباب الثاني

منهج إسماعيل حقي في التفسير الإشاري ؛ وفيه ثلاثة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول - التفسير الإشاري عند إسماعيل حقي ؛ وفيه تمهيد ومبحثان

الفصل الثاني - موقف إسماعيل حقي من المنهج العملي الصوفي في تفسيره ؛ وفيه أربعة
مباحث

الفصل الثالث - موقف إسماعيل حقي من بعض القضايا الصوفية الهامة الأخرى ؛ وفيه
المباحث الستة التالية

الفصل الرابع - تقويم "الجانب الإشاري في تفسير روح البيان" لإسماعيل حقي ؛
ويحتوي على ثلاثة مباحث

الفصل الأول

التفسير الإشاري عند إسماعيل حقي ؛ وفيه تمهيد ومبحثان :

التمهيد : تعريف إسماعيل حقي للتفسير الإشاري

المبحث الأول - مسائل لم يلتزم فيها بضوابط قبول التفسير الإشاري

المبحث الثاني : مسائل التزام فيها بضوابط قبول التفسير الإشاري

الفصل الأول - التفسير الإشاري عند إسماعيل حقي ؛ وفيه تمهيد ومبحثان :

وقد تحدثت في الباب الأول عن شروط قبول التفسير الإشاري ؛ وأهمها ما يلي :

(١) - ألا تنافي ما يظهر من معنى النظم الكريم .

(٢) - ألا يُدعى أنه المراد وحده دون الظاهر .

(٣) - ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي .

وأحاول - إن شاء الله - أن أقوم في هذا الفصل بدراسة تطبيقية لمدى توافر هذه الشروط في تفسير إسماعيل حقي (عليه الرحمة) ؛ مع العلم بأن الفصل ينقسم إلى تمهيد ومبحثين :

التمهيد : تعريف إسماعيل حقي للتفسير الإشاري :

يعرف حقي التفسير الإشاري عند تعرضه لقوله تعالى : ﴿وَذُرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ

وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾^(١)؛ قائلاً : "اعلم

أن أهل الهوى على أنواع فالمعتزلة والشيعة ونحوهما من أهل القبلة أهل هوى ؛ لأنهم يخالفون أهل السنة والجماعة بتأويل الكتاب والسنة على حسب هواهم ، فيضلون الناس بهواهم كما يضل الكفار وأهل الشرك وأما أخذ الإشارات من الآيات والأحاديث على وجه يطابق الشرع ، فذلك ليس بهوى ؛ بل هو عرفان محض"^(٢).

ويدافع حقي طوال تفسيره "روح البيان" عن هذه الإشارات ويرد على من يخالفها . فعند التأمل في التعريف الذي ذكره الشيخ إسماعيل حقي نلاحظ أنه أشار إلى الشرط الأول لقبول التفسير الإشاري وأما الشروط الباقية فقد أهملها . وحتى عند تطبيقه لهذا الشرط في تفسيره الإشاري لم يسر على منهجه بل أغفل هذا الشرط أيضاً ، كأنه يريد أن يفتح باب التفسير الإشاري لكل من هبَّ ودبَّ .

(١) - سورة الأنعام ، الآية : ١٢٠ .

(٢) - روح البيان ١٢٠/٣ .

المبحث الأول

مسائل لم يلتزم فيها بضوابط قبول التفسير الإشاري ؛ وفيه هذه المطالب :

المطلب الأول - تحميله الآيات القرآنية لما لا تحمله .

المطلب الثاني - مسألة الظاهر والباطن .

المطلب الثالث - مسألة الشريعة والطريقة والحقيقة .

المطلب الرابع - مسألة تقسيم المؤمنين إلى عوام ، وخواص ، وخواص الخواص .

المطلب الخامس - معالجته لفواتح السور .

المطلب السادس - إشاراته الخاصة لما يتعلق بالقصص القرآني .

المطلب السابع - قدحه في العلماء . "أهل الظاهر" .

المطلب الثامن - استخدامه للمصطلحات الأجنبية الدخيلة ذات البعد الديني .

المطلب التاسع - التأثيرات الفلسفية المنحرفة .

المطلب العاشر - توجيه إسماعيل حقي لبعض الروايات الإسرائيلية توجيهها إشاريا

المبحث الأول

مسائل لم يلتزم فيها بضوابط قبول التفسير الإشاري ؛ وفيه هذه المطالب :

المطلب الأول - تحميله الآيات القرآنية لما لا تحتمله .

من الملاحظات التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أن إسماعيل حقي في كثير من الأحيان يُحمل النص القرآني ما لا يحتمله وخاصة بعض المسائل التي تعارف عليها الصوفية وجعلوها كمعالم للسالك يسيرها إلى الله تعالى ولهذا قال نيكلسون "لا يمكن أن يكون للقرآن أساسا لأي مذهب صوفي، ومع ذلك استطاع الصوفية متبعين في ذلك الشيعة - أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلا يلائم أغراضهم ، على أن كل كلمة في القرآن ، تخفي وراءها معنى باطنا لا يكشفه الله إلا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم في أوقات وجدهم ، ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف سهل على الصوفية بعد أن سلموا بهذا المبدأ أن يجدوا دليلاً من القرآن لكل قول من أقوالهم ونظرية من نظرياتهم أيا كانت ، وأن يقولوا إن التصوف ليس في الحقيقة إلا العلم الباطن الذي ورثه علي ابن أبي طالب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ويلزم من هذا المبدأ أيضاً "مبدأ التأويل" أن تأويل الصوفية لتعاليم الإسلام قد يأتي على أنحاء وأشكال لا حصر لعددتها ، وربما أدى إلى تناقض في العبادات والمسائل العملية" (١).

وقد سلك قديما صاحب لطائف الإشارات الشيخ القشيري المسلك نفسه حتى قال فيه الدكتور إبراهيم بسيوني "... فأنت خلال قراءة "اللطائف" تشعر أن كل صغيرة وكبيرة في علوم الصوفية لها أصل من القرآن ، ويتبدل ذلك بصفة خاصة حيثما ورد المصطلح الصوفي صريحا في النص القرآني كالذكر والتوكل والرضا ، والولي

(١) - في التصوف الإسلامي وتاريخه لينكلسون ترجمة عربية لأبي العلاء عفيفي ٧٦ - ٧٧ .

والولاية والحق والظاهر والباطن ، والقبض والبسط ... الخ فلا تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم" (١).

وبعيداً عما تعارف عليه الصوفية من أفكار ومقولات اجتهادية يكتنفها الخطأ والصواب ، فما دامت اجتهادات بشرية غير معصومة فكان الأولى لإسماعيل حقي عدم تحميل نصوص القرآن الكريم ما لا تحتمله ، والجانب الذي أطب الحديث فيه هو المعرفة وخاصة "العلم اللدني" وهذه بعض النظرات حول هذه المسألة :

نقل الإمام الغزالي تعريفاً لعلم الباطن في إحياء علوم الدين "سئل بعض العلماء عن علم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه ونقل عن أحد الزهاد ليس العالم الذي يحفظ من كتاب ، فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً ، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه ، أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس وهذا هو العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٢) . مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنيا ، بل اللدني الذي يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج" (٣) اهـ .

ويعرفه الغزالي بقوله "هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيتته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة ، كان يسمع من قبل أسمائها ، فيتوهم لها معاني مجملة غير متّضحة فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله ، وبحكمة خلق الدنيا والآخرة" (٤) .

وذهب كثير من المتصوفة أن الله سبحانه وتعالى يمن به على من علم صدق نيته وصفاء قلبه من هو اجس حب الدنيا وخواطر اتباع طرق الغواية والضلال وفي هذا يقول الغزالي "القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة ، أو في لفظ منظوم

(١) - مقدمة لطائف الإشارات ٦ .

(٢) - سورة الكهف ، الآية ٦٥ .

(٣) - إحياء علوم الدين ١٣٨/٢ .

(٤) - نفس المصدر ٣٤/١ .

يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في يقظة ، وبالرؤيا إذا كان في المنام ،
وذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" (١).

ومما يجب علمه أن هذه المعرفة إذا ناقضت النصوص القطعية في كتاب الله تعالى
وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فالأصل رفضها رفضاً تاماً وفي هذا يقول ابن
القيم: "ومن كيده (الشيطان) أنه يحسن إلى أرباب التحلي والزهد والريضة العمل
بهاجسهم وواقعهم ، دون تحكيم أمر الشارع ، ويقولون : القلب إذا كان محفوظاً مع
الله كانت هواجسه وخواتره معصومة من الخطأ ، وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم .
فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع : رحمانية ، وشيطانية ونفسانية ، كالرؤيا فلو بلغ
العبد من الزهد والعبادة ما بلغ ، فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت والشيطان
يجري منه مجرى الدم ، والعصمة إنما هي للرسول - صلوات الله وسلامه عليهم - الذين
هم وسائط بين الله عزوجل وبين خلقه ، في تبليغ أمره ونهيه ووعدته ووعدته ، ومن
عدهم يصيب ويخطيء ، وليس بحجة على الخلق .

قد كان سيد المحدثين الملهمين : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقول الشيء
فيرده عليه من هو دونه ، فيتبين له الخطأ ، فيرجع عنه ، وكان يعرض هواجسه
وخواتره على الكتاب والسنة ، ولا يلتفت إليها ولا يحكم بها ولا يعمل بها (٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب ، أو
ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة ، فإنما يتبع ظناً
لا يغني من الحق شيئاً" (٣).

(١) - نفس المصدر ٣٤/١ .

(٢) - ابن القيم : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ص ١٤٣ ؛ انظر سعيد حوى ، تربيتنا الروحية . وقد ناقشت مسألة
الكشف في المبحث السابق فليرجع إليه من أراد الزيادة .

(٣) - الفرقان بين الحق والباطل ص: ٩٦ .

وعلى هذا الأساس ، فإن هذه المعرفة أو "العلم اللدني" لا يمكن أن تثبت بها عقيدة ، أو يزداد بها حكم شرعي ، أو يلغى ، ذلك أن الدين قد كُمل قبل وقاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقد أشار إلى هذا الأستاذ سعيد حوى ، فقال : "إن الكشف ممكن ، وهو مما يمكن أن يصادفه السالك إلى الله ، وهو من مظاهر فضل الله وابتلائه ، ولكننا جميعاً مقيدون بالنصوص ، ولا نتعبد به الأمة ، ولا تكلف الأمة بتصديق أصحابه ، لكن لا حرج على من صدق العدول فيه ، إذا كان تصديقاً لنصوص الكتاب والسنة ، وإنما قلنا بأن الأمة لا تكلف بتصديق أصحابه ، حتى ولو كانوا صادقين ، لأن قلوبهم ليست معصومة في أمر الغيب ، واحتمال التوهم قائم ، ولأن الكشف قد يكون امتحاناً لإنسان ، أو للناس فيزل به صاحبه أو غيره . بهذه القيود كلها ندرك محل الكشف في شريعة الله عزوجل ، ونستطيع على ضوءها أن نقرأ في كتب الصوفية ، وإذا ما صادفنا كلام عن كشف عرفنا حدود الأخذ والرد "إلى أن يقول" : فالمكاشف لا تثبت بكشفه حجة في حق الغير من الناحية الشرعية ، وحتى كشفه في حق نفسه يبقى محل تهمة ، لأن يخشى أن يكون فتنة له من الله عزوجل" (١).

أما الاعتماد المطلق على هذه المعارف والفتوحات ، دون تقييدها بما جاءت به النصوص الشرعية ، واعتبارها المصدر الأساسي للتشريع ، فهو خطر عظيم لو يفتح بابه على هذه الأمة ليدخل منه كثير من العابثين والمضللين الذين يسعون إلى هدم هذا الدين وتقويض أساسه المتين ، وقد تحدث عن هذا الجانب الأستاذ عبد الرحمن الدمشقية ، فقال : "ولهذا ؛ فإنه قد فتح بالكشف باباً دخل منه كثير من العابثين بهذه الأمة ، ومن الأئمة المضللين يتكلمون في فنون الكشف بما يتعارض والأدلة الشرعية . وبقي هؤلاء العابثون يتدفقون من هذا الباب الذي بقي مفتوحاً إلى يومنا هذا .

(١) - سعيد حوى : تربيته الروحية ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

فصارت العلوم الشرعية عند هؤلاء من المرتبة التي تلي مرتبة الكشف ، وصار حاملوا هذه العلوم الشرعية عند هؤلاء من أهل الظاهر، الذين حتم الله على قلوبهم عن ملاحظة هذا العلم الباطن ، وعن التعمق بأسرار الكشف" (١).

المطلب الثاني - مسألة الظاهر والباطن .

يحمل الشيخ حقي بعض الآيات القرآنية ما لا تحتمله، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾ (٢) قال "أي علم الظاهر أو الجامع له ولعلم الباطن" والحكمة "علم الباطن أو باطن الباطن" وعند قوله تعالى ﴿وَأَن آحْكُم بِتَنبُؤِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (٣) قال: "القرآن الجامع للظاهر والباطن" ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله" فتقصر على الظاهر البحث أو الباطن المحض وتنفي الآخر (٤) وعند قوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ﴾ (٥) الجامع للظاهر والباطن المتضمن لما سئلتم عنه" (٦).

كما بين في فقرة أخرى كيفية الوصول إليه قائلاً "وقد ورد أن للقرآن ظاهرا وباطنا ولا يكاد يصل الشخص إلى باطنه إلا بتطهير باطنه كما يرم إليه قوله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧) (٨).

(١) - أبو حامد الغزالي والتصوف : عبد الرحمن الدمشقية ١٩٦ .

(٢) - سورة النساء ، آية : ٥٤ .

(٣) - سورة المائدة ، الآية ٤٩ .

(٤) - روح البيان ١٧٨/٩ .

(٥) - سورة المائدة الآية : ١٠١ .

(٦) - روح البيان ٧٣/٧ .

(٧) - سورة الواقعة آية ٧٩ .

(٨) - روح البيان ١٦٠/٢ .

المطلب الثالث - مسألة الشريعة والطريقة والحقيقة .

وتبعاً للنقطة الماضية فإن إسماعيل حقي أشار إلى أن منكر الحقيقة والشريعة كافر وذلك عند قوله تعالى ﴿ إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾^(١) لأن إنكار الحقيقة كفر كإنكار الشريعة^(٢) كما ذكر أن المجاهدة وتركية النفوس تكون وفق الشريعة وقانون الطريقة^(٣).

وعند قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِن حَوْلِكَ ﴾^(٤) ذكر عدة إشارات منها لو كنت مدققاً عليهم أحكام الحقائق لضافت صدورهم ولم يتحملوا أثقال حقيقة الآداب في الطريق ولكن ساحتهم بالشريعة والرخص^(٥). ويقرر أن منكر الحقائق سيكون يوم القيامة من الخاسرين وذلك عند قوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾^(٦) قال : "بأن ينكر الشرائع والحقائق ويمتنع من قبولها "فقد حبط عمله" بانكاره الشرائع ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾ بانكاره الحقائق ، والظاهر عدم التوزيع" ^(٧).

والغريب في الأمر أنه عند قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنَيْهِ ﴾^(٨) قال: يعتمد في سيره على الباطن وهم أهل الجذبة المغمورون في بحار المحبة ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ يعتمد في سيره الشريعة والطريقة لكن فيما

(١) - سورة آل عمران ، الآية ١٠٠ .

(٢) - انظر روح البيان ٣٢/٤ .

(٣) - انظر نفس المصدر ٨٠/٤ .

(٤) - سورة آل عمران ، آية

(٥) - انظر روح البيان ١٣١/٤ .

(٦) - سورة المائدة ، آية : ٥ .

(٧) - روح البيان ٦٨/٦ .

(٨) - سورة النور ، آية ٤٥ .

يتعلق به خاصة منهما وهم صنف من الكاملين سكنوا زوايا الخمول ولم يخالطوا الناس ولم يشتغلوا بالإرشاد" (١).

وعند قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿أُولَئِكَ مُجَرَّزُونَ الْفُرْقَةَ يَمَّا صَبَرُوا﴾ (٢)
قال: "البداية على تكاليف الشريعة وفي الوسط على التأدب بآداب الطريقة وفي النهاية على ما تقتضيه الحقيقة" (٣).

المطلب الرابع - مسألة تقسيم المؤمنين إلى عوام، وخواص، وخواص
الخواص:

يقسم إسماعيل حقي المؤمنين إلى ثلاثة أقسام ، عوام وخواص وخواص الخواص
متابعا في ذلك جمهور أهل التصوف فمثلا عند قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ﴾ (٤) ذكر أن إقام الصلاة بحضور القلب والإعراض عن السوى هي صلاة
خواص الخواص ، وأما صلاة الخواص فبفني الخطرات الردية والإرادات الدنيوية ولا
يضر فيها طلب الجنة ونحوه ، وأما صلاة العوام فما يفعله أكثر الناس ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يبذل الوجود للملك المعبود لنيل المقصود وهي
زكاة الأخص ، وزكاة الخاصة يبذل المال كله لتصفية قلوبهم عن صداء محبة الدنيا ،
وزكاة العامة يبذل القدر المعروف من المال المعلوم على الوجه المشروع المشهور لتزكية
نفوسهم عن نجاسة البخل (٥).

(١) - روح البيان ٢٢٩/٨ .

(٢) - سورة الفرقان ، آية : ٧٥ .

(٣) - روح البيان ٥٦/٩ .

(٤) - سورة لقمان ، آية : ٤ .

(٥) - انظر روح البيان ١١٣/٢ .

وعند قوله تعالى ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّعْجَلٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكَيرٍ ﴾^(١) قال : "الإستجابة للعوام بالوفاء بعهده تعالى والقيام بحقه سبحانه والرجوع عن مخالفته جل شأنه إلى موافقته عز وجل ، وللخواص بالإستسلام للأحكام الأزلية والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها ، ولأخص الخواص من أهل المحبة بصدق الطلب بالإعراض عن الدارين والتوجه لحضرة الجلال ببذل الوجود في نيل الوصول والوصول"^(٢). وذكر الشيخ حقي أن هناك قيامة للعوام وأخرى للخواص وذلك عند قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ﴾^(٣) هذه قيامة العوام المؤجلة ويشير إلى قيامة الخواص المعجلة لهم فقد قيل إن لهم في كل نفس قيامة من العتاب والعقاب والثواب والبعاد والإقتراب وما لم يكن في الحساب^(٤).

المطلب الخامس - معالجته لفواتح السور .

فواتح السور هي حروف مقطعة ، من كلام الله تبارك وتعالى جعلها مفتاحاً لبعض سور كتابه الكريم : وقد بلغ مجموع هذه الحروف - بحذف المكرر منها - أربعة عشر حرفاً .

وقد تابع حقي الصوفية في إشاراتهم حيث عبّر عن آراء كان الأولى الإعراض عنها ومما جاء في إشارته عند بداية سورة يونس قال ﴿الر﴾^(٥) إشارة إلى الذات هو أول الوجود و "ل" إشارة إلى العقل المسمى جبريل - عليه السلام - وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ويفيض إلى المنتهى ، و "ر" إشارة إلى الرحمة التي هي

(١) - سورة الشورى ، آية : ٤٧ .

(٢) - روح البيان ٥/٣٦١ .

(٣) - سورة غافر ، آية : ١٨ .

(٤) - انظر : روح البيان ٤/١٩٣ .

(٥) - سورة يونس الآية ١ .

الذات المحمدية وهي في الحقيقة أول ووسط وآخر لكن الإعتبارات مختلفة ، وكان ذلك قسم منه تعالى بالحقيقة المحمدية على أن ما تضمنته السورة أو القرآن من آيات الكتاب المتقن وقيل : المعنى ما أشير إليه بهذه الأحرف أركان كتاب الكل ذي الحكمة أو المحكم ومعظم تفاصيله" (١). وفي سورة "يس" ذكر طامات كان جدير به عدم الخوض فيها وذلك بقوله تعالى: ﴿يس﴾ إشارة إلى سيادته عليه الصلاة والسلام على جميع المخلوقات فالسيد المتولى للسواد أي الجماعة الكثيرة وهي ها هنا جميع الخلق فكأنه قيل: يا سيد الخلق وتوليته عليه الصلاة والسلام عليهم لأنه الواسطة العظمى في الإفاضة والإمداد (٢)، وعند سورة غافر ذكر "حم" إشارة إلى ما أفيض على قلب محمد -صلى الله عليه وسلم- من الرحمن فإن الحاء والميم من وسط الاسمين الكريمين، وفي ذلك أيضاً سر لا يجوز كشفه ولما صدرت السورة بما أشار إلى الرحمة وأنها وصف المدعو إليه والداعي ذكر بعد صفات المدعو إليه وهو الله عزوجل ما يدل على عظم الرحمة وسبقها ، وفي ذلك من بشارة المدعو ما فيه (٣).

وهذا التأويل لم يقل به حقي فقط بل هو مذهب طائفة من الصوفية منهم ابن عربي الذي يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿المر﴾ أشار بهذه الحروف إلى كل الوجود حيث هو كل لأن "أ" إشارة إلى ذات الله الذي هو أول الوجود و "ل" إلى العقل الفعال المسمي جبريل ، وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ، ويفيض إلى المنتهى ، و "م" إلى محمد الذي هو آخر الوجود تتم به دائرته ، وتتصل بأولها" (٤).

ويذهب السلمي إلى القول في إشاراته لقوله تعالى ﴿المر﴾ الألف ألف الوجدانية، واللام لام العطف ، والميم ميم الملك ، معناه من وجدنا على الحقيقة ، باسقاط العلائق

(١) - روح البيان ٣٩٠/٥ .

(٢) - انظر نفس المرجع ١٩٣/٨ .

(٣) - انظر نفس المرجع ١٩٣/٨ .

(٤) - تفسير ابن عربي ١٥/١ .

والأغراض تلطفت له في معناه فأخرجته من رق العبودية إلى الملك الأعلى^(١) وأما الإمام القشيري فَحَدَّثَ قَائِلًا : "فالألف من اسم "الله" واللام يدل على "اللطيف" والميم يدل على اسمه "المجيد" و "الملك" وقيل الألف تدل على اسم "الله" واللام تدل على اسم "جبريل" والميم تدل على اسم "محمد - صلى الله عليه وسلم -" ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم -"^(٢).

إن كتاب الله تعالى يسير فهمه ، وسهل تدبره ولهذا كان الأولى لإسماعيل حقي عدم تأويل فواتح السور هذا التأويل البعيد بل الأجدر به يسلك سبيل الصحابة رضوان الله عليهم حيث يذكر الإمام القرطبي "أنه اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن، والله في كل كتاب من كتبه سر ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، لكن تؤمن بها نقرأها كما جاءت ، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما"^(٣).

يدعم الإمام القاسمي رحمه الله ما ذهب إليه القرطبي وذلك بقوله "ينقلون عن ابن عباس أن ﴿التم﴾ أن ألف الله ، ولام جبريل ، وميم محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهذا إن صح في النقل ، فمشكل ، لأن هذا النمط من التصرف لم يثبت في كلام العرب هكذا مطلقا، وإنما أتى مثله إذا دل عليه الدليل اللفظي أو الحالي كما قال "قلت لها قفي فقالت قاف" وقال "قالوا جميعا كلهم بلى فا" وقال : "لا أريد الشهر إلا أن تا" والقول في ﴿التم﴾ ليس هكذا ، وأيضا فلا دليل من خارج يدل عليه ، إذ لو كان له دليل لا قتضت العادة نقله ، لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعي على نقلها لو صح أنه

(١) - انظر تفسير السلمي ص ١٧ .

(٢) - لطائف الإشارات للقشيري ٥٣/١ .

(٣) - الجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١ .

مما يفسر ويقصد تفهيم معناه ، ولما لم يثبت شيء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات - "إلى أن قال" ومع إشكالاتها فقد اتخذها جمع من المنتسبين إلى العلم ، بل إلى الإطلاع والكشف على حقائق الأمور ، حججاً في دعاوي ادعواها على القرآن ، وربما نسبوا شيئاً من ذلك إلى علي بن أبي طالب ، وزعموا أنها أصل العلوم ، ومنع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة ، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى في خطابه العرب الأمية التي لا تعرف شيئاً من ذلك ، وهو إذا سلم أنه مراد في تلك الفواتح في الجملة ، فما الدليل على أنه مراد على كل حال من تركيبها على وجوه ، وضرب بعضها ببعض" (١).

المطلب السادس - إشارات الخاصة لما يتعلق بالقصص القرآني

حسب المنهج الإشاري الذي سلكه إسماعيل حقي فقد أول القصص القرآني بتأويلات غريبة وهذه نماذج منها :

عند قوله ﴿ وَسَقَلَهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ (٢) قال: "أي عن أهل قرية الجسد وهم الروح والقلب والنفس الأمارة وتوابعها" التي كانت حاضرة البحر "أي مشرفة على شاطئء بحر البشرية" إذ يعدون في السبت "يتجاوزون حدود الله تعالى يوم يحرم عليهم تناول بعض الملاذ النفسانية والعادي من أولئك الأهل إنما هو النفس الأمارة فإنها في مواسم الطاعات والكف عن الشهوات كشهر رمضان مثلاً حريصة على تناول ما نهيت عنه والمرء حريص على ما منع "إذ تأتيهم حيتانهم" وهي الأمور التي نهوا عن تناولها "يوم سبتهم" بأن لا يتهيأ لهم ما يريدونه "كذلك نبلوهم" نعاملهم معاملة من يختبرهم "بما كانوا يفسقون" أي بسبب فسقهم المستمر طبقاً ثم قال عند قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهي القلب وأتباعه الأمة الواعظة وهي الروح

(١) - محاسن التأويل للإمام جمال الدين القاسمي ٦٩/١ دار الفكر ط ٢ .

(٢) - سورة الأعراف ، الآية : ١٦٣ - ١٦٤ .

وأتباعها ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا﴾ وهم النفس الأمارة وقواها ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على فعلهم قالوا معذرة إلى ربكم أي نعظهم معذرة إليه تعالى وذلك أنا خلقنا أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر فنريد أن نقضي ما علينا ليظهر أنا ما تغيرنا عن أوصافنا ولعلمهم يتقون لأنهم قابلون لذلك بحسب الفطرة فلا نياس من تقواهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ لغلبة الشقوة عليهم ﴿أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْتَوُونَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهم الروح والقلب وأتباعهما فإنهم كلهم نھوا عن ذلك إلا أن بعضهم مل وبعضهم لم يعمل ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد وهو عذاب حرمان قبول الفيض ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب تماديهم على الخروج عن الطاعة^(١) كما يؤول قصة امرأة عمران تأويلا عجيبا بقوله "إذ قالت امرأة عمران^(٢)" وهي النفس في أول مراتب طاعتها لعمران العقل ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ وهو غلام القلب "محررا" ليس في رق شيء من المخلوقات ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وهي نفس أيضا إلا أنها أكمل منها في المرتبة والجنس يلد الجنس ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ لعلمه أنه سيظهر من هذه الأنثى العجب العجاب، وغيره سبحانه تخفى عليه الأسرار^(٣).

وفي موضع آخر يزداد الغموض وتتسع دائرة اللبس بما نقله "أن القوي البدنية امرأة عمران الروح نذرت ما في قوتها من النفس المطمئنة فوضعت أنثى النفس فكفلها زكريا الفكر فدخل عليها زكريا مجراب الدماغ فوجد عندها رزقا من المعاني الحدسية التي انكشفت لها بصفائها فهناك دعا زكريا الفكر بتركيب تلك المعاني واستوهب ولداً مقدساً من لوث الطبيعة فسمع الله تعالى دعاءه فنادته ملائكة القوي الروحانية وهو

(١) - انظر روح البيان ١١٠/٩ .

(٢) - سورة آل عمران ، آية ٣٥ .

(٣) - انظر روح البيان ١٤٣/٣ .

قائم بتركيب المعلومات يناجي ربه باستنزال الأنوار في محراب الدماغ ﴿أَنْ أَلَّهَ يُبَيِّرُكَ بِبَحْيٍ﴾ العقل مصدقا بعيسى القلب الذي هو كلمة من الله لتقدمه عن عالم الأجرام "سيِّداً" لجميع أصناف القوي "وَحْصُوراً" عن مباشرة الطبيعة "ونبياً" بالإخبار عن المعارف والحقائق وتعليم الأخلاق ومنتظماً في سلك الصالحين وهم المحررات ومقربوا الحضرة "قال أتى يكون" ذلك "وقد بلغني" كبر منتهى الطور "وامرأتى" وهي طبيعة الروح النفسانية "عافر" بالنور المحرد فطلب لذلك علامة فقبل له علامة ذلك الإمساك عن مكالمة القوي البدنية في تحصيل مآربهم من اللذائذ "ثلاثة أيام" كل يوم عقد تام من أطوار العمر وهو عشر سنين إلا "بالإشارة الخفية ، وأمر بالذكر في هذه الأيام التي هي العشر الأولى التي هي سن التمييز أربعون سنة (١).

وأول قصة إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة بقوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخِي الْمَوْتَى﴾ (٢) "إشارة إلى طيور الباطن التي في قفص الجسم ، وهي أربعة من أطيوار الغيب ، العقل ، والقلب ، والنفس ، والروح "فصرهن إليك" أي ضمهن واذبحهن ، فاذبح طير العقل بسكين المحبة على باب الملكوت ، واذبح طير القلب بسكين الشوق على باب الجبروت ، واذبح طير النفس بسكين العشق في ميادين الفردانية ، واذبح طير الروح بسكين العجز في تيه عزة أسرار الربانية ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فاجعل العقل علة جبل العظمة حتى تتراكم عليه أنوار سلطنة الربوبية فيصير موصوفاً بها ليدركني بعد فنائه في ، واجعل القلب على جبل الكبرياء حتى ألبسه سناء قدسي فيتيه في بيداء التفكير منعوتاً بصرف نور المحبة ، واجعل النفس على جبل العزة حتى ألبسها نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيتي عليها فلا تنازعني في العبودية ولا تطلب أوصاف الربوبية ، واجعل الروح على جبل جمال الأزل حتى

(١) - نفس المرجع السابق : ١٥٣/٣ .

(٢) - سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

ألبسها نور النور وعز العز وقدس القدس لتكون منبسطة في السكر مطمئنة في الصحو، عاشقة في الانبساط راسخة في التحليات "ثم ادعهن" ونادهن بصوت سر العشق: "يأتينك سعيًا" إلى محض العبودية بجمال الأحذية "واعلم أن الله عزيز" يعزك بعرفانك هذه المعاني واطلاعتك على صفاته القديمة "حكيم" في ظهوره بغرائب التحلي لأسرار باطنك"^(١). كان الأجدر لإسماعيل حقي ألا يسرف في مثل هذه التأويلات البعيدة، لأن الأصل في القصص القرآني إرشاد الخلق لما فيه فوزهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة وذلك بالتدبر في قصص السالفين بغية الاستفادة من التجارب الماضية والاعتبار بها .

ومن أهم ثمرات دراسة القصص القرآني التعرف على السنن الربانية ، فإن الله سننا في خلقه، أرشدنا إليها وطلب منا التعامل معها قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٢) وقال ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتِ الْأُولَىٰ ۗ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۗ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾^(٤).

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - "ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولو لا القياس وإطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها . لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن"^(٥) .
"والسنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات"^(٦).

(١) - انظر روح البيان ٣/٣١ .

(٢) - آل عمران آية ١٣٧ .

(٣) - فاطر آية ٤٣ .

(٤) - غافر : ٨٥ .

(٥) - ابن تيمية : جامع الرسائل ص ٥٥ ، تحقيق : محمد رشاد سالم مطبعة المدني .

(٦) - عماد الدين خليل تفسير : التاريخ الإسلامي ص : ١٠٩ ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٥ م دار العلم للملايين .

والقرآن الكريم يوضح هذه المسألة بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١) أي أخذ الدروس والعظات والإستفادة من حوادث الأمم الماضية، وهذا هو سر تكرار القصص في القرآن الكريم كما هو الحال في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل كما قال تعالى ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَّبِيِّ مُوسَىٰ وَمِمَّا وَرَعَوْتِ بِالْحَقِّ﴾^(٢) وقال أيضا ﴿لَخُنُوقُ نَقْصِ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾^(٣).

المطلب السابع - قدحه في العلماء . "أهل الظاهر" .

يشن حقي غارات متوالية ضد الفقهاء، حيث يطلق عليهم مصطلح "أرباب الرسوم" و"أهل الظاهر" كما يشتد على العلماء المنكرين لبعض أعمال الصوفية فعند قوله تعالى ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾^(٤) قال "ففي الآية إشارة إلى سوء حال المنكرين على من تحلى بالمعارف الإلهية، ولعل منشأ ذلك زعمهم انحصر العلم فيما عندهم ولم يعلموا أن وراء علومهم علوما لا تحصى بمن الله تعالى بها على من يشاء"^(٥). وعند قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٦) قال: "يدعي المحبة ويتكلم في دقائق الأسرار ويظهر خصائص الأحوال وهو في مقام النفس الأمانة" ويشهد الله على ما في قلبه "من المعارف والإخلاص بزعمه" وهو ألد الخصام شديد الخصومة لأهل الله تعالى في نفس الأمر ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ بإلقاء الشبه على ضعفاء المريدين ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾ ويحصد بمنجل تمويهاته زرع الإيمان النابت في رياض قلوب السالكين ويقطع نسل المرشدين ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾

(١) - سورة يوسف ، الآية : ١١١ .

(٢) - سورة القصص ، الآية : ٣ .

(٣) - سورة الكهف ، الآية : ١٣ .

(٤) - يونس ، آية ٦٠ .

(٥) - روح البيان ١٧٦/٣ - ١٧٧ .

(٦) - البقرة : ٢٠٤ .

فكيف يدعى هذا الكاتب محبة الله تعالى ويرتكب ما لا يحبه" ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ حملته حمية الجاهلية على الإثم لجاجا وحبا لظهور نفسه وزعما منه أنه أعلم بالله سبحانه من ناصحه ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي يكفيه حبسه في سجن الطبيعة وظلماتها ، وهذه صفة أكثر أرباب الرسوم الذين حجبا عن إدراك الحقائق بما معهم من العلوم" (١).

ويتهمهم كذلك بأنهم لم يحصلوا من علومهم سوى العجب والحسد والحقد وذلك عند إشارته لما في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (٢) قال : "كعلماء السوء من أهل الظاهر الذين لم يحصلوا من علومهم سوى العجب والكبر والحسد والحقد وسائر الصفات الرذيلة ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ كالعارفين به الذين لا يرون لأنفسهم فعلا" (٣).

كان الأولى بحقي (رحمه الله) ألا يقحم نفسه في النزاع الدائر بين العلماء والصوفية وخاصة وأنه رجح كفة أهل التصوف بدل أن يعطى لأهل العلم حقهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان لبعض العلماء سقطات وزلات، فالأولى ألا يعمم الحكم ، ولتأمل في كتاب الله تعالى منزلة العلماء، حيث قال تعالى ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٤) وقال أيضاً: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) وقال أيضاً ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٦) ، و ﴿ إِنَّمَا نَخَشِي اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمْتُمُو ﴾ (٧) وكذلك في أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) - روح البيان ١١٥/٢ .

(٢) - النساء ٤٩ .

(٣) - روح البيان ٦٢/٨ .

(٤) - سورة طه الآية : ١١٤ .

(٥) - سورة الزمر الآية : ٩١ .

(٦) - المجادلة الآية ١١ .

(٧) - سورة فاطر الآية ٢٨ .

"من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" ^(١)، "بلغوا عني ولو آية" ^(٢)، "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة" ^(٣)، "إذا مات ابن آدم انقطع عمله، إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" ^(٤).

المطلب الثامن - استخدامه للمصطلحات الأجنبية الدخلية ذات البعد الديني.

اقتبس الصوفية كثيراً من المصطلحات الأجنبية ذات الصبغة الدينية والتي تحمل في ثناياها أبعاداً عقائدية خطيرة، وإلى هذا ذهب الدكتور عبد الرحمن بدوي، إذ اعتبر أن قضية المصطلحات التي روح لها الصوفية، واستعملوها فيما بينهم لا يشك أحد في كونها مأخوذة من المسيحية بحروفها وألفاظها ومعانيها ومدلولاتها مثل، لاهوت، جيروت، رباني، روحاني، نفساني، جثماني، شعشعاني، وحدانية، فرادنية، رهبانية، عبودية، ربوبية، ألوهية ^(٥).

والملاحظ أن إسماعيل حقي إستعمل بعض هذه المصطلحات في إشارات فمثلاً عند قوله تعالى ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ^(٦) يقول "وتوبته بالوحدة هي فناء الناسوتية في بقاء اللاهوتية" ^(٧) وعند قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ^(٨) وأما نصرته في المعنى فبافناء الناسوت في اللاهوت" ^(٩).

(١) - البخاري في كتاب العلم، ومسلم في كتاب الإمارة ج ٣، برقم ١٧٥.

(٢) - مسلم في كتاب الذكر والدعاء ٣/٣٨.

(٣) - مسلم في كتاب الوصية ج ٣، برقم ١٤.

(٤) - الترمذي ٥/٥ ٢٦٨ وقال حديث حسن غريب.

(٥) - انظر تاريخ التصوف الإسلامي للبدوي ص ٣٣٣.

(٦) - النساء : ٤٨.

(٧) - روح البيان ٢/٦٢.

(٨) - سورة محمد، آية : ٧.

(٩) - نفس المرجع ٨/٨٢ - ٨٣.

والجدير ذكره أن النصارى يقولون "أن للمسيح طبيعتين مختلفتين ، هما الطبيعة الإنسانية التي يعيش بها كما يعيش الناس، والطبيعة الإلهية التي يمتاز بها على سائر الناس، وأن القتل والصلب مثلا قد وقعا على الجزء الإنساني، لا على الجزء الإلهي ، وقد عرفت هذه الفكرة بفكرة اتحاد اللاهوت في الناسوت، أو حلول اللاهوت في الناسوت، وألح التسطورية في التركيز عليها ، وهي فرقة نصرانية ظهرت في عهد المأمون ^(١).

وفي مواطن أخرى يستعمل مصطلح المادة الهيولانية فعند قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ ^(٢) قال "وهو طين المادة الهيولانية" ^(٣) وعند قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ^(٤) نقل أن الماء إشارة إلى المادة الهيولانية ^(٥).

وعند قوله تعالى ﴿مَخْلُوقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ^(٦) ينقل : يشير إلى ظلمة الامكان وظلمة الهيولي وظلمة الصورة ^(٧) ويذهب أستاذي الدكتور حسن الشافعي إلى أن مصطلح الهيولي أجني ^(٨) ويقول الدكتور التفزازي بعد رده على بعض المستشرقين القائلين بأن كثيرا من مسائل التصوف مأخوذة من النصرانية ومع هذا لا ننكر تأثير بعض الصوفية المتفلسفين بالمسيحية ، على نحو ما نجد عند الحلاج الذي استخدم في تصوفه اصطلاحات مسيحية كالكلمة واللاهوت والناسوت وما إليها ، لكن هذا لم يظهر إلا في وقت متأخر "أواخر القرن

(١) - انظر : سارة بنت عبد المحسن : نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٣٣ .

(٢) - سورة الأنعام : الآية ٢٤ .

(٣) - روح البيان ١٠٧/٧ .

(٤) - سورة هود ، آية : ٧ .

(٥) - روح البيان ١٨/٤ .

(٦) - سورة الزمر ، آية ٦ .

(٧) - انظر روح البيان ٣٨/٨ .

(٨) - انظر أ . د . حسن الشافعي : المدخل إلى دراسة علم الكلام ص ٢٣٠ .

الثالث الهجري" بعد أن كان زهد الزهاد قد استقر في القرنين : الأول والثاني الهجريين ، وأصبح دعامة لكل تصوف لاحق ، ولذلك فإن من الإنصاف العلمي القول بأن مذاهب الصوفية في العلم ، رياضاتهم العلمية ، ترد إلى مصدر إسلامي ، إلا أنه بمرور الوقت وبمحكم إلتقاء الأمم واحتكاك الحضارات ، تسرب إليها شيء من المؤثرات المسيحية أو غير المسيحية" (١). ويعترف الدكتور طلعت غنام بالأمر نفسه قائلاً "بالإضافة إلى ما نلتقي به في ثنايا بعض النظريات الصوفية في الحب الإلهي ببعض الألفاظ والعبارات والعقائد التي هي من أصل نصراني مثل القول : باللاهوت والناسوت أو حلول الالهوت في الناسوت أي حلول الإله "اللاهوت في المسيح الإنسان الناسوت" أو حلول الأول في الثاني إذا بلغ هذا درجة معينة من الصفاء الروحي" (٢).

المطلب التاسع - التأثيرات الفلسفية المنحرفة .

يتحدث الشيخ محمد حسين الذهبي في إطار نقده لطريقة ابن عربي في التفسير قائلاً "فمثلاً يفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية ، فعند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (٣) في شأن إدريس عليه السلام نجده يقول "وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحى عالم الأفلاك وهو فلك الشمس ، وفيه مقام روحانية إدريس ، وتحت سبعة أفلاك ، وفوقه سبعة الأفلاك ، وهو الخامس عشر" (٤). فإذا عدنا إلى روح البيان لحقي ينقل بعض هذه المقولات دون أدنى نقد أو تعليق قائلاً "وقيل السماء الرابعة والتفضل عليه بذلك لما فيه من كشف بعض أسرار الملكوت أولئك الذين أنعم الله عليهم بما لا يحيط نطاق الحصر به من النعم الجليلة" (٥).

(١) - مدخل إلى التصوف الإسلامي للدكتور أبي الوفاء الغنيمي الفتازاني ص ٢٩ - ٣٠ دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة.

(٢) - أضواء على التصوف ٨٧ - ٨٨ ط عالم الكتب - القاهرة .

(٣) - سورة مريم ، آية : ٥٧ .

(٤) - التفسير والمفسرون ٢ / ٣٤٠ .

(٥) - روح البيان ٦ / ١٤٦ .

وفي موضع آخر عند قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ زَبَابًا بِرِيحٍ عَاصِفٍ وَمُنْزَلًا مِنَ السَّمَاءِ لَعَلَّ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) قال : قيل : إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما أحس منهم الكفر وعلم أنهم بعثوا من يقتله قال للحوارين : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم السماوي أي متصل بروح القدس ومتطهر من علاقة عالم الرجس فأمدكم بالفيض كي تستجاب دعوتكم الخلق بعدي ، فشبه للقوم صورة جسدانية هي مظهر عيسى روح الله تعالى بصورة حقيقة عيسى فظنوها هو فصلبوها ولم يعلموا أن الله تعالى رفعه إلى السماء الرابعة التي هي فلك الشمس ، وحكمة رفعه إلى ذلك أن روحانيته عبارة عن إسرافيل عليه الصلاة والسلام ويشاركه المسيح في سر النفخ (٢). وهذا بالضبط ما يقول به إخوان الصفا " أن نفس المؤمن بعد مفارقة جسدها تصعد إلى ملكوت السماء وتدخل في زمرة الملائكة، وتحى بروح القدس ، وتسبح في فضاء الأفلاك ، في فسحة السموات، فرحة ، مسرورة منعمة ، متلذذة ، مكرمة ، مغتبطة" (٣).

وعند قوله تعالى ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ﴾ (٤) قال "أي برأنا فإنهم عبيد بالطبع لا رأي لهم ولا ملكة وليسوا مختارين لا طريق لهم إلا التقليد والعمل لا التحقيق والعلم وإنما استبعدهم بالطلسم المفرغ من الحلي لرسوخ محبة الذهب في نفوسهم لأنها سفلية منجذبة إلى الطبيعة الجسمانية وتزين الطبيعة الذهنية وتحلى تلك الصورة النوعية فيها للتناسب الطبيعي وكان ذلك من باب مزج القوي السماوية التي هي أثر النفس الحيوانية الكلية السماوية المشار إليها بجيزوم وفرس الحياة وهي مركب جبريل عليه السلام المشار به إلى العقل الفعال بالقوي الأرضية ولذلك قال : "بصرت بما لم

(١) - سورة : آل عمران ٤ الآية ٥٥ .

(٢) - انظر روح البيان ١/١٩٢ .

(٣) - التفسير والمفسرون ٢/٤٢٢ .

(٤) - سورة طه ، آية : ٨٧ .

يصرّوا به" أي من العلم الطبيعي والرياضي الذين يتنى عليهما علم الطلسمات والسيماء" (١).

المطلب العاشر - توجيه إسماعيل حقي لبعض الروايات الإسرائيلية توجيهًا إشاريًا تمهيد :

يجدر بنا قبل أن نستعرض كيفية توجيه إسماعيل حقي للروايات الإسرائيلية توجيهًا إشاريًا ، نريد أن نوضح المراد من "الإسرائيليات" . وكيف تسربت إلى كتب التفسير ثم أقسام هذه الإسرائيليات من حيث مطابقتها لما في شريعتنا .

❖ مدلول الإسرائيليات

إن لفظة "إسرائيليات" جمع ، مفردة : إسرائيلية . ويقصد بها : القصة ، أو الأسطورة التي تُروى عن مصدر إسرائيلي ، والنسبة في لفظ "إسرائيليات" إلى نبي الله إسرائيل ، وهو يعقوب - عليه السلام - بن نبي الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم السلام (٢).

والحقيقة أن مدلول لفظ الإسرائيليات لم يقتصر على تلك الأحداث أو القصص التي يكون مصدرها بني إسرائيل "اليهود" ، وإنما عمّ كل ما تطرّق إلى التفسير، أو الحديث من أساطير ، وقصص قديمة منسوبة روايتها إلى مصدر يهودي ، أو نصراني ، أو إلى أي مصدر آخر ، وإنما عمّ العلماء مدلول الإسرائيليات ، وأدخلوا فيه ما لا يدل عليه اللفظ تغليباً للكيد اليهودي على غيره، لأن غالب ما يروى من هذه الأباطيل من صنيعهم ، واليهود قوم بهت ، وهم أشد أعداء الإسلام عداوة للإسلام وأهله (٣).

(١) - روح البيان ٦/ ٢٨٨ .

(٢) - أنظر الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور محمد حسين الذهبي .

(٣) - الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير د/ رمزي نعاة ص: ٧١ .

❖ تسرب الإسرائيليات إلى كتب التفسر

المتبع لأيات الله الحكيمه وخاصة المتضمنة للقصص والحوادث السابقة ، يلاحظ أن القرآن الكريم كان يقصد في إيرادها مواضع العبرة ، ومحطّ الموعظة، ولم يكن غرضه مجرد الإخبار ، كما هو الشأن في كتب التاريخ التي غالبا ما تهتم بالجزئيات، وتتوسع في التفاصيل ، لأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية وعظة ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾^(١) و ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾^(٢).

ولما كانت النفس البشرية تشوق دائما إلى معرفة المجهول ، فقد كان العرب في أول الإسلام - كما كانوا قبل الإسلام ، يسألون أهل الكتاب ، وخاصة بعد أن اسلم طائفة منهم ، كعبد الله بن سلام ، وكعب الأخبار ووهب بن منبه . وهذا ما نبه عليه العلامة ابن خلدون بقوله "والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والامية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات ، وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقواعلي ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحد ثان والملاحم"^(٣).

والجدير ذكره أن بعض المفسرين تساهلوا فأوردوا الكثير من الإسرائيليات في تفاسيرهم ، وتنبه آخرون إلى هذا الخطر المحقق بتفسر القران الكريم من جراء تلك الأساطير التي شوّهت جماله ، وكدّرت صفاءه ورونقه ، فحذروا بعض الحذر .

(١) - سورة الإسراء ، آية : ٩ .

(٢) - سورة يونس ، آية ٥٧ .

(٣) - مقدمة ابن خلدون ص ٩٩٧ .

فهذا الإمام ابن عطية يقول في مقدمته : " لا أذكر من القصص إلا ما تنفك الآية
إلا به " (١).

وهذا الإمام القرطبي يقول في خطبة تفسيره : " وأضرب عن كثير من قصص
المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه ، ولا غنى عنه للتبيين " (٢).
كما أن الإمام الرازي قد أسهم بقسط وافر من الحجج العقلية والنقلية لإبطال
الكثير من تلك الخرافات .

❖ أقسام الإسرائيليات

تنقسم الإسرائيليات إلى أقسام متعددة :

(أ) — فتقسم أولاً باعتبار الصحة وعدمها: إلى صحيح وضعيف ومن
الضعيف: الموضوع .

(ب) — وتنقسم باعتبار موضوعها :

(١) ما يتعلق بالعقائد .

(٢) ما يتعلق بالأحكام .

(٣) ما يتعلق بالمواعظ والقصص مما ليس لله صلة بالموضوعين السابقين .

(ج) — كما تنقسم باعتبار موافقتها لشريعتنا أو مخالفتها إلى :

١. أخبار موافقة لما في شريعتنا .

٢. أخبار مخالفة لما في شريعتنا .

٣. أخبار سكت عنها في شريعتنا (٣).

(١) - المحرر الوجيز ٣١/١ .

(٢) - الجامع لأحكام القرآن ٣٨/١ .

(٣) - انظر أقسام الإسرائيليات وأمثلة لها ص : ٣٦ - ٤٢ من كتاب الإسرائيليات في التفسير ، للدكتور محمد حسين
الذهبي .

توجيهه لبعض الإسرائيليات توجيهها إشاريا

يورد إسماعيل حقي الإسرائيليات في تفسيره ولا يعقب في الغالب عليها برد أو قبول وهذا مما يؤخذ عليه . وأما تفسيره للقصص فهو لا يمر عليها إلا ويوجهها توجيهًا إشاريا ؛ كما أنه يوجهه بعض الإسرائيليات توجيهها إشاريا كذلك .
إن القاريء ليأخذه العجب لمحاولة الشيخ حقي أن يجد لبعض الروايات الإسرائيلية الباطلة توجيهًا إشاريًا وعلى سبيل المثال :

وعند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَشْفَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾^(١).

ذكر الشيخ إسماعيل حقي أن عصا موسى "من آسى الجنة ، طولها عشرة أذرع طول موسى عليه السلام، لها شعبتان تتقدان في الظلمة ، ... وبعد الإنتهاء من تفسيرها إشاريا قال : "وحظ العارف من الآية : أن يعرف أن الروح الإنسانية وصفاتها بمثابة موسى وقومه ، وهو يضرب عصا "لا إله إلا الله ، ولها شعبتان من النفي والإثبات تتقدان نورا استيلاء ظلمات النفس ..."^(٢)

هذا ما لا نقرّ عليه إسماعيل حقي ونخالفه مخالفة شديدة ، حفاظا على نقاء كتاب الله تعالى وتطهيرا لسمعة الأنبياء عن دنس خرافات باطلة ، وها هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أتاه عمر - رضى الله عنه - بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، غضب ثم قال : "أمتهوكون"^(٣) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بما بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به . أو يباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده . لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعه إلا أن يتعني"^(٤).

(١) - البقرة الآية ٦٠ .

(٢) - تفسير روح البيان ٢٧٣/١ .

(٣) - المنتهوك : المتحير الشاك . انظر معجم الوسيط ٦٧٠/٢ .

(٤) - مسند الإمام أحمد ٣/٣٨٧ . قال فيه ابن حجر بعدما ذكر طرق الحديث : "و هذه جميع طرق الحديث وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلا فتح البارئ ٤٠٤/١٣ ، ط : الخيرية .

المبحث الثاني

ما التزم فيه بضوابط قبول التفسير الإشاري (من خلال إستدلالة بالمأثور

والرأي لتدعيم إشاراته) ؛ وفيه هذه المطالب :

المطلب الأول - الإستدلال بالقرآن الكريم .

المطلب الثاني - الإستدلال بالسنة النبوية .

المطلب الثالث - الإستدلال بأقوال الصحابة .

المطلب الرابع - الإستعانة ببعض القواعد اللغوية .

المبحث الثاني

ما التزم فيه بضوابط قبول التفسير الإشاري من خلال استدلاله بالمآثور والرأي لتدعيم إشاراته :

من حسنات إسماعيل حقي - رحمه الله - في تفسيره الإشاري استدلاله بالمآثور، والرأي لتقوية إشاراته ، وهذا منهج سليم ، حبذا لو توسّع فيه ، إذن لعمت الفائدة.

المطلب الأول - الاستدلال بالمآثور

١- الاستدلال بالقرآن الكريم

يستدل إسماعيل حقي في بعض الأحيان بآيات قرآنية مباركة لتدعيم وتقوية ما يذهب إليه في إشاراته ، وفي أحيان أخرى لترجيح رأي على آخر ، أو لتفسير آية قرآنية، فمثلا عند قوله تعالى ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) قال: هم أهل القرآن المتخلقون بأخلاقه القائمون بأمره ونهيه الواقفون على ما أودع فيه من الأسرار والغيوب وقليل ما هم فالمراد بالذكر القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) وفي آية أخرى وهي قوله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ﴾^(٣) يقول : عظيم كيدهن لأنهن إذا ابتلين بالحب أظهرن مما يجلب القلب ما يعجز عنه إبليس مع مساعدة الطبيعة إلى الميل إليهن وقوة المناسبة بين الرجال وبينهن كما يشير إله قوله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(٤).

(١) - النحل : ٤٣ .

(٢) - النحل : ٤٤ .

(٣) - انظر روح البيان ١٦١/٤ .

(٤) - يوسف ٢٨ .

(٥) - النساء ١ .

(٦) - انظر روح البيان ٧٧/٣ .

وفي موضع آخر يلاحظ أن إسماعيل حقي يذهب إلى أن الإصطفاء أعم من المحبة والخلة ويستدل لصحة ما ذهب إليه بآيات قرآنية وذلك بقوله "الإصطفاء أعم من المحبة والخلة فيشمل الأنبياء كلهم وتتفاضل فيه مراتبهم كما يشير إليه قوله تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١)، فأخص المراتب هو المحبة وإليه يشير قوله تعالى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ ثم الخلة"^(٢).

كما نجد في مواضع أخرى يضع آيات مفسرة لأخرى وكمثال على ذلك عند قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾^(٣). قال: إن النفس لأماراة بالسوء^(٤). وفي موضع آخر عند قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَتَزَّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾^(٥) قال: ويخالفه ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(٦).

٢- الإستدلال بالأحاديث النبوية :

يلاحظ أن إسماعيل حقي يستدل بالأحاديث النبوية الشريفة وينص على صحة الحديث في بعض الأحيان و عند قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٨) على أعدائهم الأنفسية والأفاقية . وقد صح "لا تزال

(١) - البقرة ٢٥٣ .

(٢) - روح البيان ١/٣٢٢ .

(٣) - سبأ ٥٠ .

(٤) - روح البيان ٨/١٦٠ .

(٥) - النساء ٦٠ .

(٦) - يوسف ٥٣ .

(٧) - روح البيان ٣/٨٣ .

(٨) - المائدة : ٥٦ .

طائفة من أمي قائمة بأمر الله سبحانه لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك" (١)(٢).

وكذلك عند قوله تعالى ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣). قال "الأسرار ولم يفهموا ما في الصلاة من بلوغ الأوطار فقد صح "حب لي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة" (٤) (٥).

٣- استدلاله بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم :

يسعى إسماعيل حقي لتقوية إشاراتهِ وتدعيم آرائهِ أحياناً بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم .

ففي معرض إشاراتهِ المتعلقة بموت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأتي بمقولة أبي بكر - رضي الله عنه - وهذا عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلِينِ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ (٦). ورجعتم الفهقري، والإشارة في ذلك إلى أنه تعالى عاتب من تزلزل لذهاب الوساطة العظمى عن البين وهو مناف لمشاهدة الحق ومعابنته، ولهذا قال الصديق الأكبر رضي الله عنه: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت (٧).

(١) - صحيح مسلم ٥٢/٦ .

(٢) - روح البيان : ١٨٧/٦ .

(٣) - المائدة ٥٨ .

(٤) - رواه النسائي ٦١/٧ في عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وأحمد في المسند ١٢٨/٣ و ١٩٩ و ٢٨٥ ، وسنده حسن ، وصححه الحاكم ١٦٠/٢ من طريق اخر ، ووافقه الذهبي .

(٥) - روح البيان ١٧٨/٣ .

(٦) - آل عمران : ١٤٤ .

(٧) - انظر روح البيان ٨١/١ .

كما استدلل بقول عمر رضي الله عنه "كلموا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله" عند قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(١). أي بكلام يناسب حالهم واستعدادهم وقدر عقولهم وإلا لم يفهموا فلا يحصل البيان^(٢).

وفي موضع آخر ينقل قولاً للإمام علي - كرم الله وجهه - وذلك عند قوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾^(٣) روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: الصفح الجميل صفح لا توبيخ فيه ولا حقد بعده مع الرجوع إلى ما كان قبل ملابسة المخالفة^(٤).

كما عضد إشارته المستوحاة من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾^(٥). بقول لابن عباس رضي الله عنهما وهذا ما ذكره حقي بنصه "وذكر غير واحد أن في اختيار عنوان العبودية إشارة إلى أنها أعلى المقامات وقد أشير إلى ذلك فيما سلف، وأصلها الذل والخضوع وحيث إن الذل شيء لا يكون إلا بعد معرفته دلت العبودية لله تعالى على معرفته سبحانه وكما لها على كمالها، ومن هنا فسر ابن عباس قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٦) بقوله: "إلا ليعرفون"^(٧). ومن الصحابة الذين استدلل بأقوالهم كذلك عبد الله بن عمر . فعند قوله تعالى ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾^(٨) قال : "أمر بصحبة الفقراء الذين انقطعوا لخدمة مولاهم ... ثم أضاف قائلاً فمتى سمعت الترغيب في مجالسة الفقير

(١) - إبراهيم : ٤ .

(٢) - انظر روح البيان ٢٣٠/٤ .

(٣) - الحجر : ٨٥ .

(٤) - انظر روح البيان ٨٩/٥ .

(٥) - الإسراء : ١ .

(٦) - الذاريات : ٥٦ .

(٧) - روح البيان ١٠ / ٥١ .

(٨) - الكهف : ٢٨ .

فاعلم أن المراد منه الفقير الصالح ، والآثار متظافرة في الترغيب في ذلك فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - موقوفا تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبار عبيد الله تعالى وتخرجوا من الكبر" (١). ونكتفي بهذا القدر من الأقوال التي أوردتها حقي - رحمه الله - ، مستعينا بها في تقوية وإسناد ما ذهب إليه من إشارات .

٤ - إستعانه باللغة العربية :

في بعض الأحيان يورد إسماعيل حقي - عليه الرحمة - بعض المسائل اللغوية والنحوية لتدعيم إشارات فمثلا: عند قوله تعالى ﴿رَبِّهِمُ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (٢) قال : "حسبما يحصل لهم من التجلي عند ذلك، وذكر بعضهم أن لكل اسم تجليا خاصا فإذا ذكر الله تعالى حصل حسب الإستعداد ومن هاهنا يحصل تارة وجل وتارة طمأنينة و "إذا" لا تقتضي الكلية بل كثيرا ما يؤتى بها في الشرطية الجزئية، وقيل العارف متى سمع الذكر من غيره تعالى وجل قلبه ومتى سمعه منه عز وجل اطمأن ويفهم من ظاهر كلامهم أن السامع للذكر إما وجل أو مطمئن ولم يصرح بقسم آخر فان كان فالباقي على حاله قبل السماع" (٣).

كما يرجح صحة بعض الإشارات بقواعد نحوية ومن ذلك عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤). ذكر و"قيل إن الإستقامة المأمور بها - صلى الله عليه وسلم - فوق الإستقامة المأمور بها من معه عليه الصلاة والسلام والعطف لا يقتضي أكثر من المشاركة في مطلق الفصل كما يرشد إليه قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ (٥) ومن هنا

(١) - روح البيان ٣٠٧/٦ .

(٢) - الحج ، آية : ٣٥ .

(٣) - روح البيان ١٦٠/٦ .

(٤) - هود ، آية : ١١٢ .

(٥) - آل عمران : ١٨ .

قال الجنيد قدس سره : الإستقامة مع الخوف والرجاء حال العابدين والإستقامة مع الهيبة والرجاء حال المقربين والإستقامة مع الغيبة عن رؤية الإستقامة حال العارفين^(١). وعند قوله تعالى ﴿يَتَقَادِمُ أَشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٢) ذكر أمور لغوية:

(١) - سبب تسمية زوجة آدم بحواء قائلا : "وسميت حواء لملازمتها الجسم الظلmani إذ الحوة اللون الذي يغلب عليه السواد كما ذكر حقي في إشارته أن حواء هنا هي النفس .

(٢) - لماذا خوطب آدم بمفرده دون زوجته قائلا "ولشرف آدم عليه السلام النداء إليه وزوجه تبع له في سكن الجنة" .

(٣) - وفي إشارته لآدم عليه السلام أوله بالقلب لأنه من الأدمة وهي السمرة وهو المتعلقة بالجسم دون النفس سمي بذلك^(٣).

(١) - روح البيان ١/١٦٨ .

(٢) - الأعراف : ١٩ .

(٣) - انظر روح البيان ٣/١٢٩ .

الفصل الثاني

موقف إسماعيل حقي من المنهج العملي الصوفي في تفسيره ؛ وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول - الصحبة، الشيخ، والمريد وموقف حقي منها ؛ وفيه ثلاثة مطالب:

المبحث الثاني - الذكر وموقف إسماعيل حقي منه ؛ وفيه مطالب آتية :

المبحث الرابع - موقف إسماعيل من الخلوة ؛ وفيه الطالب الأربعة الآتية

الفصل الثاني

موقف إسماعيل حقي من المنهج العملي الصوفي في تفسيره؛ وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول - الصحبة، الشيخ، والمريد وموقف حقي منها ؛ وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : الصحبة ؛ وفيه مسائل تالية :

المطلب الثاني : الشيخ والمريد

المطلب الثالث : موقف إسماعيل حقي من مسألة الشيخ والمريد

المبحث الأول - الصحبة، الشيخ، والمريد وموقف حقي منها :

المطلب الأول : الصحبة ؛ وفيه مسائل تالية :

(أ) - أهميتها وفائدتها وآثارها وموقف حقي منها:

إن للصحبة أثرا عميقا في شخصية المرء وأخلاقه وسلوكه. والصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر الروحي والاقتداء العملي. والإنسان اجتماعي بالطبع لا بد أن يخالط الناس ويكون له منهم أصدقاء وأصدقاء؛ فإن اختارهم من أهل الفساد والشر والفسوق والمجون انحدرت أخلاقه، وانحطت صفاته تدريجيا دون أن يشعر، حتى يصل إلى حضيضهم ويهوي إلى دركهم.

أما إذا اختار صحبة أهل الإيمان والتقوى والاستقامة والمعرفة بالله تعالى فلا يلبث أن يرتفع إلى أوج علاهم، ويكتسب منهم الخلق القويم، والإيمان الراسخ والصفات العالية. وما نال الصحابة رضوان الله عليهم هذا المقام السامي والدرجة الرفيعة بعد أن كانوا في ظلمات الجاهلية إلا بمصاحبتهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومجالستهم له. وما أحرز التابعون هذا الشرف العظيم إلا باجتماعهم بأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

(وبما أن رسالة سيدنا محمد عليه السلام عامة خالدة إلى قيام الساعة ، فإن لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورثا من العلماء العارفين بالله تعالى، ورثوا عن نبيهم العلم والخلق والإيمان والتقوى، فكانوا خلفاء عنه في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله، يقتبسون من نوره ليضيئوا للإنسانية طريق الحق والرشاد، فمن جالسهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن نصرهم فقد نصر الدين، ومن ربط حبله بجبالهم فقد اتصل برسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وهؤلاء الوراث المرشدون صحبتهم تريق مجرب، والبعد عنهم سم قاتل، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم؛ مرافقتهم هي العلاج العملي الفعال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وغرس العقيدة، ورسوخ الإيمان، لأن هذه أمور لا تنال بقراءة الكتب، ومطالعة الكراريس، إنما هي خصال عملية وجدانية، تقتبس بالافتداء، وتنال بالاستقاء القلبي والتأثر الروحي^(١).

ومن ناحية أخرى، فكل إنسان لا يخلو من أمراض قلبية، وعلل خفية لا يدركها بنفسه، كالرياء والنفاق والغرور والحسد والأنانية، وحب الشهرة والظهور، والعجب، والكبر والبخل... بل قد يتعتقد أنه أكمل الناس خلقاً، وأقومهم ديناً، وهذا هو الجهل المركب، والضلال المبين.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٢).

فكما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية، تكشف له عن حقيقة حاله، فكذلك لا بد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص ناصح صادق، أحسن منه حالاً، وأقوم منه خلقاً، وأقوى منه إيماناً، يصاحبه ويلزمه، فيريه عيوبه النفسية، ويكشف له عن خفايا أمراضه القلبية إما بقاله أو بحاله.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((المؤمن مرآة المؤمن))^(٣).

(١) انظر الشيخ عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص: ٤٢-٤٣.

(٢) سورة الكهف: ١٠٣.

(٣) رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وقال الزين العراقي: إسناده حسن. فيض

القدر ٢٥٢/٦، وانظر: حقائق عن التصوف ص ٤٣-٤٤.

فالطريق العملي الموصل لتزكية النفوس والتحلي بالكمالات الخلقية هو صحبة الوارث المحمدي والمرشد الصادق الذي تزداد بصحته إيماناً وتقوى وأخلاقاً، وتشفى بملازمته وحضور مجالسه من أمراضك القلبية وعيوبك النفسية، وتتأثر شخصيتك بشخصيته التي هي صورة عن الشخصية المثالية، شخصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم)^(١).

فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يطيب قلوب الصحابة ويزكي نفوسهم بحاله وقاله.

فمن ذلك ما حدث مع الصحابي الجليل أبي بن كعب رضي الله عنه قال: ((كنت في المسجد فدخل رجل فصلى فقرأ فأنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فلما قضيا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه. فأمرهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقرأ، فحسّن النبي (صلى الله عليه وسلم) شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكأني أنظر إلى الله عز وجل فرقاً))^(٢).

ولهذا لم يستطع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يطبوا نفوسهم بمجرد قراءة القرآن الكريم، ولكنهم لازموا مستشفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فكان هو المزكي لهم والمشرف على تربيتهم، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٣).

(١) انظر إسماعيل حقي: روح البيان ١٧٣/٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في باب بيان القرآن على سبعة أحرف.

(٣) سورة الجمعة: ٢.

فالتزكية شيء، وتعليم القرآن شيء آخر، إذ المراد من قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(١) يعطيهم حالة التزكية، ففرق كبير بين علم التزكية وحالة التزكية كما هو الفرق بين علم الصحة وحالة الصحة، والجمع بينهما هو الكمال^(٢).

(ب) - الدليل على أهمية الصحة من كتاب الله تعالى:

١. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣)، والصادقون: هم الصفوة من المؤمنين الذين عناهم الله بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٤).

٢. قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾^(٥). الخطاب هنا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قبيل تعليم أمته وإرشادها.

٣. قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾^(٦)، أناب: رجع.

٤. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الْأَعْيُنُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۗ يَوَيْلَتَىٰ لِيَئِنِّي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۗ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾^(٧).

(١) انظر حقائق عن التصوف ص: ٤٦-٤٧.

(٢) سورة التوبة: ١١٩.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٤) سورة الكهف: ٢٨.

(٥) سورة لقمان: ١٥.

(٦) سورة الفرقان: ٢٧-٢٨-٢٩.

٥. قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

٦. قال تعالى: ﴿ثُمَّ آسَتُوئِي عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلَ بِهِ خَيْرًا﴾^(٢).

٧. قال تعالى حاكيا على لسان سيدنا موسى عليه السلام حين التقى بالخضر عليه السلام بعد عزم صادق، وعناء طويل، وسفر شاق: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٣).

(ج) - الدليل على أهمية الصحبة من الأحاديث الشريفة:

١. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة))^(٤).
٢. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: ((من ذكركم الله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله))^(٥).
٣. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل))^(٦).

(١) سورة الزخرف: ٦٧.

(٢) سورة الفرقان: ٥٩.

(٣) سورة الكهف: ٦٦-٦٧.

(٤) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الذبائح، ومسلم في كتاب البر والصلة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) رواه أبو يعلى ورجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ٢٢٦/١٠.

(٦) رواه أبو داود والترمذي في كتاب الزهد، وقال: حديث حسن غريب.

٤. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((إن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا: يا رسول الله فخيرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

٥. عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله؛ الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم؟ قال: ((أنت يا أبا ذر مع من أحببت))^(٢).

٦. عن حنظلة رضي الله عنه قال: لقيني أبو بكر رضي الله عنه، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله، ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا.

قال أبو بكر رضي الله عنه: ((فوالله إنا لنلقى مثل هذا))، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((وما ذاك؟) قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والضيعات، نسينا كثيرا. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((والذي نفسي بيده لو تدمون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة ساعة - ثلاث مرات -))^(٣).

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب التوبة. ومعنى عافسنا: عالجنا ولاعبنا، والضيعات: جمع ضيعة وهو معاش الرجل من مال أو حرفة أو صناعة.

إن هذه الأحاديث السالفة الذكر وكثيرا غيرها تبين بمجموعها أهمية الصحبة، وأثرها في النفوس، وأنها السبيل العملي للإصلاح والتربية. ولا سيما حديث حنظلة الذي يُظهر بوضوح كيف كانت مجالسة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تشع في القلوب أنوار اليقين، وتزكي في النفوس جذوة الإيمان، وترتفع بالأرواح إلى مستوى ملائكي أقدس، وتطهر القلوب من أدران المادة، وتسموا بالإيمان إلى مستوى المراقبة والشهود.

وهكذا مجالسة وراث رسول الله الله (صلى الله عليه وسلم) وصحبتهم، تزكي النفوس، وتزيد الإيمان، وتوقظ القلوب وتذكر بالله تعالى. والبعد عنهم يورث الغفلة، وانشغال القلب بالدنيا، وميله إلى متع الحياة الزائلة^(١).

المطلب الثاني : الشيخ والمريد

تعتبر مسألة وجود شيخ كامل يقوم بعملية التربية للمريدين من أهم المسائل التي يركز عليها الصوفية، وسبب ذلك كما يقول الشيخ عبد الحلیم محمود: "ولا بد في التصوف من شرط جوهرى هو التأثير الروحى أو بتعبير أدق (البركة) وهي لا تتأتى إلا بواسطة (شيخ) ومن هنا كانت السلسلة، وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخا فيؤثر بدوره في مريد أو مريدين"^(٢). ومادام الطريق إلى الله سبحانه وتعالى حافل بالعراقيل والمنعرجات الشيطانية لذلك أكد الصوفية على ضرورة ملازمة المريد لشيخ عارف اجتاز المنعطفات ووصل إلى معرفة الله تعالى، وعلى هذا الأساس فقد أصبحت "رتبة المشيخة من أعلى المراتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله"^(٣).

(١) انظر الشيخ عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص: ٤٩ وما بعدها.

(٢) حقيقة التصوف: الشيخ عبد الحلیم محمود ص: ١١٦.

(٣) السهروردي: عوارف المعارف ص: ٨٣.

وانطلاقاً مما سبق ذكره فقد كثرت كلمات الصوفية حول هذه المسألة فمنهم من شبه طريق القوم بالصحراء القاحلة المهلكة، وبعضهم شبه المرید الذي لا شیخ له بالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها معرضة للموت البطيء. وفي هذا يقول الإمام الغزالي: "المرید يحتاج إلى شیخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان ظاهرة، فمن لم يكن له شیخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة، فمن سلك سبيل البوادي المهلكة بغير خفير، فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المرید بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه"^(١).

ويقول القشيري: "يجب على المرید أن يتأدب بشیخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً، هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان"^(٢).

ويقول الرازي: "إن المرید لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفات إلا إذا اقتدى بشیخ يهديه إلى سواء السبيل، ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل، وذلك لأن النقص غلب على أكثر الخلق، وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط، فلا بد من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل ذلك الكامل، فحينئذ يصل إلى مدارج السعادات ومعراج الكمال"^(٣).

والملاحظ أن الصوفية اشترطوا أن يكون الشیخ قد قطع الطريق الصوفي كله، ومر بجميع مقاماته، فجاهد نفسه جهاداً قوياً، وبهذا طهرت نفسه من برائيتها وأوشابها، وتخلصت من أهوائها، وإلى هذا يشير ابن عجيبة^(٤) قائلاً:

(١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/١٤٧٤-١٤٧٥.

(٢) الرسالة ص: ١٨١، وعوارف المعارف ص: ٩٦.

(٣) التفسير الكبير: الفخر الرازي ١/١٨٣-١٨٤.

(٤) أحمد بن محمد الإدريسي، الشافعي، الصوفي، مفسر، من تصانيفه: إيقاظ الهمم في شرح الحكم. توفي عام ١٢٢٤هـ،

فهرس الفهار ٢/٢٢٨.

"يشترط في الشيخ أن يكون حل في منازل السائرين، وهي مقامات اليقين بحيث يكون سلوكها وعرفها ذوقا وحالا ومقاما، لتصح التوبة بشروطها وأركانها، وتحقيق الورع، والزهد، والخوف، والرجاء، والتوكل، والصبر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة، وحصل له الفرق بين الروحانية والبشرية، والسلوك، والجذب، والفناء، وأحكم أحكام التخلية والتحلية، و(كل شرب) من مشارب القوم وأذواقها كان منها ناهلا وشاربا، فإذا حصل هذه المراتب وذاق هذه الأذواق استحق أن يكون شيخا مرييا" (١).

كما نص الصوفية على ضرورة لبس المرید خرقة يلبسها الشيخ له دلالة على قبول تخلية (المرید) عن شهوات الدنيا ومتاعها الزائل، وتوطين نفسه على الزهد والقناعة، وبهذا تفتح له أبواب الخيرات، وتنتزل عليه البركات.

وفي هذا يقول السهروردي: "لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمرید، وتحكيم من المرید للشيخ في نفسه، والتحكيم سائق في الشرع لمصالح دنيوية، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبه ولبسه، يتقصد شيخا بحسن ظن وعقيدة، يحكمه في نفسه لمصالح دينه، يرشده ويهديه ويعرفه طريق المواجهيد، ويصمره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوابه في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة إظهارا للتصرف فيهن، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم، ودخوله في حكم الشيخ دخوله في حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المبايعه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " (٢).

وجوهر العلاقة بين الشيخ والمرید ينظم أساسها الإستسلام التام للشيخ والطاعة المطلقة والإمتثال الكامل لكل ما يأمر به أو ينهى عنه، فلا اعتراض ولا تمهل ولا تفكير، إنما لسان حاله دوما، سمعا وطاعة.

(١) الفتوحات الإلهية: ابن عجيبة ص: ٥٥٦.

(٢) السهروردي: عوارف المعارف ص: ٩٦.

وإلى هذه المعاني أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني بقوله: "فالواجب على المرید ترك مخالفة شيخه في الظاهر، وترك الاعتراض عليه في الباطن، فصاحب العصيان بظاهره تارك لأوبه، وصاحب الاعتراض بسره متعرض لعطبه، بل يكون خصما على نفسه لشيخه أبدا يكف نفسه ويزجرها عن مخالفته ظاهرا وباطنا"^(١).

ويقول السهروردي: "فأحسن أدب المرید مع الشيوخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره"^(٢).

والقشيري يقول: "يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه، ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانته في حق صحبتته، ولو وقع له مخالفة فيما أشار عليه، فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت، ثم يستسلم لما يحكم به شيخه عقوبة له على جنائته ومخالفته"^(٣).

وهذا مثال واقعي ذكره صاحب الإبريز، يعبر عن مدى رسوخ هذا الشرط في قلوب وعقول المریدين، يقول الدباغ: "إن بعض الأكابر كان له عدة أصحاب لا يتخيل النجاة إلا من واحد منهم، فأراد أن يختبرهم يوما، فاخترهم ففروا بجملتهم سوى ذلك الواحد، وذلك أنه تركهم حتى اجتمعوا على باب خلوته، فأظهر لهم صورة امرأة جاءت فدخلت الخلوة . فقام الشيخ ودخل معها، فأيقنوا أن الشيخ اشتغل معها بالفاحشة، فنفروا كلهم وخسرت نيتهم إلا ذلك الواحد، فإنه ذهب وأتى بالماء وجعل يسخنه بقصد أن يغتسل به الشيخ، فخرج عليه الشيخ، فقال: ما هذا الذي تفعل ؟ فقال: رأيت المرأة قد دخلت، فقلت: لعلك تحتاج إلى غسل، فسخت لك الماء، فقال له الشيخ: وتتبعني بعد أن رأيتني على المعصية؟ فقال: ولم لا أتبعك والمعصية لا تستحيل عليك، وإنما تستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم أخالطك على أنك نبي لا تعصي، وإنما خالطتك على أنك بشر،

(١) الجيلاني: الغنية ٢/١٦٤.

(٢) السهروردي: عوارف المعارف ص: ٣٠٤.

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية ص: ١٨٢.

وأنت أعرف مني بالطريق، ومعرفتك بالطريق باقية فيك، والوصف الذي عرفتك عليه لم يزل، فلا تتبدل لي نية ولا يتحرك لي خاطر . فقال له الشيخ: يا ولدي تلك الدنيا تصورت بصورة امرأة وأنا فعلت ذلك عمدا لينقطع عني أولئك القوم، فادخل يا ولدي، وفقك الله معي إلى الخلوة، فهل ترى امرأة فيها؟ فدخل، فلم يجد امرأة، فازداد محبة على محبته" (١).

وقد استدل الصوفية بقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح الذي اشتهرت تسميته بالخضر على صحة مسلكهم وشرعية الطاعة العمياء التي فرضت على المرئيين، إذ تشير القصة عندهم إلى ما كان يجب على موسى نحو شيخه الخضر من الأدب الذي يمنع مناقشته فيما يبدو خروجاً على الشرع، لكن العلماء المحققين اعتبروا هذا المسلك التفسيري للنص القرآني ضرباً من المحازفة وخبوطاً في أودية الضلالة والانحراف. وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: "ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غلطاً من وجهين:

أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل، وأما محمداً (صلى الله عليه وسلم) فرسالته عامة لجميع الثقيلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر: كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتباعه، فكيف بالخضر سواء كان نبياً أو ولياً؟! ولهذا قال الخضر لموسى: (أنا على علم من علم الله، علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمك الله، لا أعلمه)، وليس لأحد من الثقيلين الذين بلغتهم رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يقول مثل هذا.

الثاني: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشرعية موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك، فلما بينها له وافقه على ذلك، فإن حرق السفينة؛ ثم ترقيعها لمصلحة أهلها، خوفاً من الظالم أن يأخذها، إحسان إليهم، وذلك جائز" (٢).

(١) الدباغ: الإبريز ص: ٢٢٢.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ١١/٢٦٣-٢٦٤، انظر مجموعة الرسائل والمسائل ٧٢/٢.

المطلب الثالث : موقف إسماعيل حقي من مسألة الشيخ والمريد

يعالج حقي - رحمه الله - مسألة الشيخ والمريد مبيناً أهمية وجود الشيخ يعرف المریدین بمعالم طريق الله تعالى، وهذا عند إشارته لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله ﴿وَلَيْكِنَّ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

يقول: (إن أمر التزكية إنما هو إلى الله؛ فإنه بفضلته ورحمته وفق العبد للطاعات والأسباب، ولكن لا بد للعبد من أستاذ يتعلم منه كيفية التزكية على مراد الله تعالى، وأعظم الوسائل هو النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم من أرشد إلى الله تعالى)^(٢).

ويقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾^(٣)، بعد أن يفسرها تفسيراً ظاهرياً:

"فإذا وقفت على هذا التفصيل فاجتهد أيها العبد الدليل في طريق المتابعة والموافقة للأنبياء والكاملين، وتمسك بذيل شيخ واصل إلى اليقين، لعله يجمع بإذن الله شملك بعدما تبدد وصلك وتفرق حالك، فإن الطريق المجهول لا بد له من مرشد وإلا فالهلاك، عصمنا الله وإياكم من الخلاف والاختلاف، وأسلكتنا طريق الأخيار من الأسلاف، وثبتنا فيه إلى آخر الآجال، وحشرنا بأهل الفضل والكمال"^(٤).

يتضح مما سبق بأن الشيخ بمثابة الأستاذ للمريد، فالمريد كالطالب، والطالب لا يستطيع أن يتقدم في دروسه بدون موجه ومرشد، ولا يستطيع الفرد في نظر الصوفية أن يسلك هذا الطريق بمفرده، لأنه طريق صعب متشعب المسالك كثير المنحنيات مليء بالصعاب، يتربص بسالكيه أعداء أشداء في حاجة إلى جهاده، ومن هؤلاء الأعداء: الشيطان والنفس والهوى.

(١) سورة النور: ٢١.

(٢) تفسير روح البيان ١٧٣/٦.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٤) روح البيان ٩٥/٢.

لذلك لا بد لمن يسلك هذا الطريق الصعب من مرشد أو هاد يأخذه بيده، هو الشيخ.

أما عن الشروط والمواصفات المطلوبة في الشيخ، فيذكرها إسماعيل حقي في ثنايا تفسيره، وهي كالتالية:

١. أن يكون عالماً بالفرائض العينية^(١).

٢. أن يكون عارفاً بالله تعالى^(٢).

٣. أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس ووسائل تربيتها^(٣).

٤. أن يكون مأذوناً بالإشاد من شيخه^(٤).

وأما المرید، فهو: سالك الطريق الذي يسير في الطريقة حسب إرشادات شيخه، فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه، حتى يصل إلى غايته.

ويشير حقي (رح) إلى أهم واجبات المرید نحو شيخه في مواضع مختلفة من تفسيره :

١. إطاعة المرشد في كل حال من الأحوال. يقول إسماعيل حقي - عليه الرحمة - في

إشارته عندما يتعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥): "فيه إشارة إلى أن

المرید الصادق من يكون مستسلماً لتصرفات شيخه، وأن لا يتنفس إلا بإذن شيخه،

ومن خالف شيخه في نفسه سرا أو جهرا لا يشم رائحة الصدق"^(٦).

وهذا ما لا نقر به الشيخ إسماعيل حقي - عليه الرحمة -، لأنه لا ينبغي للمريد أن يعتقد

في المشايخ العصمة، لأنهم ليسوا أنبياء.

(١) انظر: روح البيان ٥٢٧/٦.

(٢) انظر نفس المصدر ٤٤٤/٤، ٢١١/١.

(٣) انظر نفس المصدر ٢٨٠/٢.

(٤) انظر نفس المصدر ٢٨٢/٢.

(٥) سورة النور: ٦٢.

(٦) روح البيان ٢٣٩/٦.

٢. ومن إشارات حقي - عليه الرحمة - في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَنْ نُبْرِحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ

حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾^(١)، يقول: "وإن أخطأ المرید في حق شيخه، فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة، ليهديه شيخه. إذا استسعد بخدمة شيخ وصحبه بصدق الإرادة ممثلاً لأوامره ونواهيه، قابلاً لتصرفات الشيخ في إرشاده يصير بنور ولايته سميعاً وبصيراً"^(٢).

٣. وواجب المرید ألا يكتفم أي سر عن شيخه، بل ينبغي عليه أن يذكر له كل ما يجول بخاطره من أسرار وخطرات وهموم ومشكلات^(٣)

(١) سورة طه: ٩١.

(٢) انظر روح البيان ٤٩٨/٥.

(٣) انظر نفس المصدر ٢٦٩/٥.

المبحث الثاني

الذكر وموقف إسماعيل حقي منه ؛ وفيه مطالب آتية :

المطلب الأول : التمهيد ، ومعاني كلمة الذكر ، ومكانته

المطلب الثاني - أقسام الذكر عند إسماعيل حقي

المطلب الثالث - ألفاظ الذكر وصيغته :

المطلب الرابع - حكم الذكر بالاسم المفرد [الله] وكلمة "هو" :